



مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة

تأليف

الدكتور نعمة رحيم العزاوي

استاذ العلوم اللغوية

كلية التربية (ابن رشد) - جامعة بغداد

منشورات المجمع العلمي

مطبعة المجمع العلمي

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

١٤٢١ هـ

مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة

٢٠٠١ م



مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة

تأليف

الدكتور نعمة رحيم العزاوي

استاذ العلوم اللغوية

كلية التربية (ابن رشد) - جامعة بغداد

منشورات المجمع العلمي

مطبعة المجمع العلمي

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

تعد اللغة العربية في نظر اكثر الباحثين ، عرباً كانوا أو غير عرب ، الاصل القديم لآخواتها الجزريات ، وتعد ايضاً احدى اقدم اللغات التي عرفها العالم القديم ، وهي تجمع الى ذلك خصلتين اخريين : إحداهما انها اللغة الوحيدة المقدسة بين اللغات المعاصرة ، اذ لا توجد غيرها في عصرنا لغة نزل بها كلام الله تعالى ، وحملت الى اهل الارض جميعاً تعاليم السماء . والاخرى انها اللغة القديمة الوحيدة التي لاتزال حية ، وستبقى كذلك باذن الله ، في حين ان اغلب اللغات التي عاصرتها قد انقرضت ، واصبحت في عداد اللغات الميتة .

وتعد اللغة العربية في نظر العرب الوشيعة القوية التي تجمع اقطارهم ، وتؤلف بين قلوبهم ، وتعمل على توحيدهم ، وجمع كرامتهم ، كما جمعتهم في غابر العصور ، وجعلت منهم امة واحدة . وهي الى ذلك وعاء تراثهم العريق ، وسجل حضارتهم الباذخة ، التي كانت خير ينبوع نهلت منه الامم ، وأقامت بفضلها حاضرها العتيق .

ولشرف هذه اللغة واهميتها للعالم ولابنائها الذين يتكلمون بها ، كانت — ولا تزال — موضع عناية قيادة قطرنا المناضل وعلى رأسها السيد الرئيس القائد المنصور بالله صدام حسين — حفظه الله ورعاه — . لقد كان العراق بفضل هذه القيادة التاريخية اسبق اشقائه الى اصدار قانون يحمي العربية ، ويضمن نقاءها ، ويذب عنها عوامل الانحلال والتشويه والتغيير ، ونعني به قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية رقم ٦٤ لسنة ١٩٧٧ الذي اصدره مجلس قيادة الثورة الموقر .

ولم تكتف قيادتنا الحكيمة باصدار هذا القانون ، بل تعهدت تطبيقه ،
ودعت جميع مؤسسات الدولة الى وضعه موضع التنفيذ ، وليس ادل على
ذلك من دعوات السيد الرئيس القائد صدام حسين حفظه الله ورعاه ، المتكررة
الى العناية باللغة العربية ، والنهوض بمستوى تعليمها ، لتكون في متناول
ابنائنا على اختلاف مراحلهم الدراسية ، ووسيلة ميسرة يعرب بها مثقفونا
والركن الاساسي في الحفاظ عليها وتنميتها ، وجعلها وافية بمتطلبات العلوم
وسائر وجوه النشاط المعرفي والذهني .

ومن هنا يأتي دور المجمع العلمي بوصفه احد حصون اللغة المهمة ،
والركن الاساسي في الحفاظ عليها وتنميتها ، وجعلها وافية بمتطلبات العلوم
والاداب والفنون . كما تشير الى ذلك المادة (٢) اولا من قانون المجمع
العلمي رقم ٣ لسنة ١٩٩٥ . فالذي يتبع نشاط المجمع العلمي يجد ان للغة
النصيب الاوفى من ضروب هذا النشاط ، الذي تمثل باصدار عدد من
المعجمات الخاصة بالمصطلحات العلمية والحضارية ، ونشر الكتب والبحوث ،
واقامة الندوات والقاء المحاضرات لمناقشة مشكلات اللغة ، ووسائل
ترقية تعليمها .

وما هذا الكتاب الذي تقدمه لقراء العربية إلا مثل آخر من امثلة عناية
المجمع العلمي باللغة العربية ، فقد جاء تأليفه بناء على تكليف دائرة علوم اللغة
العربية للدكتور نعمة العزاوي - عضو دائرة اللغة العربية في المجمع - لما
يتمتع به من كفاية معروفة ورصانة علمية مشهودة له واهتمامه وحرصه على
سلامة لغة الضاد ، وتسهيل تعليمها الى الجيل الجديد بأسلوب مشوق وجذاب .
لقد رأى المجمع العلمي ان اهمية الموضوع وحاجة الباحثين اليه تتطلب
اخراج هذا الكتاب ، اذ ليس خافياً ان سلامة المنهج الذي يتبعه اللغوي تجعل بحثه
اكثر موضوعية ، وتجعل النتائج التي يتمخض عنها بحثه اكثر دقة ، واقدر

على خدمة اللغة ، لتؤدي وظيفتها المنوطة بها في ترصين نهضتنا العلمية ،
وترسيخ بنائها الشامخ •

والمجمع العلمي اذ يقدم هذا الانتاج ليتقدم بوافر الشكر والتقدير الى
المؤلف لقبوله هذا التكليف ولما بذله من جهد وعناء ليكون هذا الكتاب في
هذه المرحلة الدقيقة من تاريخنا المعاصر في تناول القراء والباحثين غذاءاً فكرياً
وزاداً للمعنيين باللغة والتراث •

ومن الله التوفيق ••

أ.د. ناجح محمد خليل الراوي
رئيس المجمع العلمي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تعد مناهج البحث اللغوي اهم ما اسفر عنه الدرس اللغوي الحديث ، ذلك لان امر هذا الدرس لا يصح ، ولا تستقيم له نتائج ، مالم يصح المنهج الذي تدرس اللغة في ضوءه ، ومالم يكن المنهج الذي يسير عليه دارس اللغة موافقا لطبيعة هذه الظاهرة الانسانية ، وملائما الهدف الذي يتوخاه الدارس من بحثها •

ومعنى ذلك ان المنهج الذي يتبعه الدارس في بحثه اي لغة ، ينبغي ان تتوافر فيه خصلتان ، الاولى ان يكون مستمدا من طبيعة اللغة ، وألا يكون مقحما عليها ، او مستعارا من افكار وافكار غريبة عنها • والآخرى ان يكون المنهج ملائما الغرض الذي قصده الباحث من دراسته •

ومن هنا تعددت مناهج البحث اللغوي ، وتباينت اتجاهاته ، لتعدد الاغراض التي تدعو الى دراسة اللغات ، فكل غرض منهج يكون الوسيلة المثلى لتحقيقه ، فلا يصلح غيره لان يحل محله ، او يكون بديلا منه •

فالمنهج الذي يتبعه من يريد ان يدرس لغة ما ابتداء ، ليستخلص قواعدها واظمته ، وقوانينها التي تتحكم فيها ، او التي يحرص المتكلمون بها على مطابقتها في نشاطهم اللغوي ، غير المنهج الذي يتبعه دارس آخر ينشد متابعة ظاهرة لغوية معينة في لغة مخصوصة ، وملاحظة جذورها ، وما عرض لها من تطور عبر الزمن ، وهذان الدارسان غير دارس آخر يروم من درسه اللغة مقارنتها بغيرها من اخواتها اللاتي ينتمين الى فصيلتها ، للوقوف

على وجوه الشبه والاختلاف بين هذه اللغة وأخواتها ، أو للاهتمام إلى
الأصل المشترك لبعض الظواهر التي في بعض لغات الفصيلة الواحدة •

وهكذا تتباين مناهج البحث اللغوي ، وتتفاوت بحسب اختلاف
الأهداف التي يتوخاها الباحثون من دراستهم للغات ، ولذا لا يصح للباحث
أن يتعصب لمنهج دون غيره ، ولا يحق له أن يفاضل بين المناهج ، أو يدعي
لأحدها فضلاً على الآخر ، فلكل منهج فضله ، وميدانه الذي يطبق فيه •

ولاهمية مناهج البحث اللغوي — كما تقدم — كثر الكلام عليها ،
وتعددت الإشارة إليها في مؤلفات بعض اللغويين المعاصرين ، ولكن أحداً
منهم — فيما أعلم — لم يجرّد لهذه المناهج كتاباً يقصره عليها ، فيعرض فيه
كل منهج منها عرضاً مفصلاً ، يتناوله بمستوييه النظري والتطبيقي ، وإنما
الذي نجده في هذه المؤلفات هو كلام مقتضب مبتسر على بعض المناهج ، تغلب
عليه الترجمة الحرفية من الكتب الأجنبية ، ويشيع فيه الغموض ، ويفتقر إلى
النماذج التطبيقية ، مما جعل باحثينا وأساتذتنا وطلاب الدراسات العليا في
جامعاتنا وجامعات الوطن العربي " يشعرون بالحاجة الماسة إلى مؤلف — مثل
هذا الكتاب — يستوفي المناهج كلها ، ويخص كلا منها بوقفة طويلة تتناول
ظروف نشأته وأساسه وملامحه النظرية ومزاياه وعلاقته بغيره من المناهج ، ثم
يشفع ذلك ببعض التطبيقات عليه ، لتتضح طريقة تطبيقه على اللغة العربية ،
ولتستبين لنا مدى حاجة لغتنا إلى الاستفادة منه • ولم يغفل هذا الكتاب بيان
ما لمناهج البحث اللغوي من جذور في تراثنا ، فإن كان صحيحاً أن هذه
المناهج في مواصفاتها التي تعارفنا عليها هي من صنع الأوربيين ، ومن مقولاتهم
التي أخذناها عنهم ، فإنه صحيح أيضاً أن أعمال اللغويين العرب القدماء قد
انطوت على ملامح من هذه المناهج ، وأنهم بفطرتهم الصافية ، وبما عرفوا به
من سداد النظر قد تهيأ لهم أن يطبقوا في جانب من أعمالهم بعض خطوات
المنهج الوصفي " ، أو صدرت عنهم إشارات يمكن أن تعد من تطبيقات

المنهج التاريخي او التحويلي * ولكن من الخطأ ان يدعي باحث ان النحاة العرب كانوا وصفين بالمعنى الحديث لهذا المنهج ، او كانوا قد طبقوا هذا المنهج او ذاك على الوجه الذي فعله اللغويون الاوربيون في هذا العصر .

إن ذلك لم يحصل لسبب واضح ، هو ان هذه المناهج جميعها حديثة ، لم تعرف الا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وان الاوربيين هم الذين أقاموا دعائمها ، ووضعوا قواعدها ، ثم درسوا في ضوءها لغاتهم الحية التي لا يزالون يتكلمون بها * غير ان هذه الحقيقة لا تمنعنا من تأكيد ما اشرنا اليه آنفا من ان ما وقف عليه الاوربيون من افكار واشارات في تراثنا العربي اللغوي ، ربما كانت منطلقهم الى وضع هذه المناهج ، او الضوء الذي انار لهم طريقهم اليها .

لقد اقتضت طبيعة هذا الكتاب ان يقع في قسمين ، تناولت في القسم الاول مفاهيم ومصطلحات تعد توطئة لدراسة مناهج البحث اللغوي ، إذ لا يستغني الباحث في هذه المناهج عن ان يقف على طبيعة البحث اللغوي بوجه عام ، وخصائصه وفوائده وميادينه ، وعلاقته بالعلوم الاخرى ، ومسىء استفادته منها ، وضرورة استقلاله عنها ، لتحقيق له الموضوعية والدقة اللتان ترتقيان به الى مصاف البحوث العلمية .

وتناولت في القسم الثاني مناهج البحث اللغوي ، فعقدت لكل منها فصلا توخيت أن أحيط فيه بالجانبين النظري والتطبيقي للمنهج ، متلمسا جذوره في التراث اللغوي العربي ، متعقبا ما ورد منه في كتب اللغة والنحو من ملامح ، تشهد للعلماء العرب بالاصالة والسبق الى افكار يحسب بعضهم انها مما ابتكره الغربيون ، او مما ابدعته قرائحهم ، في حين اني لا استبعد - كما تقدم - ان تلك الافكار التي التمتعت في تراثنا اللغوي قد تلقفها الغربيون ، وانعموا النظر فيها ، بعد ان وصلت الى ايديهم عن طريق الاطلاع المباشر على جانب من تراثنا اللغوي ، او عن طريق ما ترجمه يهود الاندلس في

وقت مبكر من تاريخ اوربا الحديث ، فأسسوا عليها مناهج البحث اللغوي ،
وصاغوها على الوجه الذي اخذناه عنهم في بداية النصف الثاني من القرن
العشرين .

إنني آمل ان يسد هذا الكتاب فراغاً ملحوظاً في المكتبة اللغوية العربية
الحديثة ، وان يجد فيه باحثونا واساتذة جامعاتنا ما يبحثون عنه فيما بين
أيديهم من كتب علم اللغة ، فلا يجدونه ، او لا يجدون منه إلا تنقلاً متناثرة في
هذا الكتاب وذاك ، وهي جميعاً مما لا ييل صدى ، او ينقع غلة .

الدكتور نعمة رحيم العزاوي

بغداد في ٤ جمادى الاولى ١٤٢١ هـ

الموافق ٥/٨/٢٠٠٠ م

القسم الاول

مفاهيم ومصطلحات في اللغة ودراستها

(١)

علم اللغة

اللغة والبحث اللغوي :

عرف الانسان اللغة منذ أقدم عصوره ، فهي الظاهرة التي ميزته من الكائنات الاخرى ، وهي الوسيلة التي هيأت له أن يكون المجتمعات ، وان يبني الحضارات . ومن هنا يرى الباحثون ان (اللغة) و (المجتمع) و (الحضارة) ظواهر متداخلة ، يبنى بعضها على بعض ، وتتأثر إحداها بالآخرى .

وقد أثار المفكرون على توالي العصور قضية اولية اللغة ، وصورتها الاولى التي وجدت عليها ، وحاولوا تلمس السبيل الى معرفة كيفية تطور هذه الصورة ، والمراحل التي مرت بها حتى انتهت الى ما هي عليه عند هذه الامة او تلك ، وعلى هذا اللسان او ذاك ، ووضعوا في ذلك نظريات كثيرة ، غير ان أياً من هذه النظريات لم تستطع تفسير هذه النشأة ، ولم تأت بما يقنع الباحثين ، ولذا قرر علماء اللغة منذ وقت مبكر من العصر الحديث ، ان يهجروا البحث في هذه القضية ، وان يعدوا الخوض فيها ضرباً من الخوض في المغيبات (الميتافيزيق) ، « ويكاد يكون الخوض فيه عملاً قليل الجدوى ، ضعيف النتائج ، وضرباً من الافتراض والتخيل »^(١).

(١) فقه اللغة وخصائص العربية (محمد المبارك) : ١٨٦ ، ط ٥ ، ١٩٧٢ .

وأثار المفكرون أيضاً علاقة اللغة بالفكر ، وسبق أحدهما الآخر ،
واختلفوا في ذلك اختلافاً كبيراً ، ولكن البحث الحديث قرر أيضاً الابتعاد عن
هذه الدائرة المفرغة ، التي لن يصل البحث فيها إلى رأي علمي * وكل الذي
أسفر عنه البحث في هذه القضية هو أن اللغة والفكر متلازمان ، وأنهما وجهان
لورقة نقدية واحدة ، كما أنهما ضروريان لقيام المجتمع الإنساني ، وبناء
الحضارة الإنسانية * وهذا يعني أن الباحثين في اللغة قد نجحوا من طريقهم
« البحث في مسائل لغوية أو في جوانب منها ، ذلك لأنها مسائل لا سبيل إلى
درسها الدرس العلمي » الصحيح ، إما لضالة مادتها ضالة ترد الكلام فيها
ضرباً من ضروب الحُـدس والتخمين ، أو ضرباً من ضروب (الميتافيزيقا) ، وإما
لاستحالة درسها دراسة علمية لأسباب الأخرى « (٢) * ومن هذه المسائل - كما
تقدم - البحث في (نشأة اللغة) والبحث في (اللغة والفكر) ، وسبق
أحدهما الآخر * .

فالإنسان عرف اللغة ومارسها منذ آلاف السنين ، هي عمر الإنسان على
هذه الأرض ، ولكنه لم يفكر في تدوين اللغة ، وتخليدها للأجيال ، إلا بعد أن
قطع أشواطاً في مضمار النضج والتقدم ، وقد كان ذلك في مصر والعراق
منذ خمسة آلاف سنة ، وبقيت شعوب كثيرة آنذاك لم تدون لغتها إلا في
مرحلة أتيح لها فيها أن تتعلم الكتابة ممن سبقهم إليها * فاللغة إذن قديمة
قدم المجتمع الإنساني ، أما الكتابة فظاهرة حديثة إذا قيست بها * وثمة شعوب
كثيرة في عصرنا هذا لم تعرف الكتابة إلا منذ عهد قريب ، ولا يزال أغلب أفرادها
أمية * ومعنى ذلك أن اللغة توجد لأن الإنسان يحتاج إليها في حياته ، أما
الكتابة فشأن حضاري ، لا يتهيأ للإنسان إلا في مرحلة نضجه وتطوره (٣) * .

(٢) علم اللغة (د. محمود السمران) : ١١ . دار النهضة العربية ،
بيروت ، د. ت .

(٣) مدخل إلى علم اللغة (محمود فهمي حجازي) : ٩ ، ط ٢ ، ١٩٧٨ .

وكما تأخرت الكتابة عن اللغة ، كذلك تأخر البحث في اللغة ، ولم ينظر الانسان في لغته نظرة علمية إلا بعد ان اصاب حظا من النضج مكّنه من البحث فيها ، ومعرفة حقيقتها • ومعنى ذلك ان ممارسة اللغة شيء ومعرفة كنهها وخصائصها شيء آخر • فمن « يشعل النار من بسطاء الناس لا يعرف كنه هذه الحادثة الطبيعية ، وصلتها ببقية الحوادث الطبيعية ، ولا يعرف كل من يستخدم مرافق الطبيعة كنه هذه المرافق • وكذلك استعمال اللغة فانه لا يقتضي معرفة كنه هذه اللغة وخصائصها والقوانين التي تسير بحسبها ، اذ المعرفة التي نريدها هنا معرفة علمية تتناول قوانين اللغة واسرارها ، في حين ان معرفة من يستعملونها معرفة سطحية كمعرفة اجسامنا ومجتمعنا والطبيعة التي نعيش فيها قبل ان ندرسها دراسة علمية عميقة » (٤) •

وليس البحث في اللغة بدءاً من البحث في المواد والظواهر الاخرى المحيطة بالانسان او المتعلقة بحياته او جسمه ، فالانسان يتنفس منذ وجد ولكن معرفته الحقيقية بالجهاز التنفسي وتفاصيل عمله تعد من الحقائق التي جاء بها البحث الحديث • وقل مثل ذلك عن استعمال الانسان الماء واستفادته منه طوال العصور ، ولكن التحليل العلمي للماء ومكوناته وخصائصه عمل علمي لا يعرفه من يستخدم الماء او يشربه (٥) •

نخلص من ذلك لى ان اللغة قديمة قدم المجتمع الانساني ، ولكن البحث فيها لم ينشأ الا بعد ان خطا الانسان خطوات واسعة في مضمار التقدم ، ولهذا هو امر حديث اذا قيس بتاريخ الانسان •

(٤) فقه اللغة وخصائص العربية : ١٦ •

(٥) مدخل الى علم اللغة (محمود فهمي حجازي) : ١٠ •

علم اللغة :

إذا كان لابد من تعريف لـ (علم اللغة) فإن أقرب تعريف له هو العلم الذي يبحث في (اللغة) أو يتخذها موضوعاً له ، ليصل من ذلك إلى معرفة خصائصها والقوانين التي تنظم استعمالها ، ومعرفة ما عرض لها من تطور عبر العصور في أصواتها ومفرداتها وتراكيبها ومعاني الفاظها ، وبيان القوانين التي تقف وراء هذا التطور ، أو تقود إليه .

فعلم اللغة إذن يبحث اللغة بوجه عام ، وهو بهذا المعنى « يختلف عن دراسة جزئيات اللغة ، فعلم النحو والصرف وعلم مفردات اللغة تبحث اللغة في نطاق محدود ضيق ، فعلم مفردات اللغة يبحث في مفردات معينة جزئية ويعطينا معانيها ، وعلم النحو والصرف يعطينا قواعد لغة معينة في عصر معين ، فلا تطبق مثلاً قواعد (ان واخواتها) أو (كان واخواتها) على لغة أخرى ، فقواعد النحو والصرف ضيقة النطاق لا تنطبق إلا على لغة واحدة في حدود معينة من الزمان والمكان »^(٦) .

ومعنى ذلك أن علم اللغة هو دراسة شاملة للغة بوجه عام ، لاستخراج قوانينها الخاصة بها ومعرفة تطورها ، أما علم الصرف والنحو ومفردات اللغة فليست إلا علوماً جزئية بالنسبة إليه^(٧) .

وقد أحسن سوسير في تحديد موضوع علم اللغة حين قال : إن « الهدف الحقيقي الوحيد لعلم اللغة هو أن اللغة تدرس في ذاتها ومن أجل ذاتها »^(٨) . ومعنى قوله هذا أن علم اللغة يدرس اللغة « من حيث هي لغة ، يدرسها كما

(٦) فقه اللغة وخصائص العربية ١٨ .

(٧) نفسه : ١٨ ، ١٩ .

(٨) علم اللغة العام (سوسير) ، ترجمة يوثيل عزيز : ٢٥٣ ، وينظر :
دروس في الالسانية العامة (سوسير) ترجمة صالح القرمادي : ٣٤٧ .

هي ، يدرسها كما تظهر ، فليس للباحث فيها ان يغير من طبيعتها ، كما انه ليس للباحث في موضوع اي علم من العلوم ان يغير من طبيعته ، فليس له ان يقتصر في بحثه على جوانب مستحسناً اياها ، وينحّي جوانب اخرى استهجاناً لها او استخفافاً بها ، او لغرض في نفسه ، او لاي سبب آخر من الاسباب» (٩) .

ويستفاد من قول سوسير ايضا ان علم اللغة « يدرسها لغرض الدراسة نفسها : يدرسها دراسة موضوعية تستهدف الكشف عن حقيقتها ، فليس من موضوع دراسته ان يحقق اغراضاً تربوية مثلاً ، او اية اغراض عملية اخرى . انه لا يدرسها هادفاً الى (ترقيتها) او الى تصحيح جوانب منها ، او تعديل آخر ، ان عمله قاصر» (١٠) على أن يصفها ويحللها بطريقة موضوعية» (١١) .

ولا يستغني علم اللغة عن الاستعانة بجملة علوم اخرى « كعلم الاجتماع وهو اكثر العلوم الاخرى غير اللغوية صلة باللغة ، فانه يبحث اللغة على انها حادثة اجتماعية من حيث تأثرها بالحوادث الاجتماعية الاخرى ، وكذلك علم النفس فانه يدرسها على انها حادثة نفسية . فللغة اذن جانب اجتماعي وآخر نفسي» (١٢) .

ومما يستعين به علم اللغة من علوم ، علم التشريح وعلم وظائف الاعضاء ، وعلم الفيزياء ، ذلك ان اللغة « في حد ذاتها حادثة صوتية فيزيولوجية بمعنى انها اصوات تحدث بطريق معينة بالنسبة الى اعضاء جسم الانسان ، ويمكن

(٩) علم اللغة (السعران) : ٥ .

(١٠) كذا والصواب : مقصور .

(١١) علم اللغة (السعران) : ٥١ .

(١٢) فقه اللغة وخصائص العربية : ١٩ .

ان تدرس في علم الفيزياء الصوتي الذي يدرس تواترها وشدتها وما اشبه ذلك من مسائل» (١٣) .

يتضح من ذلك ان دراسة اللغة ليست سهلة او ميسورة ، « ذلك ان اللغة اداة مركبة معقدة ، فهي ذات جوانب كثيرة ، وتتألف من عناصر متعددة ، وتأخذ خلال الزمن اشكالا مختلفة ، تتعدد وتتغير بتعدد البيئات والمجتمعات والطبقات » (١٤) .

ولتعدد عناصر اللغة ، وتباين العوامل المؤثرة في كل عنصر من هذه العناصر ، لا يستطيع علم اللغة ان ينهض منفردا بدراسة هذه العناصر ، ما لم توازره في مهمته العلوم التي اشرنا اليها . فاللغة كما تقدم « تتألف من حوادث (صوتية) يبحثها علم الفيزيولوجيا وعلم الفيزياء ، و (نفسية) يبحثها علم النفس ، و (اجتماعية) يبحثها علم الاجتماع ، و (تاريخية) يسردها علم التاريخ ويسجلها ، و (جغرافية) فيبحث علم الجغرافية اللغوي في توزيعها في القارات والمناطق والاقاليم » (١٥) . وهي تتألف من عناصر هي (الاصوات) و (الالفاظ) و (الصيغ) و (التراكيب) « وهذه العناصر جميعها كثيرا ما تتبدل وتتطور خلال الزمن وكثيرا ما تتغير بتغير الاقاليم والمهن والطبقات » (١٦) .

ويعد علم اللغة من العلوم الحديثة ، فعلى الرغم من ان العرب وغيرهم قد خطوا به خطوات واسعة ، نجده في هذا العصر قد بلغ قدرا رفيعا من النضج ، ونال حظا وافرا من التطور ، بفضل ما تهيأ للباحثين فيه من وسائل لم تكن معروفة من قبل ، وما استعانوا به من علوم لم تكن قد نشأت او نضجت على نحو ما هي عليه في عصرنا الحديث ، يزداد على ذلك ان علماء اللغة المحدثين

(١٣) نفسه .

(١٤) نفسه .

(١٥) نفسه .

(١٦) نفسه : ١٩ ، ٢٠ .

قد اتيح لهم ان يعرفوا عددا من اللغات القديمة والحديثة ، وان يستفيدوا من نتائج البحوث التي تناولت هذه اللغات ، في حين ان علماء اللغة القدماء لم تكن معرفتهم لتجاوز اللغة التي يبحثونها ، فان تعدت ذلك فالى لغة او لغتين في اكثر تقدير .

لقد بلغ عدد اللغات المعروفة في هذا العصر ، المستعملة والمتروكة ، حدا لم يعرف من قبل في اي عصر من العصور « ففي اواخر القرن الثامن عشر ألف (بالاس) احد علماء فرنسا كتاباً استشهد فيه بمئتين وثمانين لغة ، ما بين لغة ولهجة من لغات اوربا وآسيا وافريقيا وامريكا ولهجاتها ، وبلغ عدد اللغات التي نقلت اليها الانجيل جمعية الكتاب المقدس في بريطانيا المؤسسة عام ١٨٠٤ سبع مئة وسبعين لغة في عام ١٩٤٧ » (١٧) .

ولعلّ ابرز ما أعطى علم اللغة حدائته ، وخرج به عن النطاق الذي دارت فيه الدراسات اللغوية القديمة ، هو استقلاله عن غيره من العلوم ، فهو وان استعان بعدد منها ، علم مستقل بذاته ، ينطلق من معطيات مادته ، فلا يكبل « بقبليات وافكار خارجية تقهره » (١٨) ، او تفرض عليه مقولات مستنبطة من علوم غريبة عنه . صحيح ان (فلسفة) عامة تقوم عليها دراسة اللغة ونقصده بالفلسفة هنا مجموعة من المبادئ او الاصول او الاسس ، ولكن « من الخطأ ان ندرس اللغة مستعينين بفلسفة (خارجية) اي فلسفة مستمدة من غير موضوع الدراسة وهو (اللغة) ، اي من الخطأ ان نستعين بفلسفة مفروضة على الموضوع من خارج ، او فلسفة تحقق غرضاً آخر غير درس اللغة في ذاتها ومن اجل ذاتها ، او فلسفة قاصرة لا تصلح الا لبعض جوانب الدراسة . إن هذه (الفلسفة) ينبغي ان تقوم على اساس فهم ماهية اللغة : ما اللغة ؟ فيم تستعمل ؟ كيف تستعمل ؟ لم تستعمل ؟ متى تستعمل ؟ الى آخر

(١٧) فقه اللغة وخصائص العربية : ٣٨ .

(١٨) الجوانب الدلالية في نقد الشعر العربي في القرن الرابع الهجري (فايز الداية) ١٣٠ ، ط ١ ، ١٩٧٨ .

ما يكشف لنا عن حقيقة اللغة • ان ان هذه (الفلسفة) ينبغي ان تستقي عناصرها من طبيعة الادوار التي تقوم بها في الحياة الانسانية » (١٩) •

فاللغويون المحدثون رأوا أن « علمهم يتطلب الاستعانة بعدد من العلوم كالتاريخ والجغرافية وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاجناس البشري وعلم وظائف الاعضاء وعلم التشريح ، ولكنهم نبهوا على ان الاستعانة بهذه العلوم لا ينبغي ان يؤدي الى سيطرة مناهجها على (علم اللغة) بل لابد من درس اللغة داخل (علم اللغة) نفسه ، ووفقا للقوانين التي يصل اليها (اللغويون) من استقصاء (المادة اللغوية) » (٢٠) •

ومن عوامل نهضة علم اللغة في العصر الحديث « انفتاح عقلية الباحثين على مناهج البحث التي اهتدى اليها العلماء في اوربا وطبقوها ، كما كانت اعمال المستشرقين - الذين تنزهوا عن خدمة اهداف الاستعمار - من عوامل التأثير في توجيه اجيال العلماء الى معالجة قضايا اللغة ، وكنوز التراث بعقلية جديدة » (٢١) • فليس بوسع احد ان ينكر « ان التناول الحديث للغة قد خضع للمناهج الاوربية ، واتبع طريقتها في البحث ، كما سبق ان اتبع الاوربيون مناهج المسلمين ابان عصر النهضة ، حتى استطاعوا ان يققوا على اقدامهم ، وان يستقلوا بوجهات نظرهم في مختلف العلوم ، فكانت الحضارة الاوربية الحديثة نتاج الامتزاج التاريخي بين عطاء العقل الاسلامي والعقل الاوربي » (٢٢) •

ولابد من الاشارة الى ان دراسة اللغة وان اصبحت (علماً) تخالف قليلا او كثيرا دراسة العلوم الطبيعية مثلا ، فمادة اللغة « لا تخضع لما تخضع

(١٩) علم اللغة (السمران) : ٧٧ •

(٢٠) فقه اللغة في الكتب العربية (د. عبده الراجحي) : ٢٠ •

(٢١) في علم اللغة العام (د. عبدالصبور شاهين) : ١٢ ، ١٣ ، ط ٣ ، بيروت ١٩٨٠ •

(٢٢) نفسه : ٢١ •

له تلك العلوم من التجربة العملية — وان استعين في درس اصوات اللغة ببعض الالات والادوات — والقوانين اللغوية ليس لها ما للقوانين في العلوم الطبيعية مثلاً من حتمية وجبرية» (٢٣) . ولكن ذلك « لا يحرم الدراسة اللغوية ان توصف بانها علمية . فدراسة اللغة لها موضوعها الخاص المستقل الجدير بالبحث وهو (اللغة) . وهذه الدراسة تقوم على مناهج (علمية) سليمة ، وهي تتخذ من الوسائل ما ييسر لها الوفاء بعملها على ادق وجه . وما تصل اليه دراسة اللغة على هذا النحو من حقائق واصول عامة او (قوانين) انما هو مستمد من طبيعة الموضوع ، ومتلائم واياها . فاذا كانت طبيعة اللغة وحقيقتها تختلف عن طبيعة النبات وحقيقته مثلاً ، فلا عجب ان تكون (القوانين) التي تؤدي اليها دراسة النبات دراسة علمية مغايرة من وجوه (القوانين) التي تؤدي اليها دراسة اللغة ، وما ينبغي ان تحملنا هذه المغايرة على ان نذهب الى ان الدراسة اللغوية ليست (علماً) » (٢٤) .

وهذه الدراسة الجديدة للغة التي أُضِيفَتْ اليها صفة (العلم) لاتزال تتطور ، شأنها في ذلك شأن اي علم من العلوم ، وان الجهود الدائبة المستبصرة ستزيد قواعدها وأساليبها رسوخاً ، وتضيف الى وسائلها جديداً ، ولذا لا معدى للباحثين في هذا الميدان من الاتصال « اولا بأول بما يجد فيه ، وما بنا من شك في ان هذا الاتصال واجب في كل ميدان دراسي ، ولكن وجوبه في حالة الدراسة اللغوية بخاصة ، وبالنسبة اليها اصحاب العربية اجدر والزم » (٢٥) .

وعلم اللغة عام وخاص ، فالعام هو الذي يكون موضوعه النشاط اللغوي الانساني في الماضي والحاضر ، وتكون شواهد مستنبطة من جميع اللغات القديمة والحديثة ، والحية والميتة ، البدائية والمتحضرة ، وهدفه من

(٢٣) علم اللغة (السمران) : ١٢ .

(٢٤) نفسه : ١٤ .

(٢٥) علم اللغة (السمران) : ١٤ .

ذلك معرفة الخصائص التي تشترك فيها اللغات ، والعلاقات بينها او بين مجموعات منها ، وبيان وظائفها وعلاقاتها بما يسود مجتمعاتها من نظم في الدين والحكم والاقتصاد والاجتماع .

فاللغة التي يبحث فيها علم اللغة العام ليست العربية او الانجليزية او الالمانية وانما هي اللغة بوصفها نشاطا ذهنيا انسانيا ، يشترك في ممارسته النوع الانساني كله على اختلاف اجناسه واصقاعه ، فعلى الرغم من ان اللغة العربية تختلف عن الانجليزية وان هاتين تختلفان عن الالمانية او غيرها ، فان هناك اصولا وخصائص جوهرية تجمع ما بين هذه اللغات ، وتلتقي عليها صور الكلام الانساني على اختلاف بنيتها ، وتباين ما تسير عليه من اظمة وقوانين . ولعل ابرز ما يجمع بين اللغات هو ان كلا منها نظام اجتماعي معين ، تتكلمه جماعة معينة ، بعد ان تتلقاه من المجتمع ، وتحقق به وظائف معينة ، كما ان هذا النظام ينتقل من جيل الى آخر ، فتعرض له الوان من التطور ، يتأثر فيها خلال تنقله بسائر النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية وغير ذلك (٢٦) .

فعلم اللغة العام اذن يستقي حقائقه من النظر في اللغات على اختلافها ، وهو يحاول ان يصل الى فهم الحقائق والخصائص التي تلتقي عندها ، وتجتمع عليها اللغات الانسانية كلها . اما علم اللغة الخاص فهو الذي يقتصر على النظر في لغة معينة ، فيتلمس خصائصها وانظمتها وظواهرها ويبحث في تطورها ، وما عرض لها خلال تاريخها من تفرع الى لهجات او تأثر بغيرها من اللغات ، او تأثير فيها ، وما كانت عليه من بقاء في حدود رقعتها الجغرافية ، او تجاوز لها ، وانتشار في غيرها من الاقطار .

(٢٦) نفسه : ٤٩ .

مجالات علم اللغة :

يتناول علم اللغة المجالات الآتية :

(١) دراسة الاصوات التي تتألف منها اللغة ، وتشمل هذه الدراسة الجهاز الصوتي لدى الانسان الناطق باللغة المدروسة ، ومعرفة امكانيات النطق المختلفة الكامنة فيه ، وطريقة انتاج كل صوت ، وتحديد ما يشترك في هذا الانتاج من اعضاء . وتتناول هذه الدراسة وصف اماكن النطق ، او مخارج الاصوات ، وتقسيم الاصوات على مجموعات تتميز كل مجموعة بخصائص معينة . واذا كانت هذه الامور تتعلق بدراسة الصوت مفردا ، فان ثمة مرحلة اخرى من الدراسة تتناول الصوت مركبا مع غيره في مقطع او كلمة ، وبيان القوانين التي تتحكم في هذا التركيب ، فتجيز الوانا منه ، وترفض الوانا اخرى تأبأها اللغة المدروسة ، ويرفضها ذوق اهلها . ويطلق الباحثون على دراسة الصوت مفردا مصطلح **phonotics** اي (علم الصوت) ، وعلى دراسة الصوت متألفا مع غيره في مقطع او كلمة **phonology** او (علم التشكيل الصوتي) .

(٢) دراسة (البنية) او (الصيغة) : وتنصرف هذه الدراسة الى بيان القواعد المتصلة بالصيغ واشتقاق الكلمات وتصريفها ، ويقصد بالتصريف تغيير ابنية الالفاظ للدلالة على المعاني المختلفة . ويسمي الباحثون هذا النوع من الدراسة **morphology** او (الصرف) .

(٣) دراسة (التركيب) او (الجملة) : وتبحث هذه الدراسة الطريقة التي ترتب بها اجزاء الجملة ، واثار كل جزء في الآخر ، وعلاقة هذه الاجزاء بعضها ببعض ، وما يكون بينها من وسائل الربط . ويسمي الباحثون هذا المستوى من دراسة اللغة **syntax** او (الجملة) اي (النحو) .

(٤) دراسة معاني الالفاظ ودلالاتها ، ويعنى هذه الوجه من دراسة اللغة ، يبحث ما يكون بين المعاني والدلالات من علاقة ، وبيان الحقيقي والمجازي من المعاني ، ونشوء الترادف والاشتراك والتضاد ، وتسجيل ما يعرض من تطور في دلالات المفردات ، وتوضيح اتجاهات هذا التطور ، والعوامل التي تؤدي اليها . وتشمل دراسة التطور الدلالي ما يعتور الكلمات من رقي في الدلالة او هبوطها ، وما تؤول اليه من انسحاب من الاستعمال ، وحلول غيرها محلها ، وما يلحقها من بلى وانقراض .

(٥) البحث في نشأة اللغة الانسانية : فعلى الرغم من ان هذا الوجه من الدراسة مما تجنبه علم اللغة الحديث ، لتعذر الوصول فيه الى اراء يقينية ، قد ظهرت نظريات مختلفة تحاول تفسير الصورة الاولى للكلام الانساني ، والسبل التي سلكها هذا الكلام في تطوره على مر العصور ، حتى وصل الينا في صورته المختلفة الراهنة .

والذين يدرسون اللغات التي تنطق والتي تكتب ، ويتبعون تاريخها مستعينين باقدم الوثائق التي كشف عنها الباحثون ، مهما اوغلوا في هذا التاريخ ، فانهم لا يصلون إلا الى لغات قد تطورت ، وتركت وراءها تاريخا ضخما ، لا نعرف عنه شيئا . واما اولئك العلماء الذين يحاولون اعادة ما يسمى باللغات الاممات للاسر اللغوية ، فلن يصلوا إلا لبناء رطانات بدائية ، اذا ما قيست الى اللغات الموجودة اليوم ، ولا يعني هذا إلا ان الجري في هذه السبل هو من قبيل الجري وراء سراب خادع .

(٦) علاقة اللغة بالمجتمع الانساني والنفس البشرية : ويكشف هذا الوجه من دراسة اللغة عن ان علم اللغة يتنازعه علمان آخران ، هما علم الاجتماع وعلم النفس ، فحقائق العلم الاول يفسر بها عالم اللغة والعلاقة بين اللغة والانسان في حياته الاجتماعية ، ويبين اثر المجتمع وحضارته وتاريخه ونظمه وتركيبه وبيئته في الظواهر اللغوية . وبحقائق العلم الثاني يفسر عالم اللغة

العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية بمختلف أنواعها ، من تفكير
وخيال وتذكر واسترجاع وعاطفة وغير ذلك •

(٧) البحث في حياة اللغة وتطورها : ويعد هذا المنحى في دراسة اللغة آخر
مجالات علم اللغة ، وهو يتناول أطوار اللغة والمراحل التي مرت بها ، فيسجل
ما عرض لها خلال هذه المراحل من تبدل في اصواتها وصيغها وتراكيبها
ودلالاتها ، ويشير كذلك الى تفرعها الى لهجات ، وما كان بين هذه اللهجات من
تبادل تأثير وتأثير • ومما يعنى به هذا الضرب من دراسة اللغة بيان ما خاضته
اللغة من الوان الصراع بينها وبين غيرها من اللغات في موطنها او خارجها ،
وما ترك ذلك من آثار فيها وفي اللغات التي اشتبكت معها ، وما احرزته في
صراعها من انتصار على اللغات الاخرى ، واكتساحها والحلول محلها في
موطنها ، او ما لحقها من انهزام امامها •

منهج البحث في اللغة :

يقوم البحث اللغوي في هذا العصر على الاسس الاتية :

(١) الاستقراء :

ان اللغات المعروفة في هذا العصر ، سواء منها القديمة والحديثة ، قد
بلغت عددا كبيرا يتراوح بين اربعة الاف وخمسة الاف لغة ، وهو امر اتاح
للباحث اللغوي مادة غنية جدا للبحث والدرس « فاذا ما اراد بحث ناحية من
نواحي اللغة استطاع ان يستمد الامثلة والشواهد الكثيرة من عدد كبير من
اللغات ، وبذلك يكون بحثه ادق واضبط ، وتكون استنتاجاته اصح
واحكم » (٢٧) •

(٢٧) فقه اللغة وخصائص العربية : ٣٠ •

فالباحث في تطور معاني الالفاظ مثلا يستطيع ان يرجع الى بحوث المتخصصين في هذا الجانب في عدد من اللغات « فيستقي من امثلتهم ما يعينه على استخراج القوانين والضوابط التي تنطبق على هذه اللغات جميعا ، وكذلك الشأن في بحث الاشتقاق او الاصوات اللغوية او التعبير عن الازمنة في الافعال مثلا » (٢٨) .

وقد اشرنا الى ان وفرة البحوث في اللغات في هذا العصر قد كانت احد العوامل التي نهضت بالدرس اللغوي المعاصر ، اذ « لا مجال للمقارنة بين هذه المادة التي لا تنفذ من دراسات اللغات التي تجاوزت المئات في عددها ، واختلفت في مراحل تطورها والمادة التي كانت عدة الباحث في اللغة قديما اذ كان العالم لا يعرف إلا لغته ، وقد يزيد على ذلك بمعرفة لغة او لغتين ويندر ان يتجاوز ذلك الى بضع لغات » (٢٩) .

(٢) المقارنة :

وبعد استقراء الامثلة والشواهد من لغات مختلفة يوازن الباحث بين هذه اللغات « لمعرفة ما بينها من تشابه او اختلاف وما بين خصائصها من اشتراك او تباين ، والضوابط والقوانين التي تنتظمها جميعا او تنتظم بعضها دون بعض » (٣٠) .

ولا شك في ان ذلك يمكن الباحث من التحقيق في صحة ما يستنبط من قوانين عامة في اللغة المدروسة ، فكثيرا ما تنكشف للباحث حقائق في لغة فيعيه ذلك على تفسير ما غمض او استتر في لغة اخرى (٣١) .

(٢٩) نفسه .
(٣١) نفسه : ٣٠ .

(٢٨) نفسه .
(٣٠) نفسه : ٣١ .

(٣) مراعاة التطور في اللغة :

من الثابت ان عناصر اللغة من اصوات وصيغ وتراكيب ودلالات لا تظل ثابتة على مر الزمن ، بل يعترىها شيء قليل او كثير من التحول والتبدل ، ولذلك ينبغي ألا يكون البحث في اللغة على اساس النظر الى وضعها في عصر من العصور ، بل على اساس مراعاة المراحل التي مرت بها خلال العصور ، يكون ذلك عند النظر في كل عنصر من عناصرها كالاصوات والصيغ والتراكيب والمعاني .

فقواعد النحو « في كل لغة انما استتجت وسجلت في عصر من عصور اللغة ، فلو ابتعدنا عن ذلك العصر و نظرنا الى اللغة فيما قبله من العصور او ما بعده لوجدنا ان تلك القواعد قد تختلف قليلا او كثيرا . وكذلك مفردات اللغة التي تدون معانيها في زمن من الازمان لا تحافظ دوما على تلك المعاني ، ولم تكن كذلك ملازمة لها منذ الازل » (٣٢) . وقل مثل ذلك عن الصيغ والاصوات ، فهي لاتزال تتعرض للتغير والتبدل كلما تقلبت في الزمن ، او تعاقبت عليها الدهور . ولا بد من التنبيه هنا على ان قواعد العربية قد اتسمت بالثبات على وجه العموم في مختلف مراحل حياتها .

واللغة في تطورها هذا تشبه الظواهر الاجتماعية الاخرى التي لا تثبت على حال واحدة ، وافما تتأثر بعوامل كثيرة تؤدي الى تغيرها . وقد تنبه علماء اللغة المعاصرون لهذه الحقيقة ، وعمدوا الى مراعاتها في بحوثهم ، وقد كان صنيعهم هذا احد الوجوه التي تميز بها البحث اللغوي المعاصر من البحث اللغوي القديم .

واذ اخذ اللغويون المعاصرون بفكرة التطور ، قد لاحظوا امرين ، هما :

(٣٢) فقه اللغة وخصائص العربية : ٣١ .

(أ) التفريق بين الخطأ والتطور :

لقد اشرنا فيما تقدم الى ان كل لغة يعروها مع الزمن شيء من التحول ، وذلك لصلتها الوثيقة باحوال متكلميهها ، وهذه حقيقة تفرض على الباحث «التفريق بين ما هو خطأ وانحراف وما هو توليد وتجديد وتطور ، فكلاهما حدث جديد في اللغة ، وتبديل في بعض ظواهرها ، ولكن الخطأ تبديل يخالف خصائص اللغة ، وسنن نموها ، وناموس حياتها ، وقواعد فطرتها ، ويخل بنظامها •• واما التجديد والتطور فهو تبديل وإحداث يجري وفقا لسننها ، وينساق مع فطرتها ، وينقاد لقواعدها ، ويوافق روحها وخصائصها » (٣٣) • كما ان على الباحث ان يدرك ان « اللغة كائن مرموق يستحيل وضعه في وعاء واحد ، او الحكم عليه ليسير في خط محدد » (٣٤) •

واذا وضع الباحث اللغوي هذه الحقائق امام عينيه ، لم يتردد في قبول بعض الظواهر التي تعرض للغة ، او تجدد فيها اذا كانت مما يوافق روحها ، وينساق مع فطرتها ، وسنن التعبير بها (٣٥) •

ولكن بعض الباحثين قديما وحديثا لم يسلموا بهذه الحقائق ، فراحوا يمنعون اي دم جديد ينساب في عروق اللغة ، ويصمون كل حدث جديد فيها بأنه خطأ • وهم انما يفعلون ذلك غيرة على اللغة ، ومحافظة عليها • وقد فاتهم ان المحافظة عليها تعني « تحريرها من الجمود والعقم من جهة ، ومن الفوضى والخروج على قواعد اللغة » (٣٦) من جهة اخرى •

(٣٣) خصائص العربية (محمد المبارك) : ٦٧ ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠ •

(٣٤) اللغة والحضارة (د. مصطفى مندور) : ١٣٨ ، الاسكندرية ١٩٧٤ •

(٣٥) ينظر كتابنا (النقد اللغوي عند العرب) : ٣٩٥ •

(٣٦) خصائص العربية : ٦٧ •

لقد وقف بعض الباحثين العرب في القديم والحديث عند الحدود التي رسمها للغة ، عرب الجاهلية وعرب القرنين الاول والثاني ، فاعترفوا بكل الظواهر التي عرضت للعربية في تلك الحقبة ، ورفضوا ما حدث من هذه الظواهر بعدها ، ونظروا اليها على انها لحن او خطأ تجب مقاومته .

فابن السكيت يقول مثلاً : « وتقول : هي اللبوة فهذه اللغة الفصيحة ، ولبوة لغة » (٣٧) . فيعترف بكلمة (لبوة) غير مهموزة لانها سمعت عن بعض العرب الذين يحتج بأقوالهم ، ثم يقول بعد ذلك : « وهو عامر بن لؤي والعامه تقول : لوي بلا همز . وتقول : طيىء تفعل كذا ، والعامه تقول : طيىء تفعل كذا » (٣٨) . فلا يعترف بكلمتي (لويى) و (طيى) لانهما لم تسمعا من العرب الموثوق بكلامهم ، مع ان ترك الهمز فيهما لا يختلف عن ترك الهمز في (لبوة) (٣٩) .

ومثل ذلك قوله : « وقد فقأت عينه ولا تقل : فقيت » (٤٠) ، مع انه كان قد اعترف بان العرب قالت : « وقد استخذأت له وخذأت وخذيت لغة » (٤١) . فتطور (فقأت) الى (فقيت) مماثل لتطور (خذأت) الى (خذيت) ، ولكن التطور الذي عرض للكلمات في عصور الاحتجاج مسموح به ، واما التطور المماثل الذي حدث بعد تلك العصور فمحكوم عليه بالخطأ .

ورفض بعض الباحثين العرب التطور الدلالي الذي لحق بعض المفردات ، كما رفضوا التطور الذي لحق اصواتها واوزانها ، ولكنهم اعترفوا بهذا التطور اذا كان قد حدث في عصور الاحتجاج . لقد قبل اللغويون العرب تطور دلالات

(٣٧) اصلاح المنطق (ابن السكيت) : ١٤٦ تح . احمد محمد شاكر ورفيقه ط ٢ ، ١٩٥٦ دار المعارف بمصر .

(٣٨) نفسه .

(٣٩) لحن العامه والتطور اللفوي (رمضان عبدالنواب) : ١٢٩ ، ط ١ ، ١٩٦٧ .

(٤٠) اصلاح المنطق : ١٤٩ .

(٤١) نفسه .

طائفة من الالفاظ الاسلامية كالصلاة والصيام والزكاة والحج والمنافق والكافر والفاسق وغير ذلك ، لانه حدث في عصور الاحتجاج ، ولكنهم رفضوا التطور الدلالي الذي تمّ بعد هذه العصور •

فالآمديّ خطأً أبا تمام في استعمال كلمة (أَيِّم) بمعنى (الثيّب) وكانت تعني من لا زوج لها بكرًا كانت أو ثيبًا ، قال أبو تمام :

وضيعة لك ثيّب اهديتها وهي الكعاب لعائذ بك مُصرِّم
حلت محل البكر من مُعطى وقد زفت من المعطي زفاف الأيِّم (٤٢)

فقال الآمدي : « الأيِّم التي لا زوج لها بكرًا كانت أو ثيبًا » • قال الله عز وجل : (وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وامأئكم) (٤٣) ، أفتراه أراد أنكحوا الثيبات من النساء دون الإبكار ؟ وإنما أراد تبارك اسمه أنكحوا النساء اللواتي لا أزواج لهن • فالثيب والبكر والصغيرة والكبيرة ممن لا زوج لها تدخل في الآية • قال الشماخ :

يقرّ بعيني أن أحدثّ أنها وإن لم أنلها أيِّم لم تزوج
وهذا هو المعنى المعروف في كلامهم » (٤٤) •

وقد علق احسان عباس على قول الآمدي قائلاً : « ان الالفاظ تنزلق انزلاقاً يسيراً عما وضعت له بمرور الزمن ، وهذا مبدأ لا يحترمه أمثال الآمدي القائلون بالتدقيق » (٤٥) •

(٤٢) يريد ان هذه الصنيعة ثيب عندك لانك قد اصطنعت مثلها مرارا ، وهي الكعاب - يريد البكر - عند هذا العائذ بك ، لانها اول ما اصطنعت اليه ، ولانها اكبر صنيعة عنده • والمصرم : القليل المال •

(٤٣) النور : ٣٢ •

(٤٤) الموازنة (الآمدي) تح • صقر : ١٥٩/١ •

(٤٥) تاريخ النقد الادبي عند العرب (د. احسان عباس) : ١٧٩ •

وسلك باحثون معاصرون سبيل الآمدي وامثاله ، فرفضوا عددا من المفردات وقضوا عليها بالخطأ لتطور معانيها ، وتغير مجال استعمالها • والامثلة على ذلك كثيرة نكتفي ببعضها •

ذهب بعض اللغويين المعاصرين الى ان (احتج) بمعنى (انكر) او (سخط) خطأ ، وان قولهم (احتج فلان على سوء معاملته) مجانب للفصيح ، والصواب ان يقال : (انكر فلان سوء معاملته) ذلك لان (احتج) في اصل وضعها اللغوي بمعنى (أدلى بالحجة) لتأييد دعوى ، او اثبات رأي^(٤٦) •

وانكر لغوي آخر ان يقال : (ابتكرت الشيء) بمعنى (اخترعته) او (ابتدعته) ذلك لان القدامى استعملوا (ابتكر) لغير هذا المعنى ، فقد كانوا يقولون : (ابتكر الجارية) اي اقتضاها ، و (ابتكر الخطبة) اي سمع اولها • وكانوا يقولون : ابتكر بمعنى بكر^(٤٧) •

(ب) ان تطور اللغة لا يكون دائما نحو الاحسن ، فقد يكون كذلك ، وقد يكون نحو الاسوأ • والمفروض في الباحث ان يبحث مظهر التطور ، ويستقصي اسبابه ونتائجه ، وللباحث بعد ان يدرس المظهر التطوري في موضوعية وتجرد ، ان يحكم له او عليه ، بمقتضى نزعاته ومعتقداته وآرائه^(٤٨) • فاللغات العامة التي تفرعت عن العربية هو مظهر من مظاهر تطورها ، وانتقالها من حال الى آخر ، وهو « امر واقع يمكن ان يدرس ، ويبحث عن اسبابه وعوامله ، ولكن ينظر اليه العربي » (القومي) بنظرة تختلف عن نظرة اصحاب النزعات الاقليمية من جهة الحكم عليه • وان دخول الكلمات الاعجمية في اللغة العربية في هذا العصر حادثة واقعة ، يمكن ان تدرس على انها كذلك ،

(٤٦) لغويات (محمد علي النجار) : ١٢ •

(٤٧) لغويات (محمد علي النجار) : ٦٢ •

(٤٨) فقه اللغة وحصائص العربية : ٣٤ ، ٣٥ •

فتستقصى جزئياتها وتبحث اسبابها وتحصى مبادئ استعمالها وتصنف مفرداتها ، ... ولكن البحث في كون ذلك خيرا أو شرا يختلف فيه نظرات الباحثين اختلافا يرجع الى عوامل غير البحث اللغوي ، هي عوامل فكرية واعتقادية » (٤٩) .

(٤) استنتاج القوانين العامة :

ان الدرس اللغوي سواء او صفيا كان ام تاريخيا ، لا بد له من ان ينتهي بالقوانين . وقد ادرك اللغويون العرب ذلك ، فما هذه القواعد النحوية والصرفية التي استنبطوها من المادة اللغوية التي جدوا في جمعها واستقراءها ، ثم مراقبتها وفحصها ، إلا دليل على انهم لاحظوا ان العربية تحكمها ضوابط عامة ، وتنظم استعمالها قوانين مطردة ، كرفع الفاعل ونصب المفعول وحالات الاعراب المختلفة وتصريف الافعال وغير ذلك .

وكما ينتهي البحث الوصفي " للغة بالقواعد والقوانين التي يكتشفها الدارس ، والتي يرى انها تحكم الاستعمال اللغوي على الوجه الذي يظهر به في عصر معين ، وفي بيئة مكانية محددة ، كذلك ينتهي البحث التاريخي للغة بالقوانين التي تسير اللغة بحسبها ، وتتطور بمقتضاها . فاللغة كآية ظاهرة اجتماعية لا يجري تبديلها اعتباطا ، ولا يكون تطورها فوضى ، بل لا بد ان يجري على وفق سنن لا تكاد تتخلف . ولكي يوضح ان من اسس البحث التاريخي للغة ان ينتهي بالقوانين التي يعتقد انها تحكم الظاهرة التي تسترعي نظر الباحث ، وتلفت انتباهه ، نضرب بعض الامثلة :

(٤٩) نفسه : ٣٥ .

فشمة الفاظ كثيرة تبدلت معانيها عبر العصور ، وقد لاحظها الباحثون ووقفوا عندها ، ومنها الالفاظ (عقل ، وعى ، ادرك ، ورد) التي كانت تعني في اصل وضعها (ربط ، استوعب ، بلغ ، قصد الماء) ثم انتقلت في عصر لاحق من هذه المعاني الحسية الى معانيها المجردة المعروفة .

والالفاظ (انتاج ، استيراد ، عاطفة ، منطق) انتقلت من معانيها السابقة التي هي (ما تولد من الحيوان ، طلب الماء ، اسم فاعل من عطف بمعنى لوى او ثنى ، النطق او الكلام) الى معانيها المعروفة في هذا العصر^(٥٠) .

ان هذا الذي لاحظه الباحثون على تغير معاني الالفاظ المذكورة آنفا وامثالها ، قد قادهم الى وضع قانون عام ، يعد احد قوانين التطور الدلالي وهو ان الالفاظ تنتقل من المعاني الحسية الى المعاني المجردة^(٥١) .

فوائد علم اللغة :

لقد اسفرت دراسة اللغة دراسة علمية ، عن جملة فوائد ، لولا هذا الضرب من الدراسة لظلت مجهولة ، لا تستطيع ان تحققها دراسة جزئيات اللغة من نحو وصرف ، ولعل ابرز هذه الفوائد ما يأتي :

(١) ان علم اللغة يتيح لنا ان نعرف اللغة معرفة عميقة ، ويمكننا من تذوقها ، والنفاد الى اسرارها وخصائصها ، والوقوف على القوانين التي تحكم استعمالها في حالي سكونها وحركتها . ولعلك تستطيع القول ان معرفة اللغة معرفة شاملة « لا تكون بمعرفة جزئياتها ومفرداتها ولا قواعدها المحدودة ، وانما تكون بالغوص الى اعماقها ومعرفة قوانينها وسنن تطورها »^(٥٢) . وقد اصاب من رأى ان علم اللغة يكشف عن خصائصها وينير تطورها ، وبذلك تحل كثير من مشكلاتها^(٥٣) .

(٥٠) فقه اللغة وجصاص العربية : ٣٦ ، ٣٧ .

(٥١) نفسه : ٣٧ . (٥٢) نفسه : ٤٠ .

(٢) ان علم اللغة ينير لنا جوانب من عقلية الامة التي تتكلمها ، ويقفنا على جوانب من تاريخها ومدنيتها^(٥٤) . فالذي يفهم من خاصية الاشتقاق انها خاصية تتميز بها اللغة العربية ، وتدل على حيوية هذه اللغة ، وقدرتها على النمو ، ومواكبة التطور ، وتعين على رد كل كلمة الى اصلها ، او الجذر الذي اخذت منه . ذلك ما نفهمه من خاصية الاشتقاق ، وتلك هي الفوائد التي تتبادر لنا منه . ولكن احد علماء اللغة الذين لا يكتفون بملاحظة الظواهر اللغوية ملاحظة سطحية عابرة ، قد رأى ان هذه الخاصية تمثل جانبا من اخلاق العرب ، وتعكس تقليدا اجتماعيا مهما من تقاليدهم ، فكما ان العرب يحرصون على انسابهم ، ويجهدون في ألا تضيع ، كذلك حرصوا على انساب الالفاظ ، واهتدوا الى ما يحفظها خلال ادائها معانيها المختلفة . فللكلمة العربية نسب كنسب العربي ، مهما تغير شكلها بتغير معناها ، تظل محتفظة بأصلها او بجذرها ، وهو الاحرف الاصلية الثلاثة التي تظل تدور معها ، مهما تغير بناؤها بسبب تغير وظيفتها ، « خلافا للغات الاخرى التي قد يطرأ على الالفاظ من التغير في اصواتها وفي صيغها وتأليفها ما يضيع معه اصلها »^(٥٥) .

والرجوع الى المعاني الاصلية لطائفة من المفردات ، يكشف لنا ايضا عن عقلية الامة ، وينير لنا جوانب من طرائقها في الحياة ، ويقفنا على ضروب من العادات والتقاليد التي تجري عليها في حياتها الاجتماعية . كما ان المعاني الاصلية لطائفة اخرى تكشف لنا عن تأثر المتكلمين باللغة ببيئتهم ، وتحمل في اثنائها ما يقاسون في تلك البيئة من احوال .

فالكلمات (العقل) و (الصداقة) و (الجار) تمثل لنا منحى العرب في فهم مدلولات هذه الالفاظ ، فالعرب ينظرون الى (العقل) على انه يربط الانسان ، ويمنعه من الشطط ، في حين ان اما اخرى تأخذ مدلول العقل من

(٥٣) نفسه . (٥٤) نفسه .

(٥٥) فقه اللغة وخصائص العربية : ٤١ .

الذكاء • والعرب يفهمون (الصداقة) قائمة على الصدق ، اما غيرهم فقد اشتقوا مفهوم هذه اللفظة من المحبة • والعرب يرون الجار مسؤولاً عن حماية من ينزل بقربه ، والدفاع عنه ، لانهم اخذوا الكلمة من (أجاره) اي حماه ، وذب عنه ، في حين ان غيرهم اقاموا مفهوم هذه الكلمة على تقارب المساكن •

والكلمة (صفقة) البيع » تصور لنا وضعاً ماضياً كان يحدث بين المتبايعين ، ومعناها ضرب اليد على اليد»^(٥٦) وكلمة (عقد) تنبئنا بان المتعاقدين على امر كانا يعقدان طرفي ثوبيهما^(٥٧) • وكلمة (السياق) بمعنى (المهر) تشير الى ان مهر المرأة في حقبة من تاريخ العرب كان عبارة عن عدد من الماشية كالغنم والجمال ونحوهما •

وكما تكشف المفردات التي وقفنا عندها آتفا عن جوانب من عقلية العرب وتقاليدهم كذلك تكشف طائفة اخرى عن نوع البيئة التي عاشوا فيها . فاقوال العرب : (سقى الله عهده) و (شفى الله غليله) و (اقر الله عينه) تمثل لنا انهم كانوا يعيشون في بيئة صحراوية ، يعانون فيها العطش ، ويكابدون حرارة الشمس ، فهم لذلك يتطلعون الى الماء ، ويحنّون الى البرد ، ومن هنا كانوا يدعون لمن يحبون بالريّ ويرد الكبد او العين • فالماء والبرد كانا نعمتين عند العرب ، لا تعدلهما النعم الاخرى • وثمة الفاظ اخرى تنير لنا علاقات العرب بغيرهم من الامم ، وتدلنا على ما كان بينهم وبينها من احتكاك او تبادل المنافع والمصالح • وتتمثل هذه الالفاظ فيما يدعى (المعرب) و (الدخيل) •

ومن هنا كان علم اللغة ضوءاً كاشفاً يهدينا الى جوانب كثيرة من عقلية العرب وعاداتهم وتقاليدهم وعلاقاتهم بغيرهم من الامم والشعوب •

(٥٦) نفسه : ١٧ • (٥٧) نفسه •

(٣) ان علم اللغة بما يقدم لنا من خصائص اللغة وقوانينها وسنن تطورها ،
« يمكننا من اصلاحها ومراقبة تطورها والسير به في اتجاه صحيح ، يناسب
خصائصها الاصلية ، ولا يعرضها للذوبان والانحلال » (٥٨) .

تسمية علم اللغة :

تتنازع هذا العلم عدة تسميات هي (فقه اللغة) و (علم اللغة)
و (اللسانيات) و (الالسانية) و (الفلسفة اللغوية) . وقد اختلف الدارسون
في اختيار الاسم الذي يطلقونه على هذا الضرب من الدراسة . فعلى حين
ساوى محمد المبارك بين مصطلحي (علم اللغة) و (فقه اللغة) ورأى ان كليهما
« يفيد المقصود ، وينطبق على المفهوم العلمي لمباحث اللغة » (٥٩) ، رأى
صبحي الصالح ان « من العسير تحديد الفروق الدقيقة بين علم اللغة وفقه
اللغة لان جل مباحثهما متداخل لدى طائفة من العلماء في الشرق والغرب قديما
وحديثا ، وقد سمح هذا التداخل احيانا باطلاق كل من التسميتين على
الآخرى » (٦٠) . وقال : « واذا التمسنا التفرقة بين هذين الضربين من ضروب
الدراسة اللغوية من خلال التسميتين المختلفتين اللتين تطلقان عليهما ، وجدناهما
تافهة لا وزن لها » (٦١) . ولكن هذا الدارس على الرغم من ذلك مال الى مصطلح
(فقه اللغة) ، لانه الاسم الذي اطلقه بعض العرب على مباحث هذا العلم
وموضوعاته ، فقال : « وانه ليحلو لنا ان نقترح على الباحثين المعاصرين الا
يستبدلوا بهذه التسمية القديمة شيئا وان يعمموها على جميع المباحث اللغوية
لان كل علم لشيء فهو فقه ، فما اجدر هذه الدراسات جميعا ان تسمى
فقهها » (٦٢) .

(٥٨) فقه اللغة وخصائص العربية : ٤١ . (٥٩) نفسه : ٣٩ .

(٦٠) دراسات في فقه اللغة : ١٩ ، ط ٦ ، ١٩٧٦ .

(٦١) دراسات في فقه اللغة : ١٩ ، ٢٠ . (٦٢) نفسه : ٢٠ .

أما عبده الراجحي فقد فرق بين المصطلحين على نحو ما فرق بينهما
الأوريون • فمصطلح (فقه اللغة) الذي يقابل مصطلح **philology**

عند الغربيين يعني « دراسة حضارة معينة لامة ما » (٦٣) ، في حين ان (علم اللغة) يعني دراسة اللغة بوصفها « موضوعا طبيعيا قائما بذاته وينبغي ان تكون له دراسة » (٦٤) • وبمعنى آخر ان (فقه اللغة) يدرس اللغة بوصفها وسيلة لفهم تراث امة معينة ، او يعني دراسة اللغة « بوصفها جزءا من ثقافة امة » (٦٥) • اما (علم اللغة) فيدرسها بوصفها غاية في ذاتها (٦٦) • ونتيجة لهذا الفرق القائم بين مدلولي المصطلحين ذهب عبده الراجحي الى ان مصطلح (فقه اللغة) لا يدل على موضوع هذا العلم ومنهجه ، فضلا عما يحيط به من غموض ، وما نشب حوله من خلاف ، وان مصطلح (علم اللغة) هو المصطلح الدقيق • بل ان الراجحي رأى ان الموضوعات التي عالجها ابن فارس في كتابه (الصاحبي في فقه اللغة) والتي عالجها الثعالبي في كتابه (فقه اللغة) لا يصح ادراجها تحت (فقه اللغة) كما يفهمه اصحابه من الغربيين ، وان هذه الموضوعات داخلية في اطار (علم اللغة) ، ذلك لان الأوريين ترجموا **Philology** بمصطلح (فقه اللغة) (٦٧) •

وذهب عبد الصبور شاهين الى هذا الرأي نفسه (٦٨) معززا اياه بتعريف ماريو باي لفقه اللغة اذ قال : « ان موضوع فقه اللغة **Philology** لا يختص بدراسة اللغات فقط ولكن يجمع الى ذلك دراسة تشمل الثقافة والتاريخ والتقاليد والنتاج الادبي للغات موضوع الدراسة ، اما علم اللغة **Linguistics** فيركز على اللغة نفسها ولكن مع اشارات عابرة — احيانا —

(٦٣) فقه اللغة في الكتب العربية : ٢٦ • (٦٤) نفسه ١٨ •

(٦٥) نفسه • (٦٦) نفسه ٢٧ •

(٦٧) نفسه ٥٦ • (٦٨) في علم اللغة العام : ٨ •

الى قيم ثقافية وتاريخية ويولي علم اللغة معظم اهتمامه للغة المتكلمة وان كان يوجه للغة المكتوبة شيئا من الاهتمام» (٦٩) .

ومن اجل هذا الفرق الكبير بين مفهوم المصطلحين عاب عبد الصبور شاهين على صبحي الصالح دعوته الى تعميم مصطلح (فقه اللغة) بحيث يصدق على كل فروع الدراسات اللغوية ، استنادا الى ان (كل علم لشيء فهو فقه) على ما ذهب اليه الاستاذ الدكتور صبحي الصالح فليس من الممكن التغاضي عن اشعاع الكلمة حين تستقر في اصطلاح اهل الفن ، والعلم في عصرنا تراث انساني بعد ان حطم الحواجز القومية والاقليمية ، فصار ما يتردد في نصف الكرة الغربي موجودا في نصفها الشرقي عبر المسافات . وقديما قيل : (لا مُشاحّة في الاصطلاح) اي ان من واجب الباحث ان يحدد مدلول ما يستخدم من المصطلحات عند بداية بحثه ، وليس لاحد ان ينازعه الحق العلمي» (٧٠) .

وممن تبني هذا الرأي ايضا محمد حسن عبدالعزيز الذي قرر « ان يستخدم عبارة (علم اللغة) لتشير الى الدراسة التي تستخدم المنهج العلمي في دراسة اللغة العربية قديما وحديثا » (٧١) .

واذا كان لنا من تعليق على هذا الخلاف بشأن مصطلحي (فقه اللغة) و (علم اللغة) فاني ارى ان ابن فارس والثعالبي كانا مصيبين حين تخيرا للمباحث التي عرضا لها في كتابيهما المنوه بهما آتفا عنوان (فقه اللغة) . فابن فارس ضمّن كتابه « مباحث عامة في حياة العربية نشأتها وتطورها ومن ذلك حديثه عن نشأة اللغة العربية والخط العربي وانها توقيف لا اصطلاح ومواضعة وعن افضلية اللغة العربية واتساعها وعن اختلاف لهجاتها : اللهجة الفصحى واللهجات المذمومة وغير ذلك من الموضوعات . ومباحث خاصة في مجال

(٦٩) اسس علم اللغة : ٣٥ . (٧٠) في علم اللغة العام : ٨ .

(٧١) مدخل الى علم اللغة : ١٩٥ .

الاصوات والصرف والنحو والبلاغة والاسلوب وهي مباحث غير مقصودة لذاتها ، فليس الكتاب كتابا في النحو او في البلاغة او في غيرهما من العلوم التي تنتمي اليها هذه المباحث اصلا ، وانما هي ملاحظات عن هذه المجالات تهدف الى بيان كيف ينتظم الكلام العربي ، وكيف يتفنن اصحابه في التعبير به » (٧٢) .

ولا شك في ان هذه المباحث مما يقع في نطاق (فقه اللغة) اذا نظرنا اليه على انه مساوٍ لمصطلح (علم اللغة) .

واما الثعالبي فقد قسم كتابه (فقه اللغة وسر العربية) على قسمين « سمي القسم الاول (فقه اللغة) ضمنه ثلاثين بابا يشمل كل باب منها على عدة فصول ، وهذا القسم عبارة عن معجم خاص جمع فيه الالفاظ المتصلة بموضوع واحد ، ثم رتبها بحسب الموضوعات ، بدأها بباب الكليات ، وهو ما اطلق عليه ائمة اللغة لفظ (كل) ومن ذلك : كل ما علاك وأظلك فهو سماء ، كل ارض مستوية فهي صعيد . . . الخ اما القسم الثاني الذي سماه (سر العربية) فيضم مباحث شبيهة بالمباحث التي ضمها كتاب ابن فارس ، بل ان بينهما ابوابا مشتركة ، نقلها الثعالبي نقلا عن ابن فارس كالنحت والاتباع وغيرهما » (٧٣) .

وواضح ان مباحث القسم الاول تتعلق بمفردات اللغة ، وهي مما يتناوله (فقه اللغة) ، واما مباحث القسم الثاني فلا تبتعد عن دائرة هذا العلم ايضا . فاعطاء الكتابين عنوانه (فقه اللغة) امرا لا مطعن عليه ، اذا نظرنا الى ان المصطلحين متساويان في المفهوم ، وهما حقا جديران بان يكونا متساويين في الدلالة ، لان كلمة (فقه) تعني كلمة (علم) كما قال صبحي الصالح .

(٧٢) نفسه : ١٨٢ .

(٧٣) مدخل الى علم اللغة (محمد حسن عبدالعزيز) : ١٨٣ .

غير ان الذي يدعوننا الى التخلي عن تسمية (فقه اللغة) هو ان هذا التعبير حين ظهر في العالم العربي فهمه الاوربيون الذين استقدموا لتدريس هذه المادة في الجامعة المصرية على انه ترجمة لمصطلح *Philology* قال زكي مبارك : « ذكر السنيور جويدي وكان استاذ فقه اللغة في كلية الاداب في محاضراته الاولى ٧ أكتوبر ١٩٢٦ ان كلمة *Philology* تصعب ترجمتها بالعربية وان لها في اللغات الغربية معنى خاصا لا يتفق عليه اصحاب العلم والادب ، فمنهم من يرى هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو ونقد نصوص الآثار الادبية ، ومنهم من يذهب الى انه ليس درس اللغة فقط ، ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوهها ، واذا صح هذا فمن الممكن ان يدخل في دائرة الفيلولوجي علم اللغة وفنونها المختلفة كتاريخ اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وعلم الادب بعنايه الاوسع ، فيدخل تاريخ الادب وتاريخ العلوم من حيث تصنيف درس الكتب المقدسة وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام ، ولا سبيل الى معرفة كنه هذه الحياة العقلية الا بدرس احوال المركز الذي نشأت فيه الآثار الادبية » (٧٤) .

فنظرة الغربيين لفقه اللغة قد تكون ضيقة فتشمل درس قواعد الصرف والنحو ونقد النصوص الادبية ، او متسعة فتشمل درس الحياة العقلية لامة من الامم ، وما يقتضي هذا الدرس من بحث النشاط اللغوي بمختلف جوانبه . وهذا ما اوردناه عند الحديث عن مفهوم (فقه اللغة) عند الغربيين . ومعنى ذلك ان نظرة الغربيين في هذا العصر لمصطلح (فقه اللغة) تبتعد عن مدلول (علم اللغة) ، فهي تضيق حيناً فتتق عند حد درس قواعد الصرف والنحو ونقد النصوص الادبية ، وتتسع حيناً آخر فتشمل الحياة العقلية لامة من الامم ، وما يقتضي ذلك من دراسة النشاط اللغوي بمختلف جوانبه . وما دام الامر

(٧٤) النشر الفني : ٣٧/٢ ، ٣٨ ط المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٩٥٧ .

على هذا فان من الخير ان تتخلى عن هذا المصطلح ، ونستبدل به مصطلح (علم اللغة) ، الذي يعني دراسة اللغة - دون غيرها من وجوه النشاط الانساني - دراسة عامة ، تقوم على منهج علمي دقيق .

واذا تركنا مصطلحي (فقه اللغة) و (علم اللغة) وما دار حولهما من خلاف ، قابلنا مصطلحان آخران يطلقان ايضا على العلم الذي يتولى دراسة اللغة ، هما (اللسانيات) و (الالسنية) .

وقد اختار احمد مختار عمر مصطلح (الالسنية) الذي يشيع في لبنان ، وفضله على مصطلح (اللسانيات) الذي يشيع في المغرب . وقد رجح هذا اللغوي هذا المصطلح لان اطلاق كلمة (لسان) على اللغة اطلاق قديم ، فقد استعمله القرآن بمعنى (اللغة) ولم يستعمل هذه قط . كما ان بعض العلماء العرب اطلقوا على العلوم اللغوية اسم (علوم اللسان) كالفارابي الذي عقد فصلا في كتابه (احصاء العلوم) عنوانه (علم اللسان)^(٧٥) وابن خلدون الذي عقد في مقدمته ايضا فصلا في (علوم اللسان العربي) ، وهي عنده علوم اربعة « اللغة والنحو والبيان ولادب »^(٧٦) . بل ان هذه التسمية قد اختارها اوائل الدارسين في العصر الحديث ، فقد نشر الاب مرمجي الدومنيكي عدة ابحاث حملت اسم (الالسنية) في كتابه (المعجمية العربية في ضوء الثنائية والالسنية السامية) ، وترجم محمد مندور بحثا لانطوان ماييه تحت اسم (علم اللسان) ونشره عام ١٩٤٦ فصلا ملحقا بكتابه (النقد المنهجي عند العرب) ، واتخذه مقابلا للمصطلح الغربي Linguistics^(٧٧) .

ويبدو ان اثار فريق من اللغويين المعاصرين مصطلحي (اللسانيات) و (الالسنية) لتقابل المصطلح الغربي Linguistics ، يرجع الى انهم بهذه

(٧٥) احصاء العلوم : ٥٧ تح . عثمان امين ، ط ٣ ، ١٩٦٨ .

(٧٦) مقدمة ابن خلدون : ٥٤٥ ، مطبعة الكشاف ، بيروت د.ت .

(٧٧) مقال (المصطلح الالسنى العربي وضبط المنهجية) ل احمد مختار عمر :

٧ ، ٨ في مجلة (عالم الفكر) مج ٢٠ العدد ٣ ، ١٩٨٩ .

التسمية يطمحون الى ان يعزلوا « نظريتين لغويتين : احدهما عن الاخرى ،
تختلفان في كونهما تنتميان الى بيئتين معرفيتين مختلفتين ، والى عصرين معرفيين
مختلفين وتختلفان في العوامل التي تتحكم في الصياغة النظرية لكل منهما » (٧٨) .
ونعني بهاتين النظريتين : النظرية اللغوية العربية التي اسسها العرب في القرن
الثاني الهجري ، والنظرية اللغوية العربية الحديثة .

اما مصطلح (الفلسفة اللغوية) الذي اختاره جرجي زيدان عنوانا لكتابه
(الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية) ، فقد رأى فيه محمد المبارك « انه لا يقابل
المفهوم العلمي الحديث ، لادخاله في باب العلم مباحث هي الى الفلسفة اقرب ،
في حين ان سائر مباحث اللغة دخلت في طور البحث العلمي ، واخرج منها ما
كان من قبيل البحث في الفلسفة كالبحث في اصل نشوء اللغة » (٧٩) .

(٢)

اللغة والكلام واللسان

اللغة ظاهرة اجتماعية ، بمعنى ان استخدامها الحقيقي لا يكون إلا بين
الفرد والاخرين وقد فرق سوسير بين اللغة والكلام واللسان . فاللغة « نظام
من الرموز الصوتية المتفق عليه في البيئة اللغوية الواحدة ، وهي حصيلة
الاستخدام المتكرر لهذه الرموز الصوتية التي تؤدي المعاني الصوتية . اما
الكلام فهو الكيفية الفردية للاستخدام اللغوي » (٨٠) .

(٧٨) اثر محاضرات دي سوسير في الدراسات العربية الحديثة (حيدر
سعيد) : ١

رسالة ماجستير مخطوطة ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ١٩٩٦ .

(٧٩) فقه اللغة وخصائص العربية : ٣٩ ، ٤٠ .

(٨٠) علم اللغة العربية (د. محمود حجازي) : ٢٦ .

واللغة - بمعناها الاصطلاحي - هي « مجموعة الامكانيات التعبيرية الموجودة في البيئة اللغوية الواحدة ، أما الكلام فهو كيفية اختيار الفرد لعناصر بعينها من هذه الامكانيات التعبيرية الكثيرة » (٨١) . فالفرد مهما اوتي من الفصاحة والاحاطة بلغته ، لا يستخدم الا جزءا من الامكانيات التعبيرية المتاحة في بيئته اللغوية ، ليعبر بهذا الجزء عن شؤون حياته اليومية ، وعن متطلبات حرفته ، وعن مجالات اهتمامه وفكره وثقافته (٨٢) .

فاللغة عند سوسير « ظاهرة اجتماعية يمكن النظر اليها على انها شيء منفصل عن صور استخدام الافراد لها ، ونحن نكتسب اللغة من افراد المجتمع المحيطين بنا ، وهم يلقنونا اياها ، ونحن نتعلمها منهم ، وليست - بهذا الاعتبار - من قنجانا » (٨٣) .

اما الكلام عند سوسير « فكل ما يلفظه افراد المجتمع المعين ، اي ما يختارونه من مفردات او تراكييب ناتجة عما تقوم به اعضاء النطق من حركات مطلوبة » (٨٤) .

قال سوسير : « ان الفصل بين اللغة والكلام يعني ايضا الفصل بين ماهو اجتماعي وما هو فردي » (٨٥) .

والكلام على هذا « لا يمكن ان يكون ظاهرة اجتماعية ، لانه نتاج فردي شعوري تماما ، بينما الظاهرة الاجتماعية ينبغي ان تكون عامة في مجتمع يمارس الزاما على افراده ، وليست الظاهرة الاجتماعية عملا فرديا حرا » (٨٦) . وبهذا تكون اللغة نظاما من رموز وصيغ وقواعد ليس لها تحقق فعلي ، ينتقل

(٨١) نفسه : ٢٧ . (٨٢) نفسه .

(٨٣) مدخل الى علم اللغة (محمد حسن عبدالعزيز) : ٢٩٩ .

(٨٤) نفسه : ٣٠٠ .

(٨٥) علم اللغة العام (سوسير) ترجمة يوثيل عزيز : ٣٢ .

(٨٦) مدخل الى علم اللغة (د. محمد حسن عبدالعزيز) : ٣٠٠ .

من جيل الى جيل • واما اللسان « فظاهرة عامة تتمثل في العنصرين السابقين (اللغة والكلام) مجتمعين ، ولهذا لا يعده سوسير ظاهرة اجتماعية خالصة ، اذ هي تشمل الجانبين معا : الجانب الفردي (الكلام) والجانب الاجتماعي (اللغة) • فاذا استبعدنا العناصر الفردية من (اللسان) بقيت لنا العناصر الاجتماعية اي (اللغة) ، ومن تعريفات سوسير ان اللغة هي اللسان بعد ان نطرح منه الكلام » (٨٧) •

يتضح من ذلك ان اللغة عند سوسير « كالعقل الجمعي عند دوركايم ليست موجودة بشكل كامل وتام عند اي فرد • اي ان كل فرد من افراد الجماعة اللغوية يحاول ان يأتي كلامه موافقا لها ، ولكن لا يمكن ان يحققها تحققا كاملا • ومن ثم يتفاوت هؤلاء الافراد في مراعاة قواعدها » (٨٨) •

او هي « علامة مخزنة يتلقاها كل فرد من الافراد الآخرين الذين يستخدمون اللغة نفسها في المجتمع المعين ، وعلى هذا فهي موجودة بالقوة (اي كامنة) على حين ان الكلام موجود بالفعل (اي حادث) » (٨٩) • او هي نموذج مثالي يوجه كلام الافراد فيحاولون ان يظلوا ضمن ضوابطه اللغوية او السلوكية ليكونوا مفهومين من سواهم (٩٠) •

وصفوة القول ان « الكلام عمل واللغة حدود هذا العمل ، والكلام سلوك واللغة معايير هذا السلوك ، والكلام نشاط واللغة قواعد هذا النشاط ، والكلام حركة واللغة مظاهر هذه الحركة ، والكلام يحس بالسمع نظقا والبصر كتابة ، واللغة تفهم بالتأمل في الكلام • فالكلام هو المنطوق وهو المكتوب ، واللغة هي الموصوفة في كتب القواعد والمعاجم ونحوها ، والكلام قد يكون عملا فرديا ولكن اللغة لا تكون الا اجتماعية » (٩١) •

(٨٧) نفسه . (٨٨) نفسه : ٣.١ •

(٨٩) نفسه : ٣.٣ •

(٩٠) اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة (نايف خورما) : ١.٨ •

(٩١) اللغة العربية معناها ومبناها (د. تمام حسان) : ٣٢ •

يتضح مما تقدم ان الكلام « هو الاحداث المنطوقة فعلا من متكلم فرد .
أي العبارات التي لها واقع مادي مباشر ، ويمكن ان يدرك ادراكا حسيا وعلى
ذلك فالكلام نشاط فردي يقوم به شخص ما في حديثه مع الآخرين » (٩٢) .
وما دام الافراد هم الذين ينتجون الكلام ، وليست الجماعة ، فانه لا يُعَدُّ
« حقيقة اجتماعية » لانه عمل الفرد ، اما الوقائع الاجتماعية فيجب ان تكون
« عامة » يمارسها المجتمع على نحو جبري (٩٣) .

اما اللغة فيقصد بها اللغة بالمعنى المطلق ، او « هي كلام ينقصه التكلم ،
انها المجموعة الكلية للعادات اللغوية التي تسمح للفرد بأن يفهم وان يفهم ،
وهي على هذا الاساس ملك للفرد وللمجتمع ايضا ، فهي فردية واجتماعية في
آن واحد ، وهي لذلك ليست (واقعة اجتماعية) لايها تتضمن العوامل
الفردية المنسوبة الى المتكلمين الافراد ، وهي تقع على تخوم عدة ميادين
فيزيائية وفسولوجية ونفسية ، وهي تتحقق في اشكال متعددة ومتنافرة ،
ولذلك لا يمكن ان تدرس دراسة علمية لما تقتضيه من مبدأ التجانس
والوحدة » (٩٤) .

واما اللسان « فهو اللغة المعينة الصالحة للدراسة العلمية كالعربية
والانجليزية وسواهما ، وهو مجموعة من الصور اللفظية المختزنة في العقل
الجماعي ، وهذه الصور ذات قيم موحدة عند جميع الافراد ، وهو تتاج
اجتماعي لملكة اللغة ، وهو خارج عن نطاق الفرد ، لانه يرثه باعتباره تراثا
جماعيا ، وليس له في هذا الميراث اي نوع من الاختيار ، فهو لا يملك التدخل
في اختيار مفرداته او تنظيم قواعده ، واللسان لا يوجد الا بنوع من الاتفاق
الجماعي ، ولذا فان (٩٥) الانسان لا يستحوذ على اللسان إلا بالدربة
والمران » (٩٦) .

(٩٢) علم اللغة بين التراث والمعاصرة (د . عاطف مذكور) : ٢٧ ، القاهرة ١٩٨٧
(٩٣) نفسه .
(٩٤) نفسه : ٢٨ .
(٩٥) لا تستعمل الغاء بعد لام التعليل والصواب ان يقال : ولذا لا يستحوذ
الانسان على اللسان . (٩٦) نفسه .

والخلاصة - كما يرى سوسير - « ان الكلام لا يمكن دراسته دراسة علمية لانه فردي ، والفردي يقوم على عنصر الاختيار ، وعنصر الاختيار لا يمكن التنبؤ به ، ومالا يمكن التنبؤ به لا يمكن دراسته دراسة علمية . و (اللغة) كذلك لا تدرس بشكل علمي لانها لا تمثل واقعة اجتماعية خالصة حيث (٩٧) انها تخص الفرد وتخص الجماعة ، لم يبق اذن إلا (اللسان) فهو وحده الذي يمكن دراسته دراسة علمية لانه موضوع محدد يتصف بالتجانس ولذا يمكن ملاحظته وتصنيفه ، وله بذلك مكان بارز بين الحقائق الانسانية » (٩٨) .

ويبدو ان يسبرسن العالم الدانماركي قد تصدى لآراء سوسير هذه ، فلم يرتض قوله ان الكلام من نتاج الافراد ، وان اللسان من نتاج المجتمع ، بل ذهب الى ان الكلام واللسان « هما في حقيقة الامر جانبان لشيء واحد ، وكلام الفرد ليس شيئاً منفصلاً عن لغة الجماعة ، انه مثل او صورة لها . فالكلام وان كان نشاطاً فردياً إلا انه يرتبط بعنصر اجتماعي ، فهو الافهام . ومفردات (اللسان) المعين هي جميع ما ينطق به كل افراده من الفاظ مهما اختلفت درجة شيوعتها ، والامر كذلك بالنسبة للتراكيب ومخارج الحروف » (٩٩) .

فالعلاقة « بين اللسان والكلام - كما يرى يسبرسن - شبيهة بعلاقة النوع بالفرد ، فكل (خروف) يختلف عن كل (خروف) آخر ، وبالرغم من ذلك نستطيع ان نتصور معنى عاماً مشتركاً بين جميع (الخراف) نطلق عليه كلمة (خروف) . والخروف بالمعنى المطلق ليس له وجود في عالم (الواقع) وانما هو امر ذهني ، وكذلك اللسان بالنسبة للكلام . فالموجود فعلاً هو النشاط الانساني الذي يقوم به فرد أو افراد » (١٠٠) .

(٩٧) لا تستعمل (حيث) للتعليل والصواب ان يقال : اذ انها .

(٩٨) علم اللغة بين التراث والمعاصرة : ٢٩ .

(٩٩) نفسه : ٣٠ . (١٠٠) نفسه .

وسأل يسبرسن مستنكرا : « اذا كان اللسان عند دي سوسير مجموعة من الصور الذهنية للكلمات والتراكيب اللغوية الموجودة لدى جماعة لغوية خاصة ، ومستقر هذه الصور اذهان الافراد ، فماذا تكون الصور الذهنية المستقرة في ذهن فرد خاص ؟ أهى كلام أم لسان ؟ انها بمفهوم سوسير ليست كلاما ، لان الكلام عنده نشاط فعلي ، والصور الذهنية لدى فرد معين ليست كذلك ، وهى ايضا ليست (لسانا) لانها امر فردي ، بينما (اللسان) امر جماعي . فماذا تكون اذن إن لم تكن كلاما ولا لسانا ؟ » (١٠١) .

ولمعالجة هذه المشكلات يضع يسبرسن تقسيما ثلاثيا آخر فيه ثلاثة مصطلحات هي :

١ - الحدث اللغوي « وهو نطق فرد معين بعبارة معينة مرة واحدة ، ولو ان الفرد نفسه كرر العبارة نفسها ، فان هذا يشكل حدثا لغويا جديدا ، لانه لا يمكن ان تتشابه المواقف او الدوافع للاحداث اللغوية في جميع تفصيلاتها » (١٠٢) .

٢ - لغة الفرد : « وهى القيم اللغوية الموجودة لدى فرد من الافراد » (١٠٣) .

٣ - لغة الجماعة : « وهى مجموعة القيم اللغوية لدى افراد الجماعة اللغوية الواحدة » (١٠٤) .

وفهم من ذلك « ان الواقع اللغوي يكون (احدا لغوية) ، اما العلاقات والقواعد والامور التجريدية فهى (لغة) وقد تكون اللغة (فردية) حين تكون هذه القواعد والعلاقات والتجريدات خاصة بفرد من الافراد ، وقد تكون اللغة (جماعية) حين تكون هذه الامور عامة تشمل الجماعة كلها » (١٠٥)

(١٠١) علم اللغة بين التراث والمعاصرة : ٣٠ .

(١٠٢) نفسه : ٣١ . (١٠٣) نفسه .

(١٠٤) نفسه . (١٠٥) نفسه .

والذي اراه ان يسبرسن لم يتعد كثيرا عن سوسير ، فكلاهما اكد ان الذي يدرس في علم اللغة هو ما يمثل الجماعة ، لا ما هو فردي خالص ، وقد اشار سوسير فيما مرّ بنا الى ان (اللغة) هي (اللسان) بعد ان طرح منه الكلام ويثفهم من هذا أن موضوع علم اللغة هو الأحداث اللغوية التي تمثل الجماعة ، لا الأحداث اللغوية التي تمثل الفرد .

ويلاحظ اننا نستعمل كلمة (لغة) احيانا ، ونحن نقصد بها (الكلام) ، فقولنا : لغة فلان جيدة او لغته رديئة ، المراد به (الكلام) ، او الاستخدام الفردي للغة (١٠٦) .

ولابد من الاشارة هنا الى ان (الكلام) عملية معقدة « تتم نتيجة مؤثرات خارجية او داخلية ، مرئية او مسموعة ، يستجيب لها الجهاز العصبي للمتكلم ، فيصدر اوامره الى اعضاء النطق ، فترسل هذه بدورها اصواتا تمضي في الهواء على شكل موجات صوتية ، فتلقاها اعضاء السمع عند المتلقي ناقلة اياها الى الجهاز العصبي ، وقد يصدر هذا اوامره بعد ذلك الى اعضاء النطق ، وهكذا تحدث عملية الكلام » (١٠٧) .

والعمليات العقلية عند المتكلم والمتلقي ، لا تدخل في مجال علم اللغة ، بل يتناولها علم جديد آخذ في الاستقلال ، هو (علم اللغة النفسي) . اما علم اللغة فيتخصص بالنظر في الرموز الصوتية التي تنقل الفكرة من المتحدث الى المتلقي ، فيبحث كيفية تكوين هذه الرموز الصوتية ، وكيفية انضمام بعضها الى بعض لتكوين الكلمات ، وكيفية تكوين الكلمات للجمل ، ويتناول هذا العلم ايضا ارتباط هذه الرموز بالدلالة او المعنى (١٠٨) .

(١٠٦) علم اللغة العربية : ٢٦ ، ٢٧ .

(١٠٧) مدخل الى علم اللغة (محمود حجازي) : ١١ ، بتصرف يسير .

(١٠٨) نفسه : ١٢ .

والكلام هو المظهر المسموع للغة ، وهو الاصل فيها ، اما (الكتابة) فهو المظهر المرئي لها ، وهي - كما تقدم - اختراع انساني لاحق لاختراع (اللغة) ، والاشكال الكتابية التي هي (الحروف) تعد ثانوية اذا قيست برموز الكلام الملفوظة التي هي (الاصوات) ، اي ان الحروف هي « رموز الرموز » (١٠٩) .

ويرى اللغويون المعاصرون ان تفريق سوسير بين اللغة والكلام كان ضروريا لدراسة قضية التطور اللغوي ، ذلك ان هذا التطور هو ضرب من التغير الذي يشبه التغير في العادات والتقاليد والأزياء « وهذا معناه ان التغير اللغوي يبدأ عند فرد ما ، اي على مستوى الكلام ، فاذا وجد هذا التجديد قبولا من المجتمع اصبح بمضي الوقت عرفا لغويا سائدا » (١١٠) .

فالتغير اللغوي مصدره تجديد فردي يرتضيه المجتمع ، « اما التجديد الذي يرفضه المجتمع فيبقى خارج مجال علم اللغة ، لان علم اللغة يبحث اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، وليس كل تغير لغوي عند فرد ما او مجموعة افراد يقبل اجتماعيا ، فالى جانب تغيرات بدأت على مستوى الفرد ثم اصبحت على مستوى البيئة اللغوية كلها ، هناك تجديدات فردية ظلت مرتبطة بمجموعة افراد ولم تقبل اجتماعيا » (١١١) .

ومن الامثلة التي يسوقها بعض اللغويين المعاصرين على اثر الفرد في إحداث التغير اللغوي ، ما لوحظ من ان (الراء) تلفظ (غينا) في نطق اهل باريس ، وان هذا النطق بدأ عند احد المرموقين في الدولة ، فاستظرفه المحيطون به من رجال البلاط ، فقلدوه فيه ، وتلاهم على ذلك عدد من ابناء الطبقات المترفة ، ثم انتقل الى غيرهم من ابناء الشعب ، حتى اصبح هذا النطق هو العرف اللغوي السائد (١١٢) .

(١٠٩) علم اللغة (د. السمران) : ٥٥ . (١١٠) علم اللغة العربية : ٢٧ .

(١١١) علم اللغة العربية : ٢٧ . (١١٢) نفسه .

واذا كان التغير اللغوي السابق الذي بدأ في كلام فرد ، قد حظي بقبول الجماعة اللغوية كلها فغدا عرفا لغويا ، فان ثمة تغيرا آخر بدأ في كلام بعض الافراد ، الا انه لم يظفر بالقبول ، فلم يعم . فقد قيل ان بعض الطالبات في بعض جامعات مصر اخذن ينطقن بعض اصوات الاطباق دون القدر الضروري من الاطباق ، فكادت (الطاء) مثلا تكون (تاء) ، وكادت (الضاد) تنطق (دالا) ، ولكن هذا الاتجاه في تغيير النطق ظل مقصورا على مجموعة الطالبات اللائي شرعن فيه ، ولم يقبل اجتماعيا ، ومن ثم لم يؤد الى تغيير نطق هذه الاصوات (١١٣) .

(٣)

علم اللغة الاجتماعي

يمكن تعريفه بانه دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع . وقد اجمع الدارسون على ان اللغة لا تحيا إلا في ظل مجتمع انساني ، كما عبر فندريس عن هذه العلاقة الحميمة بين اللغة والمجتمع بقوله : « في احضان المجتمع تكونت اللغة ، ووجدت يوم احس الناس بالحاجة الى التفاهم فيما بينهم » (١١٤) .

ولهذه الصلة الوثيقة بين اللغة والمجتمع ، اصبح جزء من المباحث اللغوية يدرس في علم الاجتماع ، وهو امر دعا الى ان يتفرع من علم الاجتماع علم جديد آخذ بالاستقلال والتطور يدعى (علم اللغة الاجتماعي) ، هدفه الكشف عن العلاقات بين اللغة والحياة الاجتماعية ، واثار تلك الحياة في الظواهر اللغوية المختلفة .

وكان دوركايم في اوائل هذا القرن قد نبه علماء اللغة على ان الظاهرة

(١١٣) نفسه : ٢٧ ، ٢٨ .

(١١٤) اللغة (فندريس) : ٣٥ ، ترجمة الدواخلي والقصاص ، القاهرة ١٩٥٠ .

اللغوية كالظاهرة الاجتماعية يمكن ان ترصد وتلاحظ ، كما يلاحظ عالم الطبيعة (الشيء) ويتخذ موضوعا لدراسته (١١٥) .

ولذا يصح لنا القول ان (علم اللغة) قد ولد في احضان (علم الاجتماع) ، وكان صدى لمباحثه التي اسبغ عليها دوركايم صفة (العلم) ، ونقلها الى مصاف مباحث العلوم الطبيعية من حيث (الموضوعية) ، واتباع (المنهج العلمي) في دراستها . وقد تأثر سوسير بزميله دوركايم ، واتخذ (اللغة) موضوعا لدراساته ثم تبعه على ذلك تلاميذه ، ومن تأثر بهم من اللغويين في اوربا وامريكا .

فعلم اللغة الاجتماعي اذن يستمد مسوغات وجوده من علاقة اللغة بالمجتمع ، ومن تأثر احدهما بالآخر ، فكل لغة تعد مرآة المجتمع الذي يتكلمها ، تظهر على صفحاتها ما يتسم به ذلك المجتمع من حضارة او بداءة ، ومن رقي او انحطاط ، وما يخضع له من نظم وعقائد واتجاهات فكرية وفنية واقتصادية وغير ذلك . ومعنى ذلك ان اللغة تتأثر بكل الظواهر الاجتماعية تأثرا واضحا فهي بدوية في المجتمع البدوي ، وهي في مثل هذا المجتمع تكون محدودة الالفاظ والتراكيب والخيال ، وتفتقر الى المرونة ، ولا تتسع لكثير من فنون التعبير .

واللغة في المجتمع البدائي تكثر فيها المفردات التي تتعلق بالمحسوسات ، وتخلو من المفردات ذات المعاني العامة ، فليس فيها فعل يدل على الاكل بوجه عام ، وانما لكل نوع من الطعام فعل خاص به ، فلا يقال : (أكل خبزا) او (اكل تفاحا) وانما يعبر عن اكل كل نوع بفعل خاص . وكذلك لا يوجد فيها فعل يدل على الغسل بوجه عام ، بل لغسل كل جزء من الجسم فعل خاص ، فلا يقال : غسل رأسه او وجهه او يديه ، وهكذا .

(١١٥) النحو العربي والدرس الحديث (د . عبده الراجحي) : ٢٦ .

وتخلو الالفاظ في المجتمع البدائي من الدقة ، ويكثر فيها اللبس والابهام ، وهي لا تعبر الا عن ضرورات الحياة اليومية بجمل قصيرة ، وروابطها قليلة . ولا يزال قسم من لغات البدائيين يعتمد على الاشارات ، الى درجة يتعذر عليهم معها التفاهم عند حلول الظلام ، فيضطرون الى ايقاد النار عند التخاطب . وواضح ان الاشارات تكمل الكلام الناقص الذي لا يفهم بدرجة كافية من الوضوح .

ومهما يكن فان هناك موضوعات كثيرة تقع في دائرة (علم اللغة الاجتماعي) سنشير الى اهمها فيما يأتي .

وظيفة اللغة :

تدرس اللغة على مستويين ، يتعلق الاول « بالشكل او البنية الظاهرة ، اي بالطرق او القواعد التي تستخدم في اللغات المختلفة لتنظيم اصوات اللغة ، ومفرداتها ، بحيث تؤدي المعاني المطلوبة ، وهذه الناحية هي التي تطرق لها معظم اللغويين القدامى » (١١٦) .

ويتعلق الثاني « بالوظيفة او الوظائف التي تؤديها اللغة في المجتمعات البشرية ، وبعلاقة اللغة بالمجتمع ، كيف تؤثر فيه ، وكيف يؤثر فيها ، وما يطرأ على كل منهما من تغير وتطور نتيجة لذلك » (١١٧) .

وقد كان كثير من موضوعات المستوى الثاني يدرس في نطاق علوم اخرى غير علم اللغة ، ولكن العلماء المعاصرين يسعون الى تناول هذه الموضوعات في علم موحد هو (علم اللغة الاجتماعي) ، يتآزر فيه علماء الاجتماع وعلماء اللغة ، ويحاولون التوصل « الى بعض القوانين العامة التي تتحكم في الاستعمال الفعلي للغة في مجتمع معين او في جميع المجتمعات » (١١٨) .

(١١٦) اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : ٢٧ .

(١١٧) نفسه : ٢٠٧ ، ٢٠٨ . (١١٧) نفسه .

لقد وقر في اذهان اللغويين قديما « ان اللغة وعاء الفكر ، وان وظيفتها هي التعبير عن الفكر البشري » (١١٩) ، ولكن هذا الاعتقاد لم يكن سليما ، لان (نقل الفكر) او (التوصيل) ليس الغرض الوحيد من اللغة ، كما ان هذا الغرض لا يصدق على جميع صور الكلام ، او اشكال السلوك الكلامي .

فليست اللغة دائما هي مرآة ينعكس عليها الفكر ، او ليست هي دائما مستودعا له ، تجسده وتعبر عنه ، فليس ثمة توصيل للفكر في انواع كثيرة من السلوك الكلامي ، كمناجاة النفس ، « ولا توصيل للفكر في استعمال اللغة في السلوك الجماعي كالصلاة والدعاء وفي استعمال اللغة في المخاطبات الاجتماعية ، التي لا تستهدف غاية كلغة التحيات وفي التلذذ بالاصوات واللعب بها » (١٢٠) .

ان وظيفة اللغة اذن تتعدد بتعدد مظاهر الحياة الاجتماعية ، والسوان السلوك الانساني فيها ، ولذا ذهب بعض اللغويين الى ان اهم هذه الوظائف هي :

(١) استعمال اللغة لتأكيد الشعور بالانتماء الى المجتمع ، فان اللغة تتحول في هذه الحال الى ما يشبه الاصوات او الحركات التي تصدر عن الحيوان . ويتخذ هذا الاستعمال صورا كلامية كثيرة ، كألفاظ التحية بانواعها ، والالفاظ والعبارات التي يظهر الانسان بها تأدبه وتلفظه في المناسبات الاجتماعية المختلفة « كمناسبة اللقاء والجلوس معا في مكان واحد والحفلات وما شابهها ... ان القصد من مثل هذه العبارات ، ومن الاحاديث عن الطقس — بين اثنين او اكثر يلتقون اول مرة في مكان ما — ومن الاحاديث التي تدور في الحفلات التي يجتمع فيها من الناس من لا يعرف بعضهم بعضا معرفة جيدة ... لا يعدو ان يكون اقامة العلاقات الاجتماعية او تأكيد تلك العلاقات ، وتمتين اواصرها

(١١٩) نفسه : ٢٠٨ .

(١٢٠) علم اللغة (د. السمران) : ٧٩ ، ٨٠ .

••• اذ ليس فيها من الافكار او المعلومات ما هو مهم يحتاج الى توصيل من فرد الى آخر» (١٢١) •

وليست هذه الوظيفة للغة بالقليلة الاهمية « بل انها احد الاسس التي يقوم عليها الشعور بالانتماء الاجتماعي ، فانت تشعر في الحال بانك قريب الصلة جدا من انسان يجلس الى مائدة اخرى ، وأنتما في بلد اجنبي ، عندما تسمعه يتكلم بلغتك ، بينما جميع الاخرين يتكلمون لغات اجنبية • كما انك تشعر حتى وانت في بلدك بقوة تجذبك نحو انسان يتكلم اللهجة المحلية التي تتكلمها انت ، وهكذا» (١٢٢) •

(٢) استعمال اللغة لتأكيد شعور الفرد بالانتماء الى نظام ديني معيني ، كلغة الادعية والاوراد والطقوس الدينية • ومما يلحق بهذه اللغة ايضا تلك المستعملة في القسم واستفتاح الكلام او الكتاب ، ثم لغة طقوس السحر والشعوذة (١٢٣) •

ويتميز هذا الضرب من الاستعمال اللغوي بمميزات خاصة « كاستعمال الكلمات الغامضة والقديمة والاستفادة من الامكانات الصوتية للغة ، لاضفاء الجرس الموسيقي عليها ، واستعمال الرمز والمجاز على نطاق واسع • كما انها تتميز بصفة مهمة جدا هي المحافظة الشديدة بحيث يستمر نص معين قيد الاستعمال مئات السنين بدون تغيير او تبديل» (١٢٤) •

وسبب هذه المحافظة على صيغ هذا الاستعمال اللغوي والفاظه ، مهما قدمت او غمضت ، هو قلة الاهتمام بالمعنى الحرفي لها ، فاللغات اللاتينية المنقرضة ظلت تستعمل حتى عهد قريب في الطقوس الدينية لجميع الطوائف

(١٢١) اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : ٢٠٩ ، ٢١٠ •

(١٢٢) نفسه : ٢١٠ •

(١٢٣) نفسه : ٢١١ •

(١٢٤) نفسه •

المسيحية الكاثوليكية ، وقل مثل ذلك عن استعمال الهنود اللغة السنسكريتية البائدة في طقوسهم الدينية ، واستعمال الاقباط للغة الميتمية ، واستعمال المسلمين غير العرب اللغة العربية في طقوسهم الدينية ايضا .

ولهذا الضرب من الاستعمال اللغوي وظيفة اجتماعية اخرى هي الكشف عن انتماء الفرد لجماعة دينية معينة ، فقول احدهم : (السلام عليكم) و (لا حول ولا قوة الا بالله) يدل على انتمائه الى مجتمع إسلامي . وقول الآخر : (باسم الاب والابن والروح القدس) يدل على انتمائه الى مجتمع مسيحي ، ومن غير النظر الى المعنى الحرفي لهذه العبارات (١٢٥) .

(٣) استعمال اللغة في مناسبات ذات طابع ديني او اقتصادي او قانوني ، كالعبارات المستعملة في عقد الزواج والطلاق والبيع والشراء او ابلاغ القاضي المتهم بالحكم عليه . ان صور الكلام في هذه المناسبات لا تتوخى نقل المعلومات او توصيل الافكار (١٢٦) .

(٤) استعمال اللغة للسيطرة على ظرف ما بشكل دائم ومنظم ، او التحكم في تصرفات الآخرين او لتوجيههم نحو مصلحة المتكلم او ما يريد . ويتمثل هذا الضرب من استعمال اللغة بالعبارات التي فيها فواه او اوامر او طلب عادي او رجاء او استجداء او سؤال (١٢٧) .

(٥) استعمال اللغة في مواقف قولية لا يراد فيها مجرد نقل الافكار او المعلومات ، وانما يراد مع ذلك التأثير في المخاطبين او استمالتهم او اقناعهم ، كالذي تنشره وسائل الاعلام وكالاعلانات والاعمال الادبية .

(٦) استعمال اللغة للتنفيس عن المشاعر والاحاسيس التي تعتلج في النفس

(١٢٥) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : ٢١٢ .

(١٢٦) نفسه .

(١٢٧) نفسه : ٢١٢ ، ٢١٣ .

او تخامر القلب في مواقف معينة يتعرض لها الانسان ، كالعبارات التي تقال عند الفرح او الحزن او الغضب او الالم او الغناء • ان لاستعمال اللغة في هذه الحالات وظيفة التنفيس عما في داخل الانسان بغض النظر عن وجود من يسمع ذلك الكلام او عدمه (١٢٨) •

يتضح مما تقدم ان التعبير عن الافكار ليس الوظيفة الوحيدة للغة ، على ما وقر في اذهان القدماء ، بل انها في مواقف معينة تستعمل للتضليل او لاختفاء الفكر •

اللغة والفرد :

تمثل اللغة التي يتكلمها الفرد احدى سمات شخصيته ، ومن اهم العلامات الفارقة التي تميزه من غيره • ومعنى ذلك ان لغة اي فرد تتخذ مظاهر يختلف بها عن الاخرين منها ما يتعلق بـ (طبيعة الصوت) نفسها ، اذ تحدد هذه شخصية الفرد : أهو ذكر ام اثنى ، او اشاب ام شيخ ، او امجب ام منفرد ، او اوقور باعث على الاحترام ام هزأة مشير للسخرية ، وهكذا • ومنها ما يتعلق بـ (المفردات) ، فعن طريق هذه نستطيع ان نتبين ثقافة الفرد او مهنته او طبقته الاجتماعية • كما ان في لغة بعض الافراد مفردات يكررها ، فتكون سمة لازمة لكلامه ، كقول احدهم بين عبارة واخرى (سامع) او (فاهم) او (في الحقيقة) او ماشابها ، مما يشارك في تحديد هوية ذلك الفرد •

(١٢٨) نفسه : ٢١٤ •

ومن مظاهر اختلاف لغة فرد عن غيره ما يتعلق بـ (طريقة الكلام) فهذه ايضا تختلف من شخص لآخر ، فبعضهم يتكلم بسرعة ، وبعضهم يتكلم ببطء ، ويتوسط ثالث بين هذا وذاك ، وبعضهم يسعل سعلة خفيفة عقب كل جملة او جملتين ، او يتنحنج او يتردد او يلثغ او يفأفأ او يتمتم الى غير ذلك من الصفات الفردية في الاستخدام اللغوي ، التي تجعل احدا يعرف صوت اخيه او صديقه او احد معارفه حالما يسمعه ، سواء أراه ام لم يره . وعلى الرغم من هذه الصفات المميزة للغة الفرد ، انها لا تجعل من كلامه لغة خاصة لا يفهمها الآخرون ، لان الفرد يشترك هو وافراد بيئته بصفات اساسية تجعل التفاهم قائما بينهم .

ولابد من الاشارة الى ان لغة الفرد لا تبقى ثابتة في جميع مراحل حياته ، بل ان العكس هو الصحيح ، فهي تنمو بنموه العمري والثقافي ، وتتغير بحسب ما يعرض له من تطور اجتماعي (١٢٩) .

اللغة والتباين الاجتماعي :

ان كل فرد « عضو في عدة مجموعات في مجتمعه الكبير : فهو عضو في أسرته ، وهو عضو في المجتمع الذي يعيش فيه ، وهو عضو في مجتمع القرية ، او البلدة التي يسكنها ، ثم هو عضو في مجتمع القطر الذي يحمل جنسيته ، وهو بالاضافة الى هذا عضو في جماعة دينية ربما تكون اغلبية السكان او اقلية كبيرة او صغيرة ، كما هو عضو في طبقة ثقافية معينة ، وهو ايضا عضو في فئة مهنية بحكم عمله ، كأن يكون قاضيا او محاميا او طبيا او تاجرا او مدرسا او سمسكيا او ميكانيكيا ... الخ » (١٣٠) .

(١٢٩) اضاء الدراسات اللغوية المعاصرة : ٢١٣ وما بعدها .

(١٣٠) نفسه : ٢٢٥ .

ولا شك في ان اللغة التي يتكلمها الفرد تتأثر باهتماماته هذه ، ويكون فيها ما يشي بالطبقة او الشريحة التي ينتسب اليها ذلك الفرد . ومعنى هذا ان « هناك مظاهر لغوية خاصة بشرائح اجتماعية معينة تدل على تلك الشرائح دلالة واضحة . فمن الممكن تمييز لغة الاطفال من لغة البالغين ، ولغة المثقفين من لغة الاميين ، ولغة طائفة دينية معينة من لغة طائفة اخرى ، ولغة المدرسين من لغة التجارين ولغة القضاة من لغة الارستقراطيين ولغة اهل المدينة من لغة اهل الريف او اهل البادية » (١٣١) . فللاطباء لغتهم وكذلك المحامون والعسكريون والطلاب ورجال الدين والخبازون والحدادون وغيرهم .

والانتقال من شريحة الى اخرى قد يكون فعليا ، وقد يكون بقصد التقليد فيولد السخرية والهزاء . وقد يتم الانتقال رسميا عن طريق منح الالقاب او التعيين في مناصب رسمية .

ولمقامات الحديث الوان من اللغة تناسب كل مقام ، كما ان لموضوعات الحديث الوانا من الاساليب تختلف باختلافها .

الكلام المحظور اجتماعيا (الكلام الحرام) :

ان للكلمات من النفوذ والسلطان على نفوسنا ما يجعلنا ننطق ببعضها التماسا للقوة وطلبا للحماية ، وتجنب نطق بعضها دفعا للاذى ، او ترفعا عما يرتبط بتلك الالفاظ من معاني الدنس والقذارة ، او ما يחדش الحياء ويجرح الشعور .

ومعنى ذلك ان لكل مجتمع بدائيا كان او راقيا مجموعة مفردات تعزل عن الاستعمال ، ويحظر تداولها ، وقد اطلق الباحثون على هذه الالفاظ مصطلح

(١٣١) اضاء على الدراسات اللغوية المعاصرة : ٢٣١ .

taboo ، وهي كلمة استخدمها اول مرة كابتن كوك في اثناء اكتشافه
جزر الارخبيل ، وتعني (الممنوع) ، ثم انتقلت الى اللغات الاوربية لتعبر
عن ظاهرة التحريم والمنع .

وهذا المصطلح ليس لاتينيا او يونانيا كما جرت العادة في باقي
المصطلحات المستعملة في اللغات الاوربية الحديثة ، وانما هو مصطلح مشتق
من كلمة بولونيزية الاصل ، وهو من الكلمات القليلة التي انتقلت الى اللغات
الاوربية من اللغات المغمورة .

ومن المفيد ان نشير الى ان اللغويين العرب ، قدامى ومحدثين ، استعملوا
بعض التعابير التي يمكن ان تقابل taboo ، فقد استعمل ابن فارس
تعبير (تحسين اللفظ) في حديثه عن الكناية اذ قال : « انه يكنى عن الشيء
فيذكر بغير اسمه تحسينا للفظ او اكراما للمذكور ، وذلك كقوله جل ثناؤه :
(وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا) (١٣٢) ، قالوا ان الجلود في هذا الموضع
كناية عن آراب الانسان ... وقوله تعالى : (او جاء أحد منكم من الغائط) (١٣٣)
والغائط المطمئن من الارض ، كل هذا تحسين للفظ » (١٣٤) .

واستعمل كمال بشر (حسن التعبير) اي ابدال كلمة باخرى مع كل شيء
مقدس او خطير او مخيف (١٣٥) . واستعمل احمد مختار عمر (تلطيف التعبير)
وهو ابدال الكلمة الحادة بكلمة اقل حدة او اكثر قبولا (١٣٦) . وترجم محمد
علي الخولي المصطلح بـ (لطف التعبير) في (معجم علم اللغة النظري) اي

(١٣٢) فصلت : ٢١ .

(١٣٣) النساء : ٤٢ .

(١٣٤) صاحب في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها (احمد بن فارس) : ١٦٠ ،
تح . مصطفى الشويمي .

(١٣٥) دور الكلمة في اللغة (استيفان اولمان) ترجمة د . كمال بشر : ١٧٧ .

(١٣٦) علم الدلالة (د . احمد مختار عمر) : ٢٤٠ ، ط ١ ، ١٩٨٢ .

اببدال تعبير حاد بآخر اكثر قبولا • والعامة في مصر يقولون للذي تكون
الفاظه نابية : (حسن ملافظك) •

ويمكن تصنيف الكلمات المحظورة او الممنوع تداولها في مجتمع من
المجتمعات بحسب ما تعبر عنه من موضوعات ، فهناك كلمات تتعلق
بـ (الخرافات والاساطير) ، وكلمات تتصل بـ (الموت) و (المرض) ،
وثالثة تتعلق ببعض العمليات البيولوجية لجسم الانسان كالكلمات التي تطلق
على ما يطرح الجسم من فضلات ، والكلمات التي ترتبط بالجنس والتناسل •

ففي بعض المجتمعات لا يجوز ذكر (الشيطان) و (الجن) او بعض
الحيوانات لانها ربما أتت عند سماع اسمها • ومن هذا ان المصريين يطلقون
(الاسياد) بدلا من (الجن) او (العفاريت) ، وقول العراقيين (بسم الله
الرحمن الرحيم) بدلا من (الجن) • واما لفظ (الموت) ولفظ المرض الخطير
فمكروهان في جميع المجتمعات ، لذا يستبدلون بهما الفاظا تشير اليهما
ولا تصرّح بهما ، فتكون اخف موقعا في النفس • فنحن نقول : (انتقل الى
جوار ربه) و (رحل فلان) و (قضى نحبه) تحاشيا لكلمة (مات) • ومثل
هذا الاشارة الى بعض الامراض القاتلة كالسل والسرطان بتعبير (ذاك
المرض) • ومن هذا ايضا ان المصريين يسمون (الحصبة) المبروكة ويسمون
(الحمى) العافية •

واما تحريم كل ماله صلة بالاعضاء التناسلية والجنس فمعروف في كل
المجتمعات فهي تميل الى ذكر كلمات تكني عن هذه الامور ، ولا تصرّح بها ،
وهي تتبدل كل حين لانها تصبح معروفة ، فيضطر المجتمع الى تبديلها • ويبدو
ان اللغة الانكليزية الامريكية من اغنى اللغات بالكلمات البديلة لكلمة
(الحيض) ، فقد احصى بعضهم اكثر من مئة كلمة من تلك الكلمات
البديلة (١٣٧) •

(١٣٧) اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : ٢٤٤ وما بعدها •

(٤)

علم اللغة النفسي

ترجع العلاقة بين علم اللغة وعلم النفس الى طبيعة اللغة ، بوصفها احد مظاهر السلوك الانساني ، فاذا كان علم النفس يدرس السلوك الانساني عموما ، فان دراسة السلوك اللغوي احد جوانب الالتقاء بين علم اللغة وعلم النفس •

فالكلام « ليس مجرد اصدار اعضاء من الجسم الانساني لاصوات معينة ، وان هذه الاصوات توجه الى اذن ، والسامع تقوم في ذهنه عمليات عقلية متعددة ، حتى تتحول الاصوات الى (دلالات) • والمتكلم نفسه قبل ان يشرع في الكلام وفي اثناء الكلام وبعده احيانا ان كان ينتظر اجابة مثلا ، تقوم في نفسه سلسلة من العمليات (العقلية) او (النفسية) • ف (فهم) الكلمات وبعض ما يتعلق بها من حيث تكوينها وسماعها مرتبط بسلسلة من العمليات العقلية » (١٣٨) •

ويذهب فندرس الى ان « الانسان لا يستخدم اللغة للتعبير عن شيء فحسب ، بل للتعبير عن نفسه ايضا » (١٣٩) • ويذهب بعض العلماء الى « ان الالفاظ ليست الا رموزا تعبر عن المعاني الكامنة في النفس ، وهي ضرورية للتقدم العقلي لانها هي التي تثبت كل خطوة يخطوها الذهن البشري » (١٤٠) • ومعنى ذلك ان المعنى يظل « حائرا في الذهن حتى يستقر في الكلمة المناسبة ، وحينئذ يتحدد المراد منه ، ويثبت ويتضح » (١٤١) • وعلى ذلك « فان اللغة

(١٣٨) علم اللغة (السعران) : ٧٢ • (١٣٩) اللغة : ١٨٣ •

(١٤٠) المدخل الى علم اللغة : ١٣٧ • (١٤١) نفسه •

لا يصح ان تدرس على انها اداة عقلية فحسب ، لان الانسان كما يتكلم ليصوغ افكاره ، فانه يتكلم ليؤثر في غيره من الناس ، وليعبر عن احساسه وشعوره وعواطفه ، فهو يعبر باللغة عن نفسه كما يعبر عن آرائه ، بل انه يمكن القول بان التعبير عن اية فكرة لا يخلو مطلقا من لون عاطفي ، إلا اذا استثنينا التفكير العلمي او اللغة العلمية التي يجب ان تكون معبرة عن الفكرة المحضة ، والحقيقة المجردة ، الخالية من الانفعالات النفسية» (١٤٢) .

ولهذا وغيره ارتبط علم اللغة بعلم النفس ، واستعان بكثير من الحقائق التي توصل اليها هذا العلم ، كما استعان بحقائق توصلت اليها علوم أخرى ، غير أن علم اللغة مع ذلك احتفظ باستقلاله ، فلم يتخذ مناهج علم النفس ووسائله مناهج له ووسائل ، كما انه لم يتخذ منهج اي علم آخر ووسائله .

لقد اهتمت المدرسة السلوكية بالسلوك اللغوي ، وكان لها اثر كبير في البحث اللغوي ، في النصف الاول من القرن العشرين ، ولاسيما فيما يتعلق باكتساب اللغة وعلاج امراض الكلام . ولا بد من الإشارة الى ان ثمة فرقا بين بحث اللغويين وبحث علماء النفس في قضايا اللغة . فعلم اللغة يهتم بالعبارات المنطوقة عند صدورها من الجهاز الصوتي للمتحدث ، وفي اثناء مرورها في الهواء ، وعند تلقي المستمع لها بجهازه السمعي . ومعنى هذا ان العمليات العقلية السابقة لصدور العبارات المنطوقة لا تدخل في اطار علم اللغة ، بل هي من موضوعات علم لنفس . واما عندما تصل اللغة الى الجهاز السمعي للمخاطب ، ويقوم بنقلها الى الجهاز العصبي فتحدث عمليات عقلية أخرى يبحثها علم النفس . فالذي يقع في دائرة عمل اللغوي هو تلك الاصوات التي تصدر عن المتحدث وتمضي في شكل موجات صوتية فتصل الى المتلقي (١٤٣) .

(١٤٢) نفسه : ١٣٩ ، ١٤٠ . (١٤٣) علم اللغة العربية : ٤٨ ، ٤٩ .

فمجال الدراسة النفسية للغة يتمثل في كيفية تحويل المتحدث الاستجابات المختلفة الى رموز لغوية . ان هذا التحويل يتطلب عمليات عقلية متعددة تتم في نفس المتكلم ، هو مما يدرسه عالم النفس . واما حين تصل هذه الرموز الى المتلقي فتحدث عمليات عقلية اخرى تترجم خلالها تلك الرموز الى دلالاتها ، فتكون هذه العمليات مما يدخل في اطار علم النفس . ومعنى ذلك ان عمل اللغوي ينحصر في دراسة الرموز الصوتية التي تنتقل عبر الهواء من المتحدث الى المتلقي (١٤٤) .

يقول كمال بشر : « تنتظم عملية الكلام خمس خطوات او احداث متتالية مترابطة يقود بعضها الى بعض حتى تتم الدائرة بين المتكلم والسامع في ابط موقف من المواقف اللغوية . وهذه المراحل او الاحداث - بترتيب نوعها - هي :

- (١) الاحداث النفسية والعمليات العقلية التي تجري في ذهن المتكلم قبل الكلام او اثناءه (كذا) (١٤٥) .
- (٢) عملية اصدار الكلام المتمثل في اصوات ينتجها ذلك الجهاز المسمى جهاز النطق .
- (٣) الموجات والذبذبات الصوتية الواقعة بين فم المتكلم واذن السامع بوصفها ناتجة عن حركات اعضاء الجهاز النطقي وبوصفها اثرا مباشرا من اثار هذه الحركات .
- (٤) العمليات العضوية التي يخضع لها الجهاز السمعي (لدى السامع) والتي وقعت بوصفها رد فعل مباشرا للموجات والذبذبات المنتشرة في الهواء .
- (٥) الاحداث النفسية والعمليات التي تجري في ذهن السامع عند سماعه للكلام واستقباله للموجات والذبذبات الصوتية المنقولة اليه بالهواء » (١٤٦) .

(١٤٤) نفسه : ٥ .

(١٤٥) الصواب : في اثنائه .

(١٤٦) علم اللغة العام ، الاصوات (د . كما بشر) : ٩ .

وأما ما يقع من هذه الخطوات في دائرة اللغوي وما يقع منها في دائرة عالم النفس أو عالم وظائف الاعضاء ، فيقول عنه كمال بشر : « ان الامر قد استقر لدى غالبية المحدثين من اللغويين على اهمال الجانبين الاول والخامس وعدم التعرض لهما تعرضا مباشرا في البحث اللغوي • وقد اعتمدوا في ذلك على مجموعة من الاسباب اوجزها في سببين اثنين : الاول ان هذين الجانبين المشار اليهما جانبان نفسيان عقليان ، واللغوي معنيّ " اول الامر وآخره بالاحداث اللغوية المنطوقة بالفعل لا بمصادرها او آثارها النفسية العقلية • الثاني ان هذه العمليات النفسية العقلية عمليات معقدة وغامضة الى حد تجعل الحكم عليها من وجهة النظر اللغوية حكما تعوزه الدقة والوضوح • هذا بالاضافة الى ان اللغوي - بطبيعة حرفته - ليس مؤهلا للنظر في هذه الاشياء وليس مطالبا بذلك • ان عالم النفس هو الذي يسوغ له ان يتجول في هذه الميادين ، ويكشف لنا عن اسرارها وما يجري فيها » (١٤٧) •

ومما لا يقع ايضا في نطاق عمل اللغوي من الخطوات الخمس المشار اليها هو الخطوة الرابعة التي تتمثل في العمليات العضوية التي تجري في جهاز السمع ، والتي يتم خلالها استقبال الاذن باجزائها المختلفة للموجات الصوتية المنقولة اليها عبر الهواء ، لان اللغويين غير مؤهلين تأهيلا كافيا في فسيولوجيا السمع وسيكولوجيته ، ولان عملية السماع عملية معقدة ايضا تستدعي دراستها علما بجهاز السمع ، واستعمالا لادوات واجهزة ليس في طوق اللغويين الوقوف عليها أو استعمالها (١٤٨) •

مما سبق يتضح « ان اللغة من حيث حقيقتها تتصل بالمكونات الاساسية الاربعة للانسان وهي : الميدان الفيزيقي والميدان العضوي والميدان النفسي والميدان الروحي • واللغة من حيث وظيفتها تحمل هذه الاربعة جميعا على ان تتعاون فيما بينها تعاونا فعالا • وهذه الصفة المعقدة التي تتصف بها الظواهر

(١٤٨) نفسه : ١٤ ، ١٥ •

(١٤٧) نفسه : ٩ ، ١٠ •

اللغوية تجعل التحديد الدقيق للظواهر التي يشتغل بها علم اللغة امرا بالغ الصعوبة» (١٤٩) .

ومهما يكن من امر فقد تقرر لدى الدارسين ان مما يبحثه علم اللغة النفسي (اللغة والفكر) و (التذكر والاسترجاع) و (التخيل) و (تداعي المعاني) و (الادراك) و (اكتساب اللغة) والفروق الفردية في ذلك ، و (العادات النطقية) و (امراض الكلام) وغير ذلك من مسائل علم النفس (١٥٠) .

نموذج من الدراسات اللغوية النفسية

اكتساب اللغة بين المدرستين السلوكية والادراكية :

يعتقد السلوكيون ان اكتساب اللغة يقوم على السماع والمحاكاة ، وتعزيز الصواب بالتصحيح وتكراره . وهم يؤيدون نظريتهم هذه بما يحصل للطفل ، وهو يتلقى لغة ابويه ، ويكتسبها على نحو تدريجي . فهو يسمع كلامهما ، ويحاكيه على نحو مخطوء اولا ، ثم يتدخل الوالدان ، فيصححان كلام وليدهما ، ويقيمان لسانه .

ولكن الادراكيين يردون هذه الدعوى ، ويقيمون الادلة على بطلانها ، ومن ادلتهم هذه ان الطفل يسمع مئات الالفاظ ، ولكنه لا يختار منها الا نماذج

(١٤٩) علم اللغة (السعران) : ٧٣ .

(١٥٠) من حقائق علم اللغة النفسي انه لا توجد علاقة بين اللغة والذكاء ، وان اكتساب اللغة هو تطور بيولوجي فالطفل السوي والطفل المتخلف عقليا يكتسبان اللغة بنفس الطريقة . واكدت التجارب ان سن الرابعة عشرة سن حرجة ، فاذا بلغها الانسان وقد حالت ظروف دون اكتسابه لغة ما فلا أمل له في ان يتعلم أي لغة مستقبلا . ينظر : علم اللغة بين التراث والمعاصرة : ٥٩ .

معينة ، تناسب ادراكه ، وتدفعه الى تعلمها حاجة ملحة يحسها ، او يشعر بها ، ولو كان مجرد السماع يكفي لان يتلقى الطفل اي لفظ او اي تركيب ، لاكتسب لغة ابويه كلها ، في مدى السنوات الست الاولى . ومن ادلتهم ايضا ان التصحيح لا يجدي ، ولا يدفع الطفل الى التخلي عن خطئه اللغوي ، وانما الذي يرده الى النطق الصائب ، هو بلوغه مرحلة معينة من النضج . فالطفل يلفظ الكلمة او التركيب على نحو يخالف ما يسمع ، ثم يحاول الابوان اقامة لسانه ، فلا يفلحان في ذلك . من ذلك انه يسمع من ابويه اداة النفي (لا) فيفترض انها تصلح لنفي الفعل بنوعيه الماضي والمضارع ، كما تصلح لنفي الاسم ، فيشرع بتطبيق فرضيته هذه ، فيقول : (لا أكلت) و (لا نمت) ، ويقول : (الاكل لا طيب) ، فتحاول الام ان تصحح هذه التراكيب ، وتجعل وليدها ينفي الفعل الماضي بـ (ما) وينفي الاسم بكلمة (مو) العامة ، فلا تبلغ من وليدها ما تريد ، ولكن الطفل يتخلى عن خطئه هذا في النفي اذا بلغ سنا معينة ، وأصحاب من النضج ما يكفي للتفريق بين (ما) و (لا) .

ويسمع الطفل كذلك الفاظا كثيرة مجموعة ، ولكنه لا يكتسب من هذه النماذج إلا ما يناسب ادراكه في المرحلة التي يكتسب فيها مفهوم الجمع ، وهو الجمع بالالف والتاء ، فيفترض ان هذه الطريقة في الجمع تنطبق على كل لفظ يريد جمعه ، فيقول : (قلمات) و (كرسيات) و (ماعونات) بدلا من (اقلام) و (كراسي) و (مواعين) ، ويحاول الابوان تصحيح طريقته في الجمع ، ولكنه لا يستجيب للتصحيح ، ويظل كذلك حتى يصيب النضج الذي يكفي للتفريق بين جمعي السلامة والتكسير .

ومن الادلة ايضا على ان المحاكاة والتصحيح لا ينفعان في اكساب الطفل كلمة معينة او تركيبا مخصوصا ، ان الابوين لا يصححان لفظ وليدهما دائما ، وانما قد يستملحان خطأه ، ويعزّزانه ، ولكن الطفل يتخلى عن خطئه ذلك اذا بلغ سنا معينة ، فالطفل يقول مثلا (سيمنة) أو (أرغف) أو (أحمرة)

بدلاً من (سينما) و (أعرف) و (حمرة) ، فيستملح الابوان هذه الاخطاء ، ويجتهدان في ان يبقى طفلهما يلفظ هذه الكلمات على هذا النحو الطريف ، ولكنه يقلع عن اخطائه هذه بمجرد ان يبلغ مرحلة معينة من العمر .

ومن الادلة كذلك على ان اكتساب الطفل لغة ابويه لا يخضع للمحاكاة والتصحيح المستمر ، ان الابوين لا يصححان لغة وليدهما دائماً ، الا اذا كان فيها خطأ معنوي ، فاما اذا اخطأ الطفل في بنية الكلمة او في تركيب الجملة ، فان ابويه لا ينبهانه على خطئه ، ولا يتدخلان في اقامة نطقه . فلو ان الطفل قال مثلاً : (ماما مطبخ) وهي كذلك في المطبخ ، فان الابوين لا يصححان هذا التركيب المضطرب الناقص ، ولكنه اذا قال جملة هذه ، وكانت امه في الحمام ، فانهما ينبهانه على خطئه ، ويقولان له : قل (ماما حمام) اي يصححان المعنى ، ويجاريانه في اللفظ .

بهذه الادلة وسواها ثبت أنصار المدرسة الادراكية ان السماع والمحاكاة هما عاملان محدودا الاثر في اكتساب اللغة ، واما العاملان اللذان لهما الاثر كله فهما نضج الجهاز النطقي للطفل ، ومقدار نموه الادراكي .

فالابوان قد يشتهيان ان يتقن وليدهما نطق بعض الكلمات ، او تأليف بعض الجمل ، ولكنهما لا يبلغان ما يريدان بمجرد سماع وليدهما تلك الكلمات او هذه الجمل ، وانما يبلغ الطفل وحده ذلك ، اذا تهيأ جهازه النطقي ، ومقدار نموه الادراكي . وبهذا تفسر ضآلة معجم الطفل اللغوي بالقياس الى كثرة ما يسمع من الالفاظ والجمل ، اذ انه يختار مما يسمع من نماذج لغوية كثيرة ، ما يحتاج اليه ، وما يعينه على اتقائه نضجه النطقي ، ونموه المعرفي .

فهو مثلاً يسمع كلمة (ساعة) تستعمل بمعنى الآلة المعروفة ، وبمعنى الزمن ، فيكتسب اولاً الكلمة بمعناها الاول المحسوس وهو الآلة ، ولا يكتسبها بمعناها الثاني المجرد وهو الزمن إلا اذا بلغ سناً معينة ، او حقق نضجاً ادراكياً

يعينه على هذا الاكتساب • وهو يسمع أسماء الزمان والمكان ، ولكنه
يكتسب أسماء المكان أولاً ، لأن مفهوم المكان أسهل عليه من مفهوم الزمان ،
فراه يتعلم كلمة (أين) قبل كلمة (متى) ويتعلم (أمام) أو (تحت)
و (فوق) و (هنا) و (هناك) قبل أن يتعلم (أمس) و (غدا) ، بل أنه
لا يفرق بين (أمس) و (غدا) فيستعمل أحدهما مكان الآخر حتى
سن معينة •

وهو كذلك يسمع أسماء الألوان ، ولكنه لا يتعلم منها إلا أسماء
الألوان البارزة ، التي يسعفه فضجه بأدراكها ، فهو يتعلم (أبيض) و (أسود)
و (أحمر) قبل أن يتعلم أسماء الألوان الثانوية المنسوبة إلى مواد يصعب
عليه إدراكها ، مثل (بنيّ) و (رماديّ) و (ذهبيّ) و (فضيّ)
و (بنفسجيّ) المنسوبة إلى (بنّ) و (رماد) و (ذهب) و (فضة)
و (بنفسج) ، وهو لا يتعلم هذه الكلمات إلا إذا تقدمت به السن ، وتهياً
له فضج كاف •

وما يقال عن أسماء الألوان يقال كذلك عن أسماء الأشكال ، فهناك
أشكال يسهل على الطفل تمييزها أكثر من غيرها ، مثل أشكال (مربع)
و (مستطيل) و (مثلث) و (دائرة) وهو لذا يتعلم أسماء هذه الأشكال قبل
أن يتعلم أسماء الأشكال الأخرى •

والفعل المتعدي أكثر تعقيداً من الفعل اللازم ، ولذا يتعلم الطفل (قعد)
قبل (أقعد) و (نام) قبل (نوّم) و (أكل) قبل (أطعم) و (خاف) قبل
(خوّف) أو (أخاف) • وافعل التفضيل أكثر تعقيداً من الصفة ، ولذا يتعلم
الطفل (حلّو) قبل (أحلى) و (كبير) قبل (أكبر) • والنفي أكثر تعقيداً
من الإيجاب أو الإثبات ، ولذا يتعلم الطفل (أكل) قبل (ما أكل) و (حلّو)
قبل (مو حلّو) في اللغة العامية • والمثنى أعقد من الجمع ، لأنه جمع خاص
مقيد ، لا يزيد على اثنين ولا ينقص عنهما ، ولذا يتعلم الطفل (الجمع) قبل
أن يتعلم (المثنى) •

نستخلص مما تقدم ان النمو الادراكي هو الذي يتحكم في اكتساب اللغة ، وان الابوين لا يستطيعان ان يقهرا وليدهما على تعلم مفردات او جمل لا تسمح له سنه باكتسابها ، او لا يعينه فضجه المعرفي على اتقانها . فالطفل يختار لفته : مفردات وتراكيب مما يسمع ، ولا احد يتدخل في ذلك ، او يعينه عليه غير نموه الادراكي ، واستواء جهاز النطق لديه . وهو لذلك حين يلتحق بالمدرسة الابتدائية يكون قد تعلم كثيرا من المفردات ، واثق عددا من القواعد من غير مثوبة او عقوبة . واما في المدرسة فينقلب الوضع تماما ، ويواجه الطفل طريقة في اكتسابه اللغة لا عهد له بها ، فيضطر الى انكارها ، والتمرد عليها . انه يواجه قسرا وقهرا يفرضان عليه ان يتعلم مفردات وتراكيب وقواعد لا تستجيب لها سنه ، ولا تدفعه الى تعلمها حاجته ، فيتعثر في تعلمها ، ثم يكون الاخفاق نصيبه ، ونصيب معلميه . وبهذا تفسر سهولة تعلمه اللغة في محيطه البيتي ، وصعوبة هذا التعلم في المحيط المدرسي ، بمعنى ان البيت يتيح للطفل حرية التعلم ، ولا يستعجل تعلمه لشيء لا يناسب نموه ، ولا يستشعر الحاجة اليه .

ان واضعي المناهج المدرسية يصرون على تجاهل هذه الحقيقة ، فلا يدققون في المادة اللغوية التي يريدون الطفل على تعلمها ، ولا يعرضونها على مقياسين مهمين : الاول ملائمة هذه المادة لنمو الطفل الادراكي ، والثاني مدى حاجة نشاطه اللغوي لهذه المادة .

والنتيجة العملية لهذا التجاهل هو ان يرفض الطالب ما يقدم له من مادة لغوية ، ويضر على عدم تعلمها ، وإن اجهد المعلمون انفسهم في ذلك ، وافرغوا وسعهم فيه . وعلينا ان نقتن لامر مهم ، وهو أن السبب الذي يجعل الطفل يخفق في تعلم مفردة لغوية ، او تركيب نحوي ، لا يرجع الى تهاون او كسل ، وانما يعود الى عدم ملائمة هذه المادة لمداركه ، وهو لذلك جدير بأن يوصف بأنه رافض للتعليم ، او متمرد عليه ، لا ان يوصف بأنه ضعيف او كسلان .

وآية رفض الطلاب تعلم بعض ما يقدم لهم في المدارس من مادة لغوية ، أنهم يتساوون في عدم تعلمها ، لا يختلف في ذلك الذكي منهم ، والمتوسط الذكاء والضعيف . فأكثر هؤلاء يتعلمون المواد غير اللغوية بسهولة ، ويحرزون بها أعلى الدرجات ولكنهم يحاولون تعلم بعض مواد اللغة ثم يعييبهم هذا التعلم ، على كثرة ما يذلون من جهد ، وطول ما ينفقون من وقت ، فيضطربهم الأمر إلى نقض الأيدي من المادة اللغوية ، والأعراض عن تعلمها ، كما كانوا يتعرضون أيام الطفولة الأولى عن تعلم كلمة ، يريدون أهلهم على تعلمها ، وهم ليسوا لها بمستعدين .

(٥)

علم اللغة التطبيقي

إذا استشارت ظاهرة ما إنسانية أو كونية اتبناه العلماء ، توجهوا إليها بالدرس ، تدفعهم إلى ذلك غاية هي (التنظير) ، والكشف عن القوانين التي تحكم تلك الظاهرة . وأما إذا كانت لبحوثهم غاية تقنية أو مادية أو عملية ، فإن ذلك لا يعنيهم بل يتلقفها متخصصون آخرون فيوظفونها في غايات ذات نفع للإنسان ، وهذه الغايات العملية تسمى عادة (العلوم التطبيقية) .

فعلم اللغة التطبيقي إذن هو « تطبيق نتائج المنهج اللغوي وأساليبه الفنية في التحليل والبحث في ميدان غير لغوي »^(١٥١) . ومعنى ذلك أن « علم اللغة بهذا المعنى ما هو إلا وسيلة لغاية معينة ، أكثر منه غاية في نفسه »^(١٥٢) . ومن أهم مجالات علم اللغة التطبيقي :

(١٥١) مدخل إلى علم اللغة (د. محمد حسن عبدالعزيز) : ١٠١ .

(١٥٢) نفسه .

(١) عمل المعجمات :

يعرف المعجم بأنه « المرجع الذي يضم كلمات اللغة مرتبة ترتيباً هجائياً أو معنوياً ، ويثبت لكل كلمة هجاءها ودلالاتها ، وقد يضيف إلى ذلك نطقها واستخدامها ومرادفاتها واشتقاقها وتاريخها وبعض الصور الإيضاحية لها ، أو أحد هذه الجوانب في الأقل » (١٥٣) .

ويعد عمل المعجمات « أهم مجالات علم اللغة التطبيقي لأنها أقربها إلى جمهور الناس غير المتخصص » (١٥٤) . فهو بذلك - أي المعجم - ذو غاية شعبية في جانب من جوانبه . ويقرر بعضهم أن صناعة المعجم « ليست علماً بل هي فن لا يمكن أن يتقيد بالطرائق الموضوعية التي يتبعها علم اللغة الحديث » . وربما لن تصبح صناعة المعجم علماً أبداً ، فهي فن دقيق معقد بالغ الصعوبة » (١٥٥) .

ويفرق الدارسون بين علم المفردات أو المعجم الذي هو فرع من علم اللغة النظري وصناعة المعجم ، إذ « يهتم علم المفردات من حيث الأساس باشتقاق الكلمات وأبنياتها ودلالاتها المعنوية والإعرابية ، والتعابير الاصطلاحية والمترادفات وتعدد المعاني ، أما الصناعة المعجمية فتشمل خطوات أساسية خمساً ، هي : جمع المعلومات والحقائق ، واختيار المداخل ، وترتيبها ترتيباً طبقاً لنظام معين ، وكتابة المواد ، ثم نشر النتائج النهائي ، وهذا النتاج هو المعجم » (١٥٦) . ومن هنا تتضح الطبيعة النظرية لعلم المفردات أو المعجم من حيث البحث في الاشتقاق والصيغ والدلالات ، والطبيعة العملية لصناعة المعجم التي تستفيد من نتائج العلم السابق وغيره من المعارف التي تعين على إنجاز المعجم .

(١٥٣) علم اللغة بين التراث والمعاصرة : ٧٨ .

(١٥٤) نفسه : ١٠٢ .

(١٥٦) نفسه .

(١٥٥) نفسه .

وتتنوع المعجمات تبعا للاهداف المتوخاة من عملها ، واهم انواعها :

(١) المعجم العام ويشمل مفردات اللغة عامة ، دون الاقتصار على جانب دلالي دون آخر •

(٢) المعجمات المفهرسة كالمعجم المفهرس لالفاظ القرآن ، والمعجم المفهرس لالفاظ الحديث ، والمعجم المفهرس لالفاظ الرسائل الديوانية في مصر في العصر الفاطمي لعاطف مذكور وهو جزء من رسالته للدكتوراه •

(٣) المعجمات السياقية وهي تعنى بإيراد السياقات المختلفة للفظة معينة ، نحو لفظة (ضرب) التي يختلف معناها باختلاف السياق الذي ترد فيه : ضرب الجرس ، ضربه بعصا ، ضرب موعدا ، ضرب العملة ، ضرب أخماسا لاسداس ، ضرب في الارض ، ضرب مثلا ، ضرب $6 \times 5 = 30$ •

(٤) المعجمات الاشتقاقية وتتضمن بيان اصل كل كلمة من كلمات المعجم ، وما كان منها أصيلا او دخيلا او مقترضا من لغات اخرى ، وقد تعرف بالمعجمات التأصيلية •

(٥) معجمات المترادفات ، وتعنى بالفروق اللغوية بين المفردات المترادفة مؤيدة بالشواهد ، وهذه تساعد على استعمال اللفظة استعمالا دقيقا •

(٦) معجمات المراحل وتتوخى حصر الالفاظ المستعملة في مرحلة من مراحل حياة اللغة مع بيان دلالتها واصولها ، وهي خطوة لانجاز المعجمات التاريخية •

(٧) معجمات المعاني وهي التي ترتب الالفاظ فيها بحسب معانيها ، فكل معنى تدرج تحته الالفاظ المتعلقة به •

(٨) معجمات النطق وتبين النطق الصحيح للالفاظ ، ويفيد من هذا اللون من المعجمات العاملون في حقل تعليم اللغة ، وحقل الاعلام ، كما يفيد منه المثقفون ومن يريد ان يحقق له منزلة مرموقة بين المتكلمين باللغة •

(٩) معجمات الاصطلاحات وهي تضم مصطلحات علم من العلوم .

(١٠) معجمات الالفاظ الاساسية وهي التي تقدم الالفاظ الاكثر شيوعا في لغة من اللغات ، كالمعجم الذي يضم ألفي كلمة شائعة في الانجليزية ، وضعه مايكل أوستند (١٥٧) . فالمعجمات اذن تنوعت في العصر الحديث تنوعا كبيرا .

(٢) تعليم اللغات :

لقد عظم الاهتمام بتعليم اللغات منذ اوائل هذا القرن ، وتزايد عدد الناس الذين يغادرون اوطانهم الى البلدان الاخرى ، سعيا وراء الرزق ، او طلبا للعلم ، او تحقيقا للمتعة ، فاحتاج هؤلاء الى تعلم لغات البلدان التي يسافرون اليها ، لذا اصبح (تعليم اللغات) من الصناعات الرائجة في كل بلد ، فانشئت له المعاهد ، ووضعت له البرامج ، والمختبرات والالات التي تتوخى تيسير هذا التعليم (١٥٨) .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان هدف علم اللغة يختلف عن اهداف تعليم اللغة ، ذلك ان « علم اللغة يدرس - بطرق مختلفة - ملكة الفرد اللغوية ، ويعمل على تطوير نظريات تفسير السلوك اللغوي ، وعلى اعداد افضل الوسائل لوصف اللغات ، ويجعل الوصف اللغوي الادق والاشمل عملا ميسورا . ولا شيء من هذه الاعمال يتوجه الى البحث في اكفا المخططات ، او افضل الوسائل لتعليم اللغات » (١٥٩) .

وعلى الرغم من ان تعليم اللغة عمل تربوي ، يستعين بعلوم اخرى ، « إن صلة علم اللغة بهذا الميدان اوضح من ان ندل عليها ، اذ من البديهيات لا يستطيع شخص ان يعلم اية لغة دون ان يعرف شيئا ما عن اللغة . . . بل من المسلم

(١٥٧) علم اللغة بين التراث والمعاصرة : ٧٨ وما بعدها .

(١٥٨) مدخل الى علم اللغة (د . محمد حسن عبدالعزيز) : ١٠٩ .

(١٥٩) نفسه .

به ان اللغوي هو الشخص القادر على تأليف قواعد هذه اللغة ، او وضع معجم لها ، وهذا يؤهله لان يضع سياسة تعليم اللغة ، ويحضر نصوصها ، وبدخول علم اللغة التطبيقي في ميدان تعليم اللغات ، افترض انه اذا ما استطاع شخص ان يصف لغة ما وصفا دقيقا ، فانه وحده الذي يكون قادرا على تعليم هذه اللغة « (١٦٠) » .

فاكثر اللغويين اذن يرون « أن الاطلاع على علم اللغة بفروعه المختلفة يعد شيئا ضروريا جدا في تخريج معلم اللغة ، ورفع مستوى ادائه . فمعرفة النظام الصوتي والنحوي للغة الام ، والوقوف على الفرق بينها وبين اللغة المنشود تعلمها هو ضرورة حتمية لمعرفة التطور التاريخي للغة الثانية ، ومن ثم الوقوف على خصائصها الآنية » (١٦١) .

غير أن ثمة بعض اللغويين ينكرون ان تكون بمعلمي اللغات حاجة الى معرفة علم اللغة ، فماكي « يقرر ان عمل اللغوي يقتصر على وضع مناهج للتحليل اللغوي ، اما اذا ادعى ان هذا المنهج او ذاك هو افضل طريق الى تعليم اللغة فانه يتجاوز بهذا مجال عمله ، لان عمله ليس التعليم ، بل اللغة التي هي موضوع علم اللغة » (١٦٢) . بل إن ماكي يقول : « ثمة معلمون بارزون - للغات - ليس لديهم معرفة بعلم اللغة » (١٦٣) .

ومهما يكن فان من يعلم اللغة القومية لابنائها ، او اللغة الاجنبية لغير الناطقين بها يحتاج الى « دراسة علم اللغة الحديث ليزوده بالمعرفة الواسعة والفهم الكامل لطبيعة اللغة - التي يقوم بتعليمها - ولا نظمتها المختلفة ، وذلك يعينه على تحسين ادائه في القيام بالتعليم وفي وضع المناهج الدراسية » (١٦٤) .

(١٦٠) نفسه : ١١١ ، ١١٢ .

(١٦١) علم اللغة بين التراث والمعاصرة : ٧٨ .

(١٦٢) مدخل الى علم اللغة (د. محمد حسن عبدالعزيز) : ١١٢ .

(١٦٣) نفسه : ١١٣ . (١٦٤) علم اللغة بين التراث والمعاصرة : ٧٣ .

ويعد المنهج التقابلي - الذي سيرد الكلام عليه - ألصق مناهج البحث اللغوي بميدان تعليم اللغات الأجنبية خاصة ، وسنعرف عند الحديث عنه ما يقدم من حقائق لا غنى عنها لمن يعلم لغة ما لغير الناطقين بها .

(٦)

سمات الدراسة العلمية للغة

لا بد لكل دراسة - أيا كان موضوعها - من أن تكون علمية ، وهذا يقتضي أن تتوافر فيهما سمات ضرورية ، سنوجزها في هذه الفقرة من البحث . ولئن اختلف العلماء واللغويون في طبيعة العمل الذي يمارسه كل فريق ، إن ثمة اتفاقا عاما على أن علم اللغة يحتاج إلى منهج علمي ، « وأن المنهج الذي سارت عليه العلوم قد يكون منهجا ناجحا ، يقال هذا بغض النظر عما يثار من خلاف في تبعية علم اللغة للعلوم الطبيعية أو للعلوم الاجتماعية ، وبغض النظر عما يدور بين اللغويين أنفسهم من جدل في تحديد المقصود بـ (العلمية) في هذا المجال » (١٦٥) . أما السمات فهي :

(١) الوضوح والدقة :

الوضوح : أن الوضوح شرط مهم في جميع مراحل البحث اللغوي ، هذه المراحل التي تلخص بالجمع والتصنيف والتقعيد . وهو ضروري أيضا حين يختار الباحث النظرية التي يستهدي بها في عمله . ولعل الوضوح يُطلب أكثر ما يُطلب في مرحلة (اختيار المصطلح) . فلا بد للغوي من استخدام المصطلحات الفنية ، وهي مفردات يستخدمها الباحث ليشير بها إلى الحقائق التي يكشف عنها ، كما تشير مفردات الناس في حياتهم العامة إلى الأشياء والاحداث والمعاني المختلفة . وما تمتاز به هذه المصطلحات أنها تدل على أقسام وأصناف .

(١٦٥) مدخل إلى علم اللغة (د . محمد حسن عبدالعزيز) : ٢٥ .

فـالـلـغـوي « لا يدرس مفردات اللغة كلها ، اذ لا سبيل الى حصرها ،
انه لا يدرس مفردات مثل محمد وشجرة ورجل وجبل ... الخ بل يدرس
قسما منها بعينه يفترض انه يضم هذه المفردات وغيرها هو (الاسم) .
واللغوي لا يدرس مفردات مثل قام ويجلس ... الخ بل يدرس قسما بعينه
يفترض انه يضم هذه المفردات هو (الفعل) . وقد يتطلب البحث منه ان يجعل
من كل قسم اقساماً ، فقد يفترض ان قسم (الاسم) مثلاً يضم اقساماً فرعية
هي العكـم والضمير ... الخ وقد يفترض ان قسم (الفعل) مثلاً يضم
اقساماً فرعية هي الماضي والمضارع . الخ وفي التعامل مع الاقسام لا المفردات
اقتصاد في الجهد لا ينهض العمل العلمي الا به » (١٦٦) .

والاصطلاح « ليس مجرد اتفاق بين اهل الصناعة على مدلول خاص
فحسب ، بل انه اتفاق قائم على معايير » (١٦٧) . فتصنيف المفردات في اقسام
ينبغي ان يبنى على اساس اوجه شبه تتحقق في كل ما يدخل في القسم
المفترض ، وتميزه مما عداه ، ولذا اشترط في تعريف المصطلح ان يكون
جامعاً مانعاً (١٦٨) .

وقد ادرك النحاة ذلك فوضعوا لكل قسم من اقسام الكلام علامات
تميزه من غيره من اقسام الكلام ، وما هذه العلامات الا اوجه الشبه التي
تجمع كل قسم ، او قل انها اوجه الشبه في الشكل او الوظيفة او في كليهما
معاً . وقد ابدى النحاة في ذلك مستوى رفيعاً من الدقة . ولعل من المفيد
ان نشير الى علامات الاسم التي جمعها ابن مالك في قوله :

بالجر والتنوين والنـدا والـ ومسند للاسم تمييز حصل (١٦٩)
واما علامات الفعل فقد حصرها ابن مالك في قوله :

-
- (١٦٦) مدخل الى علم اللغة (د . محمد حسن عبدالعزيز) : ٢٦ بتصرف يسير .
(١٦٧) نفسه : ٢٧ .
(١٦٨) نفسه .
(١٦٩) شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك : ١٦/١ تح . محيي الدين عبد الحميد
ط ١٤ ، ١٩٦٤ .

بتا فعلت وأتت ويا افعلي ونون أقْبِلَنَّ فعل ينجلي (١٧٠)

ومما يجدر التنبيه عليه ان مصطلحات القدامى ينبغي الا تصرفنا عن وضع مصطلحات اخرى قد تكون اجدى في دراسة خصائص الكلام العربي ، وهذا ما فعله تمام حسان الذي جعل اقسام الكلام في العربية سبعة بدلا من ثلاثة هي الاسم والصفة والفعل والضمير والظرف والاداة والخالفة « معتمدا في ذلك على معايير ترجع الى المعنى والمبنى كليهما ، فتجنب ما اعترض به على النحاة الذين اعتمدوا على المعنى وحده او المبنى وحده » (١٧١) .

ومما يشترط الباحثون في المصطلح « أن يستخدم للإشارة الى مدلول واحد ، وألا يشار الى المدلول الواحد بغير مصطلح واحد ، ولا شك ان هذا ادعى الى الدقة وادنى الى الوضوح ، واقرب الى القصد في التعبير » (١٧٢) .

والذي ينظر في مصطلحات النحاة القدامى يجد ان هذا الشرط غير متحقق في بعضها ، فمصطلح (المفرد) مثلا يستخدم في احدى دلالاته للإشارة الى الواحد الذي يقابل المثني والجمع ، ويستخدم في دلالة اخرى ليدل على ما ليس مضافا او شبيها بالمضاف في باب (لا) النافية للجنس . و (الحرف) يستخدم عند القدماء للدلالة على قسم من اقسام الكلام ، ويقصد حين الدلالة على (الكلمة) ، ويراد به حين ثلثا الوحدة من وحدات النظام الصوتي او الهجائي في العربية كالباء والقاف والميم . . . وغيرها مما يعرف بحروف المعجم . وليس اللغويون المحدثون بأسعد حظا من أسلافهم ، فقد افتقرت بعض مصطلحاتهم الى الدقة ، والى الاختصار على مدلول واحد . فهؤلاء اللغويون يختلفون في وصف بعض الاصوات التي يحدث عند اتجاها انغلاق مجرى الهواء ثم انفتاحه مرة واحدة ، فابراهيم انيس يطلق على هذه العملية مصطلح

(١٧٠) نفسه : ٢٢/١ .

(١٧١) مدخل الى علم اللغة (محمد حسن عبدالعزيز) : ٣٨ وينظر : اللغفة

العربية معناها ومبناها : ٨٦ ، وما بعدها . (١٧٢) نفسه : ٢٩ .

(الشدة) ، ويطلق على الصوت الناتج عنها مصطلح (شديد) مراعى في ذلك مصطلح سيويه ، وعبدالرحمن أيوب يطلق على العملية مصطلح (انقباس) ، ويسمى صفة الصوت الناتج عنها (انفجار) ، ويسمى الصوت نفسه (انفجاريا) . وكذلك يفعل كما بشر الذي يقول : هذه الاصوات يمكن تسميتها (وقفات) ولكنها باعتبار الانفجار تسمى الاصوات (الانفجارية) (١٧٣) .

ويحدث هذا الخلاف بين المحدثين في وصف الاصوات التي يحصل عند توليدها تضيق في مجرى الهواء ، اذ يؤثر ابراهيم انيس المصطلح القديم (رخو) في حين يميل اغلب المحدثين الى مصطلح (احتكاكي) (١٧٤) . ولا شك في ان اثار المصطلحات القديمة يلقي هوى في قوسنا ، غير ان كثيرا من هذه المصطلحات لاتزال غامضة ، ولا يزال الباحثون يذهبون مذاهب شتى في تفسيرها ، ولعل اوضح مثال على ذلك قولهم : ذلق اللسان وأسله اللسان وطرف اللسان ومستدق طرف اللسان .

الدقة :

ان الدقة غاية كل علم ، وهدف كل باحث يريد ان يعرض الحقائق عرضا علميا لا يشوبه لبس او غموض . وتتفاوت العلوم في تحقيق هذه السمة في بحوثها ، فلعنة عالم الرياضيات لغة تقوم على (الكم) ، وهذه اللغة تساعد على تحقيق قدر كبير من الدقة ، وقد حاول العلماء ان يستعينوا بلغة هذا العلم المبنية على (الكم) في بحوثهم ، فقول الفيزيائي حتى اوائل العشرين

(١٧٣) الاصوات اللفوية : ٢٣ ، ومحاضرات في اللغة (عبدالرحمن ايوب) : ٩٤ .
وعلم اللغة العام الاصوات ١٠٠ .

(١٧٤) الاصوات اللفوية : ٢٣ ، ٢٤ .

الحديث : ان الحديد ساخن ، لا يبلغ من الدقة مبلغ قول الفيزيائيين الان :
ان درجة الحديد هي (٣٥٠ درجة مئوية) .

وقد نحا علم اللغة هذا المنحى في مجال من مجالاته ، « فلم يعد مقبولا
في علم الاصوات ان يتحدث عن علو الصوت او درجته دون استخدام لغة
الكم ، فنحدد مثلا الطاقة التي تنتج الصوت ، والطاقة الاكبر تنتج سبعة
ذبذبة اكبر ، وصوتا اعلى ، وتكون درجة الصوت اعلى كلما كانت الذبذبات
اسرع وعددها في الثانية اكثر ، ويحدد العلماء كل ذلك بدقة بالغة » (١٧٥) .

غير ان في اللغة جوانب يصعب ان تستخدم في وصفها لغة (الكم) ، ومن
هذه الجوانب جانب (المعنى) الذي مازال علماء اللغة مختلفين في عدة موضوعا
صالحا للدراسة العلمية .

ومما يرتبط بلغة العلم (التجريد) وهو صفة ملازمة للعلم ، ويقصد به
عدم ارادة اشياء محددة ، فحين يقول عالم الرياضيات مثلا ان $(٥ = ٢ + ٣)$
لا يكون المقصود من هذا (ثلاثة اشياء محددة) فقد يراد بها بشر او فاكهة
او كتب . ويتجلى (التجريد) في النحو العربي ، بل ان هذا العلم يكون على
درجة عالية من التجريد في استخدامه الحالات الاعرابية (الرفع والنصب
والجر والجزم) ، فحين يقول النحوي :

الشمس : مبتدأ مرفوع .

طالعة : خبر مرفوع .

فانه يعني بـ (الرفع) حالة تجريدية صرفا ، ليست خاصة بالشمس او بكلمة
(طالعة) وحدها ، بل هي صفة تستحقها اية كلمة يمكن ان تشغل هذا
الموقع (١٧٦) .

(١٧٥) مدخل الى علم اللغة (د. محمد حسن عبدالعزيز) : ٣٨ .

(١٧٦) نفسه : ٣٩ .

(٢) التنظيم :

يعد التنظيم من اهم سمات التفكير العلمي ، فالباحث لا يرسل افكاره ارسالا وانما يحاول ان يرتبها وينظمها ، ويبنى بعضها على بعض ، باذلا في ذلك مجهودا هدفه تحقيق افضل تنظيم ممكن للطريقة التي يفكر بها (١٧٧) .
ودارس اللغة كذلك ، لا بد له من تبني منهج منظم يساعده على اكتشاف النظام الذي يحكم اللغة ، ووضع النظرية التي تفسر الطريقة التي تعمل بها .
ومن مظاهر التنظيم في الدراسة العلمية للغة :

(أ) ان يحدد الباحث الموضوع الذي يتخذه ميدانا له ، وموضوع الباحث اللغوي هو (اللغة) التي اجمع اللغويون على انها نظام من الرموز المنطوقة المكتسبة ، تستخدمه جماعة من الناس لتحقيق الاتصال والتعاون بينها . وهذا يعني ان اللغويين متفقون على ان دراسة العمليات السابقة لعملية اتاج الكلام او التالية لاستقباله خارج نطاق البحث اللغوي (١٧٨) .

(ب) ان تقوم الدراسة على الملاحظة المباشرة : وتقتضي هذه المرحلة من الدراسة ان يشرع الباحث بملاحظة منظمة للظواهر المراد بحثها ، وهذا يستدعي عملية اتقاء واختيار للوقائع التي تعني الباحث ، والتي تنتظمها اوجه شبه واتفاق . اما الوسائل التي يستخدمها الباحث في ملاحظة الظواهر المدروسة فكثيرة ، منها السماع او استخدام الاجهزة (١٧٩) في تسجيل المادة او في تحليلها وفي تعرف خصائصها .

(ج) وبعد ان يستكمل الباحث ملاحظاته للظواهر المدروسة ، ويرتب

(١٧٧) التفكير العلمي (فؤاد زكريا) : ٢٧ .

(١٧٨) مدخل الى علم اللغة (د. محمد حسن عبدالعزيز) : ٤١ .

(١٧٩) دراسة الصوت اللغوي (احمد مختار) : ٣٣-٤٤ للتعريف بهذه الاجهزة ، ط ١ ، ١٩٧٦ .

العلاقات الداخلية التي تربط بعضها ببعض ، ويستخلص اوجه الاتفاق والاختلاف ، يضع الفروض التي تفسر هذه الظواهر . والفرض هو التنبؤ بعلاقة بين متغيرين كأن يقال : اذا وقع (أ) وقع (ب) . ومن هذه الفروض الأولية في اللغة قولهم : ينصب الفعل المضارع اذا سبق باداة نصب . ومن الفروض الأكثر تعقيدا قولهم : (التغيرات الصوتية مطردة) ، (اللغة ظاهرة انسانية) ، (العربية الفصحى كانت لهجة قریش نواة لها) وغير ذلك (١٨٠) .

ومن المفيد التنبيه هنا على ان بعض الفروض ينبغي تلقيها بشيء من الحذر ، بل يلزم اختبارها للتثبت من صلاحها لتفسير الظاهرة المدروسة . فالنحاة القدامى قالوا : ان الفعل المضارع ينصب بـ (ان) مضمرة وجوبا بعد (حتى) و (لام التعليل) ، وقد سوغ سيبويه هذا الفرض بقوله : فانما انتصب هذا بـ (ان) وان هنا مضمرة ، ولو لم تضرها لكان الكلام محالا ، لان اللام وحتى انما يعملان في الاسماء فيجران ، وليستا من الحروف التي تضاف الى الافعال (١٨١) .

والحق ان بالامكان رفض هذا الفرض ، ووضع فرض آخر لتفسير هذه الظاهرة اذ يقال : ان اللام وحتى قد يجران اذا سبقا اسما ، وقد ينصبان اذا سبقا فعلا مضارعا .

(د) اما المرحلة الاخيرة فتكون بتحويل الفروض الى قواعد او قوانين ، ثم تصبح القواعد سلوكا لغويا يمكن التنبؤ به . « وليس المقصود بوضع القواعد في العلوم بخاصة ان تكون كلية تشمل كل الافراد ، وينبغي ألا ينظر الى القاعدة في العلوم اللغوية كما ينظر الى القانون في العلوم الطبيعية مثلا » (١٨٢) . فعندما يجد الباحث شيئا يختلف عن القاعدة ، ينبغي الا يتسرع

(١٨٠) مدخل الى علم اللغة (د. محمد حسن عبدالعزيز) : ٤٣ .

(١٨١) الكتاب : ٦٤ ، ٥/٣ .

(١٨٢) مدخل الى علم اللغة (د. محمد حسن عبدالعزيز) : ٤٥ .

باتهامها ، بل ان عليه ان ينحّي هذه المخالف عن طريقه ، ويبحث عن تفسير له ، او يدرسه ضمن اطار آخر ، يضم اليه ما يخرج عن السلوك اللغوي المطرد . فالقاعدة لا بد ان تتصف بالعموم ، وليس من الضروري ان تتصف بالشمول (١٨٣) .

(٣) الموضوعية :

وهذه ايضا سمة اساسية في التفكير العلمي ، والمراد بها ان القضايا التي تبحث ، والنتائج التي تستنبط ، يجب ان تكون قابلة للملاحظة والتجربة . ومعنى ذلك ان الباحث اللغوي لا يعتمد في الملاحظة وفي وضع الفروض على شعوره او معتقده او حدسه . ومن هنا اخرج اللغويون المحدثون من نطاق عملهم كثيرا من الموضوعات التي كانت الفروض الموضوعية لمعالجتها ، والنتائج التي انتهي اليها في تلك الموضوعات غير علمية ، او لا سبيل للبرهنة عليها . لقد قالوا مثلا : (اللغة العبرية اقدم اللغات) وهذا فرض تتعذر اقامة الدليل عليه ، لان ثمة فروضا اخرى تدفعه ، فهناك من يقول : (اللغة العربية اقدم اللغات) ، ومن يقول : (اللغة الالمانية اقدم اللغات) .

ومثل ذلك الحديث عن افضل اللغات ، او اغنى اللغات او اكمل اللغات . فابن فارس يقول : ان اللغة العربية خصّت بالبيان ، وان غيرها من اللغات قاصرة عنها ، او واقعة دونها في هذه المزية ، فلو احتجت الى التعبير بها عن شيء لوجدت عشرات من الالفاظ تدل عليه ، ولو رمت ذلك بغيرها لما امكنك ذلك (١٨٤) . ووقع في مثل هذا جالينوس في حديثه عن اليوفانية ، فهي عنده افضل اللغات ، وان غيرها من اللغات تشبه فباح الكلاب ، او تقيق الضفادع (١٨٥) .

(١٨٣) اللغة بين المعيارية والوصفية (تمام حسان) : ١٦٥ ، الدار البيضاء ١٩٨٠

(١٨٤) الصاحبى : ٤٠ ، ٤١ .

(١٨٥) الاحكام في اصول الاحكام (ابن حزم) : ٣٩/١ .

(٤) الشمول واليقين :

الشمول : ينبغي ان تكون المعرفة العلمية معرفة شاملة ، تنتظم جميع امثلة الظاهرة المدروسة ، كما ان شمولية العلم لا تسري على الظواهر المدروسة وحدها بل على العقول التي تتلقى العلم ايضا ، فالحقيقة تفرض نفسها على الجميع ، ولا مجال فيها للخلاف بين فرد وآخر (١٨٦) . غير ان ثمة ما يجب التنبيه عليه ، هو ان القاعدة في العلوم اللغوية - وان كانت عامة - تنتظم اغلب الافراد لا كلهم ، واما ما يخرج عن هذه القاعدة فينبغي فرزها ليعالج في اطار بحث آخر ، او طبقا لتفسير جديد .

ان عالم اللغة لا يتعامل مع الصور الفردية ، او الصور غير العامة ، وانما ينظر في الظواهر المشتركة ، او ما يسمى (اللغة) . اما الصور الفردية التي تنضوي تحت (الكلام) وهو مصطلح سوسير ، فلا تصلح للدراسة العلمية ، لان هذه الصور ابعد ما تكون عن التجانس او التوحد (١٨٧) .

اليقين : ان سبب اليقين في العلم هو ان الحقائق فيه قائمة على الادلة ، ومثبتة بالبراهين التي لا يمكن تفنيدها . وقبل ان يصل العالم الى هذا اليقين الموضوعي ، لابد له من هدم كل انواع اليقين الذاتي ، التي غرستها في عقول الناس اوهام او تحيزات وعوامل غير موضوعية .

غير ان اليقين الموضوعي الذي يسعى اليه العالم اللغوي لا يعني انه يقين ثابت او نهائي ، فاذا صح ان يقنع هذا اليقين الناس في مرحلة علمية معينة ، وفي عصر من العصور ، فانه لا يمكن ان يتحول الى حقيقة مطلقة تفرض نفسها على الناس في كل العصور ، اذ ان ذلك ينافي طبيعة العلم .

وقد يكون من المفيد ان نشير هنا الى ان علماء العربية القدامى قد انزلوا الى شيء من هذا ، فحاولوا ان يفرضوا حقائق معينة على العصور

(١٨٦) التفكير العلمي : ٤٦ .

(١٨٧) مدخل الى علم اللغة (د. محمد حسن عبدالعزيز) : ٦١ .

كافة ، فكان صنيعهم هذا عقبة حالت دون الانطلاق في البحث اللغوي • ومن هذه الحقائق ما قرروه من انه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة العربية^(١٨٨) • لقد تمسك اصحاب المعجمات بهذه الحقيقة ، ووقفوا في مروياتهم عند المدة التي حددها القدماء للاستشهاد • ولو ان اصحاب المعجمات تجاوزوا ما يسمى عصور الاحتجاج ، وجعلوا معجماتهم تمثل اللغة على النحو الذي انتهت اليه في عصورهم ، لو ان هذا حصل لتغير تاريخ العربية ، ولما كان المعجم القديم منذ ظهور كتاب (العين) حتى ظهور المعجمات الحديثة صورة لبيئة الانسان العربي في وقت محدد ، اننا لا نستطيع القول ان المعجم العربي قد مثل عصور العربية كافة ، او كان صورة لحياة العرب بعد عصور الاحتجاج ، بل لا يمكن زعم انه يصور حياتنا المعاصرة^(١٨٩) •

ومما بات حقائق مطلقة او نهائية في النحو العربي ، تلك القواعد التي استنتجها سيويه ، وتتابع النحاة بعده على التمسك بها ، فاذا بدا لنحوي معاصر ان يفترض غير ما افترض هؤلاء ، او ينفذ الى قاعدة جديدة ، اعرض عنها المشايخون للقديم « كأن سيويه سلطة لا تناقش ، وكأن ابن مالك وشراحه حجة لا ترد »^(١٩٠) •

إن رأي القدماء ينبغي ألا يكون الصواب المطلق ، وان لنا ان نناقشه ، وأن نستعيض منه بالرأي الحديث ، اذا تبين لنا انه الحق ، ففي القديم ما هو صالح ، وفيه ما يمكن رده ، وقل مثل ذلك عن الحديث ، فليس كل الحديث صالحا ، ففيه صالح وفاسد •

(١٨٨) الاقتراح (السيوطي) : ٧٠ •

(١٨٩) مدخل الى علم اللغة (محمد حسن عبدالعزيز) : ٦٢ •

(١٩٠) نفسه •

القسم الثاني

مناهج البحث اللغوي

تمهيد

تاريخ الدراسات اللغوية القديمة

ارتبطت اللغة بالانسان ، حتى انه لا يمكن تصور احدهما دون الآخر ، ومن هنا اولى الانسان اللغة منذ اقدم العصور اهتماما كبيرا ، ولا سيما في المجتمعات التي ارتبطت اللغة فيها بالدين ، كالمجتمع اليوناني والروماني والهندي والعربي^(١) .

والفرق بين الدراسات اللغوية القديمة والحديثة ، انما يرجع الى طريقة تناول ، وأسلوب المعالجة . ومعنى ذلك ان للدراسات القديمة فائدة كبيرة ، وما زالت تمدنا بما نعتمد عليه في بحوثنا اللغوية^(٢) . وليس لدينا دليل على اهتمام الانسان باللغة قبل اختراع الكتابة ، واما في عصور التدوين فقد كشفت الحفريات في بلاد سومر والفراعنة عن وجود معجمات ومترجمين . كما كشف الاوريون في القرن الثامن عشر (١٧٨٦م) عن كتاب في قواعد السنسكريتية ألفه بانيني في الهند في القرن الرابع قبل الميلاد^(٣) ، بهدف ديني واضح ،

(١) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : ٩٥ .

(٢) نفسه .

(٣) سمى بانيني كتابه هذا (المثنى) لانه في ثمانية اجزاء ضمت اربعة الاف قاعدة ، استوعبت اللغة السنسكريتية ، وبلغت في دقتها وايجازها مبلغ المعادلات ، وقد ظهرت اول ترجمة لكتاب بانيني بين عامي ١٨١٥-١٨٤٠ . (مدخل الى علم اللغة - محمد حسن عبدالعزيز - : ٢٤٨ ، ٢٥١) .

هو الرغبة في التمكن من قراءة (الفيدا) ، وهو كتاب مقدس ، ووصف فيه اصوات تلك اللغة وتراكيبها الصرفية والنحوية وصفا دقيقا ، حتى يمكن القول ان بانيني هو اعظم لغوي وصّاف في العالم القديم^(٤) . وبه تأثر الاوريون في العصر الحديث ، وعنه اخذوا ما يسمى المنهج الوصفي ، بل « لا تزال اراء بانيني اللغوي الهندي القديم مقبولة لدى الغربيين المحدثين ، حتى ان بعض المصطلحات الفنية التي وضعها لعدد من الظواهر اللغوية لا يزال مستعملا حتى الان »^(٥) .

وقد ساعد اكتشاف السنسكريتية على معرفة علاقة هذه اللغة باللغة الايرانية ، واللغات الاوربية ، ودفع الى الامام الدراسات المقارنة التي ميزت القرن التاسع عشر والتي اسفرت عن تقسيم اللغات في العالم على اسر ، تعود كل منها الى اصل واحد .

وأما الاغريق والرومان فعلى الرغم من اهتمامهم بالبحث اللغوي لا نجد لديهم دراسة وصفية واحدة من نوع كتاب بانيني ومستواه ، ويرجع ذلك الى اهتمام الاغريق بالفلسفة ، والنظر في اللغة في ضوءها . لقد كانت بحوثهم اللغوية تتسم بالعموم والتجريد والتأمل العقلي اكثر مما تتسم بالوصف ، والانصراف الى وضع القواعد .

لقد درس اليونان القدماء لغتهم فغلبت الفلسفة على تلك الدراسة ، وتأثروا بالمنهج العقلي الذي كان سائدا بينهم ، فكان عملهم « تجريديا فلسفيا يقوم على المنطق الارسطي ، ومن ثم كانت الموضوعات التي تجذب اهتمامهم تدور حول البحث في نشأة اللغة والعلاقة بين اللغة والفكر ، والعلاقة بين الالفاظ والاشياء »^(٦) .

(٤) علم اللغة (السعران) : ٣١٨ .

(٥) فقه اللغة في الكتب العربية : ١٢ .

(٦) فقه اللغة في الكتب العربية : ١٢ .

لقد تحدث افلاطون (٣٤٧ ق م) عن نشأة اللغة ، ورأى انها توقيفية ،
وان صلة اللفظ بمدلوله صلة طبيعية ، اما ارسطوا فقد ذهب الى ان اللغة
اصطلاحية عرفية ، وان اصواتها ورموزها لا علاقة طبيعية او مباشرة لها
بالمعاني^(٧) .

وحين وضع اليونان قواعد تفصيلية للغتهم ، كانوا قد تأخروا في ذلك
الى القرن الثاني قبل الميلاد ، وتميزت قواعدهم بأنها لم تتناول اللغة المستعملة ،
وانما وضعت للغة الفصحى المدونة . وهذا يعني « انهم لم يضعوا قواعد
للغة التي كان يستعملها الناس في عصرهم^(٨) » ، بل وضعوا قواعد او معايير
لما يجب ان تكون عليه اللغة ، وهذه ما تسمى (القواعد المعيارية) التي لم
تتغير بتعاقب القرون ، بحيث اصبحت في النهاية تشير الى لغة غير موجودة
ولا مستعملة^(٩) .

(٧) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : ٩٦ .

(٨) يبدو ان تطورا كبيرا حصل في اللغة اليونانية وقت تدوين قواعدها ،
فاللياذة والاوديسا كانتا مكتوبتين بلغة يونانية قديمة كانت غير معروفة
وقت كبار النحاة ، ولذا يقال ان القواعد وضعت لتلك اللغة المدونة التي
عدت المثل الاعلى للغة الكتابة . ويقال ايضا ان الدرس اللغوي اليوناني
لم يكن نتيجة الملاحظة الموضوعية الخالصة ، بل نتيجة الرغبة في التوفيق
بين اللغة والمنطق من جهة ووضع القواعد بصورة تيسر تعليم تلك
اللغة القديمة غير المستعملة من جهة اخرى ، فجاء نحوهم منطقيا تربويا .
(علم اللغة - السعران - ٣٢١ ، ٣٢٢) . وقد كان لمدرسة الاسكندرية
في القرن الثالث قبل الميلاد اثرها في حفظ الاثار الادبية القديمة ، فكانت
اول من طبق (الفيلولوجي) ، فانصب عملها على شرح نصوص هوميروس
وسواه من كبار الشعراء وتفسير مفرداتها ، ومعنى ذلك ان لغويي
الاسكندرية كانوا يتوخون في عملهم اعداد النصوص القديمة وشرحها
حتى تكون مفهومة لدى عامة الدارسين . (علم اللغة - السعران - ٣٢١ ،
٣٢٢ ، وفقه اللغة في الكتب العربية : ١٢ ، ١٣) .

(٩) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : ٩٧ .

ومما تجد الإشارة إليه ان قدماء اليونان لم يدرسوا سوى لغتهم ، وانهم سلموا بان بنية تلك اللغة « تجسّم الصور العامة للتفكير الانساني ، او ربما تجسّم الصور العامة للنظام الكوني بأسره . فملاحظاتهم النحوية محدودة بلغتهم ومقررة في صورة فلسفية »^(١٠) . ونتيجة لاعتقادهم بمنطقية قواعد لغتهم ، رأوا ان تلك القواعد « عامة يمكن ان تطبق على اية لغة اخرى ، وهذا ما حصل بالفعل في اوربا بالنسبة للغات الحديثة حتى سنوات قليلة خلت ، فقد طبقت عليها جميعا قواعد اللغتين اليونانية واللاتينية بغض النظر عن الاختلافات الواضحة بين تلك اللغات الحديثة وهاتين اللغتين »^(١١) .

واما الرومان فقد كانوا تلامذة لليونان في الدراسات اللغوية ، فلم تظهر لهم جهود في هذا الميدان إلا في القرن الثاني قبل الميلاد ، وكان من جهودهم تلك انهم وضعوا للغة اللاتينية نحوا على غرار النحو اليوناني « ومعنى ذلك انهم وضعوا لغتهم في الاطارات التي تصورها اليونان للغتهم اليونانية ، وهذا خطأ منهجي كبير »^(١٢) . غير ان الرومان لم يبلغوا « من الدقة في وصف لغتهم ما بلغه اليونان في وصف اليونانية ، بل ما بلغه الهنود في وصف السنسكريتية »^(١٣) .

وفي العصور الوسطى لم تشهد الدراسات اللغوية جديدا ، بل كان الامر الذي شغل اللغويين هو تعليم اللغة اللاتينية ، التي كانت تستعمل في العبادة وفي اوجه الثقافة الاخرى ، على الرغم من ان « احدا لم يكن يتحدث بها في حياته اليومية ، بمن في ذلك رجال الدين الذين كانوا يستخدمونها فقط في الصلوات والشعائر الدينية الاخرى »^(١٤) . اما قواعد اللغة اللاتينية التي

(١٠) علم اللغة (السعران) : ٣٢١ .

(١١) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : ٩٧ .

(١٢) علم اللغة (السعران) : ٣٢٣ .

(١٣) نفسه .

(١٤) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : ٩٩ .

وضعها القدماء فقد نظمت شعرا في القرن الثالث عشر ، وعرضت بصورة اكثر اتقانا ، لكن علماء العصور الوسطى لم يضيفوا اليها اي شيء جديد^(١٥) .

وحين بدأ عصر النهضة الاوربية ، اخذت الشعوب المختلفة تهتم بلغاتها الخاصة حتى تلك التي كانت مجرد لهجات متفرعة عن اللغة اللاتينية ، ولكنهم لم يدرسوها في ذاتها وانما وضعوا لها قواعد مشابهة لقواعد اللغة اللاتينية ، على الرغم من ابتعاد تلك اللغات الجديدة عن اللغة الام ابتعادا قليلا او كثيرا^(١٦) .

ومن اتجاهات البحث اللغوي في عصر النهضة ، عودة البحث في نشأة اللغة ، « ففي القرن الثامن عشر تبنى روسو وكوندياك الفرنسيان وهردر الاماني نظرية الاصطلاحية في نشأة اللغة ، ودافعوا عنها دفاعا حارا »^(١٧) . وفي القرن التاسع عشر تحول البحث اللغوي في اوربا الى وجهة جديدة ، وقد كان سبب هذا التحول اكتشاف وليم جونز القاضي الانجليزي في المحكمة العليا بالبنغال عام ١٧٨٦م اللغة السنسكريتية ، واعلانه ان اليونانية واللاتينية والسنسكريتية تنسب الى فصيلة لغوية واحدة . وكان قد سبقه الى هذا توماس ستيفنس ، وهو انكليزي ايضا ، اذ لاحظ عام ١٦١٩م ان بنية اللغات الهندية الكثيرة ذات صلة باليونانية واللاتينية^(١٨) . كما سبقه ايضا الاب الفرنسي كوردو الذي اعلن سنة ١٧٦٢ الصلة بين هذه اللغات ، ولكن عمله لم ينشر إلا بعد عشرين عاما^(١٩) .

لقد حفز اعلان وليم جونز اهتمام اللغويين الى الدراسة المقارنة ، فسادت اوربا في القرن التاسع عشر موجة من المقارنات اللغوية ، اسفرت عن تقسيم

(١٥) علم اللغة (السعران) : ٣٢٤ .

(١٦) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : ٩٩ .

(١٧) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : ٩٩ ، ١٠٠ .

(١٨) علم اللغة (السعران) : ٣٣٠ .

(١٩) فقه اللغة في الكتب العربية : ١٣ ، ١٤ .

اللغات في العالم على اسر ، اشهرها اسرتان كبيرتان هما الهندية الاوربية
والسامية .

وكان للمدرسة الالمانية فضل قيادة الدرس اللغوي في هذا القرن ، وهو
درس — كما تقدم — قد اتخذ طابع (التاريخ اللغوي) و (المقارنات اللغوية) ،
ومن اشهر اللغويين الالمان الذين عُنوا في هذا القرن بالدرس اللغوي التاريخي
والمقارن فرانز بوب الذي اصدر عام ١٨١٦ كتاباً عنوانه (نظام التصريف في
اللغة السنسكريتية مقارناً بكل من اليونانية واللاتينية والفارسية والجرمانية)
وأصدر عام ١٨٣٣م كتاباً آخر عنوانه (النحو المقارن للسنسكريتية والسندية
والارمنية واليونانية واللاتينية واللثوانية والسلافية القديمة والقوطية
والالمانية) .

وجاكوب جريم (١٨٦٣م) الذي اطلقوا عليه (خالق النحو المقارن) ،
وثالثهم بوت (١٨٨٧م) الذي اسس النحو الهندو أوروبي المقارن . وهؤلاء الاعلام
الثلاثة الذين سُمِّوا (الخالقين الثلاثة) قد خطوا بالدراسات اللغوية
خطوات كبيرة . (٢٠)

يزاد على هؤلاء الثلاثة شليخر وماكس مولر وغيرهما ممن تصدروا
الدرس اللغوي في القرن التاسع عشر ، وطوروا جهود المدرسة الالمانية في مجال
(النحو المقارن) و (النحو التاريخي) و (دراسة تاريخ الكلمة) (٢١) .

غير ان الذي يلاحظُ على الدرس اللغوي المقارن في القرن التاسع
عشر « ان دراسة اللغة السنسكريتية كانت اساس البحث اللغوي ، وكان
دارس اللغة يلجأ في شرحه لاية ظاهرة لغوية اوربية الى السنسكريتية
دائماً » (٢٢) . حتى ان ماكس مولر قال : « ان السنسكريتية هي الاساس

(٢٠) علم اللغة (السمران) : ٣٣٦ .

(٢١) فقه اللغة في الكتب العربية : ١٥ .

(٢٢) نفسه : ١٦ .

الوحيد لفقه اللغة المقارن ، وسوف تبقى المرشد الوحيد الصحيح لهذا العلم ، وعالم فقه اللغة المقارن الذي لا يعرف السنسكريتية شأنه شأن عالم الفلك الذي لا يعرف الرياضيات » (٢٣) .

وقد ادت سيطرة السنسكريتية على ميدان الدراسة اللغوية في اوربا في هذه الحقبة الى انحراف دراسة اللغة عن الطريق الصحيح ، والى تدمير بعض اللغويين ، فقد قال إليس وهو من جيل تال لمولر : « في أيامنا هذه جاء كشف السنسكريتية وبدأ فقه اللغة ، ولكنه ، للأسف ، بدأ من النهاية غير الصحيحة ، وذلك ان البدء بالسنسكريتية كان كأنه وصل لظواهر الحياة بشيء ميت ، كما انه من الخطأ بدء دراسة علم الحيوان بدراسة علم الحفريات ، اي بدء دراسة علاقات الحياة بعظام الموتى » (٢٤) .

ولابد من الإشارة هنا الى ان لغويي القرن التاسع عشر في اوربا وامريكا قد اتيح لهم بفضل اكتشاف اللغة السنسكريتية الاطلاع « على التراث الرائع النحوي والصوتي الذي خلفه العلماء الهنود ، وقد ترجم جانب كبير من هذا التراث الى الانكليزية والفرنسية والالمانية » (٢٥) . ومن هنا ذهب اكثر مؤرخي الدراسات اللغوية الحديثة « الى ان اعمال النحاة السنسكريتيين هي التي اوقفت النحاة الغربيين على اقدمهم . فقد اطلع علماء الغرب على ان نحو اللغة السنسكريتية لا يقوم على اسس من الفلسفة والمنطق كنحو اليونان لليونانية ، ونحو تلامذتهم المخلصين الرومان لللاتينية وكأنحاءهم هم انفسهم للغاتهم الاوربية ، هذه الانحاء التي تأثروا فيها بالنحو اللاتيني خاصة » (٢٦) .

ومما يذكر ايضا ان بحوث المدرسة الالمانية في القرن التاسع عشر قد ادت بعلماء هذه المدرسة الى التفريق بين امرين كانا يختلطان اكبر الاختلاط ، وهما ما يعرف بـ (Philology) & (Lingustics) ، فاستبان لهؤ ان

(٢٣) نفسه ، وينظر مصدره . (٢٤) نفسه ، وينظر مصدره .

(٢٥) علم اللغة (السمران) : ٣٣٢ . (٢٦) نفسه : ٣٣٣ .

المقصود بالاول الذي ترجم الى (فقه اللغة) هو دراسة الوثائق المكتوبة ولغتها . وأما الثاني (علم اللغة) فهو الذي يتخذ موضوعا له دراسة اللغة من حيث هي ، دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها ، كما قال سوسير فيما بعد ، سواء اكانت هذه اللغة مكتوبة ام غير مكتوبة (٢٧) . وبتعبير آخر ان فقه اللغة يدرس اللغة بوصفها وسيلة لغاية اخرى كدراسة ثقافة امة وادبها وحضارتها ، اما علم اللغة فيدرس اللغة من اجل ذاتها . وقد حذا الاوربيون حذو الالمان في التفريق بين المصطلحين .

وما إن أظل القرن العشرون حتى تغير وجه الدرس اللغوي ، واتخذ له مسارا آخر ، وكان للغوي السويسري دي سوسير الفضل الكبير في هذا التغير ، فقد طلع على معاصريه بافكار واتجاهات لغوية جديدة ، صرفتهم عن الدراسات التاريخية والمقارنة ، وجذبت اهتمامهم الى دراسة لغاتهم الحية ، ليصفوا اصواتها ومفرداتها وتراكيبها ، فيستنبطوا قواعدها وقوانينها .

ومن اجل هذا التغير الذي قاده سوسير ، وصف بانه رائد الدرس اللغوي الحديث ، وانه علامة كبرى في تاريخ هذا الدرس . فقد نشر له كتاب عام ١٩١٦ ، اي بعد وفاته بثلاث سنوات عنوانه (دروس في علم اللغة العام) ، جمعت فيه محاضراته في ذلك العلم كما سجلها طلابه ، فكان لهذا الكتاب من الاثر في البحث اللغوي في النصف الاول من القرن العشرين ما لم يكن لاي كتاب آخر (٢٨) .

ولكي نظهر النقلة الكبرى التي حدثت في الدرس اللغوي على يدي سوسير ، لابد من اجمال خصائص الدرس التقليدي الذي كان سائدا قبل ان يشرع بالتبشير بافكاره اللغوية ، وهذه الخصائص تتلخص فيما يأتي (٢٩) :

(٢٧) علم اللغة (السعران) : ٣٣٧ .

(٢٨) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : ١٠٢ .

(٢٩) نفسه : ١٠٢ وما بعدها .

(١) لقد اتبع اللغويون الاوريون في دراسة لغاتهم الحية منهج اليونان والرومان في دراستهم اللغتين اليونانية واللاتينية ، وصاغوا لهذه اللغات قواعد وقوانين لم تكن مستخلصة منها ، بل كانت قائمة على مقولات الاغريق والرومان التي طبقت على اللغتين اليونانية واللاتينية ، وقائمة على مقولات ترجع الى القرن الثامن عشر والتاسع عشر .

(٢) لم تكن دراسات اللغويين الاوريين للغاتهم قائمة على اللغات المنطوقة ، لذلك اهملت هذه الدراسات العناية بالاصوات التي هي عنصر مهم من عناصر اللغة ، ولم يلتفت الى هذا العنصر في اللغات الاوربية إلا في ظل افكار سوسير ، او إلا في ظل منهجه الجديد الذي عرف بالمنهج الوصفي .

ان جميع كتب القواعد التقليدية للغات الاوربية قامت على اللغة المكتوبة ، فخلت لذلك من الدراسات الصوتية التي لا تزدهر الا اذا اهتم الباحثون باللغة المنطوقة ، وواضح ان هذا الاهتمام كان احدى ثمار المنهج الوصفي الذي دعا اليه سوسير .

(٣) ان الدراسات التقليدية للغات الاوربية التي قامت على مقولات الاغريق والرومان لم تراع ان معظم هذه اللغات غير معربة ، فلا يصح لهذا ان تستند الى مقولات مستخلصة من اللغتين اليونانية والرومانية اللتين كانتا معربتين .

يتضح مما تقدم ان اللغويين كانوا منهمكين في الدراسات اللغوية التاريخية والمقارنة فاذا التفتوا الى لغاتهم الحية لم يدرسوها في ذاتها ، وانما درسوها في ضوء اللغتين المنقرضتين الاغريقية والرومانية ، على ما بين لغاتهم وهاتين اللغتين من تباين . فكان لابد ان يولد منهج جديد ، يصحح مسار الدرس اللغوي ، ويخلص هذا الدرس من الاخطاء التي اثقلته ، وابعده عن تحقيق وظائفه ، وفي مقدمة هذه الاخطاء ما استقر في اذهان اللغويين من ان اللغات الحية لا يمكن ان تدرس في ذاتها ، بل لابد من دراستها في ضوء لغات قديمة ، اما بقصد المقارنة والوقوف على ما بينها وبين تلك اللغات من

نسب ، واما بقصد صياغة قواعد للغات الحية على غرار ما وضع للغات القديمة من القواعد . وهذا يعني ان ما وضعوا من قواعد للغاتهم لم تكن تابعة لمن تلك اللغات ، بل كانت معايير مفروضة على مستعمليها ، ليصححوا في ضوئها ما يرتكبون من اخطاء في استعمالاتهم اللغوية الحية او الفعلية .

لقد كان المنهج الجديد الذي تطلع اليه اللغويون في اواخر القرن التاسع عشر ، واولئل القرن العشرين ، هو منهج سوسير الذي صادف قبولا عندهم ، واستقبلوه بالرضا والحماسة ، وشرعوا يدرسون لغاتهم في ضوئه دراسة حقيقية ، قوامها الملاحظة المباشرة ، وغايتها وضع القواعد والقوانين . ولم يقتصر اثر هذا المنهج الجديد على اوربا ، بل تعداها الى امريكا ، فقد وجد اللغويون هناك في منهج سوسير المنهج السليم لدراسة اللغات الجديدة في تلك البقعة من العالم ، واعني بها لغات الهنود الحمر غير المكتوبة ، التي كان بلومفيلد وسايير مهتمين بدراستها ، واكتشاف قواعدها .

ولم يمض على ظهور منهج سوسير سوى وقت قصير حتى عم اوربا وامريكا واخذ اللغويون هنا وهناك يطبقونه في دراسة اللغات الحديثة والحية في هاتين القارتين ، ثم ظل المنهج السائد والوحيد حتى نهاية النصف الاول من القرن العشرين (٣٠) .

وقبل الحديث عن المنهج الوصفي نرى من المفيد ان نوجز اراء سوسير ، وهي :

(١) لقد اهتم سوسير بدراسة (بنية) اللغة او هيكلها والعناصر المكوّنة لها بغية التوصل للقواعد والقوانين التي تتحكم في تلك البنية ، وتنظم استعمالها . وغني عن البيان ان بنية اللغة هي انظمتها الصوتية والصرفية والنحوية .

(٣٠) اضاء على الدراسات اللغوية المعاصرة : ١٠٦ .

ونتيجة لهذا المبدأ اللغوي الذي بشر به سوسير درست اللغات الاوربية الحديثة ، ووضعت قواعد جديدة لها ، تعتمد على عينة كبيرة من كلام الناس « فاختفت او كادت تلك التسميات والتقسيمات القديمة لاجزاء الكلام مثلاً كما اختفى كثير من المفاهيم اللغوية التقليدية الاخرى ، واستبدلت بها مفاهيم جديدة ، تابعة من علاقة المفردات بعضها ببعض داخل الجمل ، بغض النظر عن العالم الخارجي الذي تشير اليه المفردات والجمل » (٣١) .

ولذلك « اصبحت القواعد الجديدة لتلك اللغات قواعد وصفية لا معيارية فلم يعد هنالك معيار للصواب والخطأ مفروض على افراد المجتمع ، بل اصبحت كل ما يقوله مجتمع معين يعد لغة سليمة لا غبار عليها ، وتستحق التسجيل في كتب القواعد ، ولم يستبعدوا من ذلك إلا كلام السوق واولئك الذين يتكلمون لهجات محلية محدودة بافراد جماعة معينة او حي معين او جهة معينة ، وحتى هذه اوجدت لها الدراسات الخاصة بها » (٣٢) .

(٢) اهتم سوسير باللغة المنطوقة ، او لغة الحديث على انها المظهر الاول والاساس للغة ، وان اللغة المكتوبة مظهر ثانوي ، وانه على الرغم من اهميته ليس اللغة الفعلية التي يتعامل بها الناس . يزداد على ذلك ان اللغة المكتوبة تختلف اختلافا كبيرا ، ومن جوانب عديدة عن اللغة المنطوقة . وكان تأكيد سوسير هذا المبدأ رد فعل لما كان سائدا قبل ظهور منهجه من اهتمام باللغة المكتوبة ، واتخاذها معيارا للصحة والسلامة ، واساسا تبنى عليه القواعد .

(٣) اكد سوسير ان اللغة ظاهرة اجتماعية وانها اصطلاحية اتفاقية ، وان العلاقة بين المفردات ومعانيها علاقة اعتباطية عشوائية (٣٣) .

(٤) ومن اراء سوسير المهمة تمييزه بين مصطلحات ثلاثة هي (اللغة) و (الكلام) و (اللسان) وقد مرّ بنا الكلام على هذه المصطلحات .

(٣١) نفسه : ١٠٩ ، ١١٠ . (٣٢) نفسه : ١١٠ .

(٣٣) علم اللغة العام (سوسير) ترجمة يوثيل عزيز : ٩١ .

(١)

المنهج الوصفي

ظروف نشأته :

المنهج لغة الطريق الواضح ، واصطلاحاً « فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الافكار العديدة من اجل الكشف عن الحقيقة »^(٣٤) . فهو اذن « النسق الذي يتبعه الباحث وصولاً الى الحقيقة التي ينشدها »^(٣٥) . وظهور المنهج الوصفي في الدرس اللغوي كان ردّ فعل للمنهج التاريخي الذي سيطر على اعمال اللغويين الاوربيين طوال القرن التاسع عشر ، وكان للغويين الالمان خاصة اثر كبير فيه ، كما سلف به البيان .

لقد كانت اللغة السنسكريتية اساس البحث اللغوي في اوربا في القرن المذكور ، وكان الدرس اللغوي الاوربي حين يعالج اي ظاهرة لغوية في اي لغة اوربية يرجع الى السنسكريتية ، ليستعين بها على ايضاح تلك الظاهرة ، والكشف عن حقيقتها ، وقد مرّ بنا قول ماكس مولر الذي وصف به اللغة السنسكريتية بانها المرشد الوحيد الصحيح للعالم اللغوي ، وان اللغوي الذي لا يعرف هذه اللغة المنقرضة كعالم الفلك الذي لا يعرف الرياضيات . وقد اشرنا كذلك الى ان اللغويين الاوربيين قد اعتمدوا في دراسة لغاتهم الحية على منهج اليونان والرومان في دراسة اللغتين المنقرضتين : اليونانية والرومانية . وقد جرّ عليهم هذا الاعتماد في دراستهم اللغوية اخطاء كثيرة اشرنا اليها فيما تقدم .

(٣٤) المنهج الوصفي في كتاب سيبويه (نوزاد حسن احمد) : ٢١ ، وينظر مصدره ، رسالة دكتوراه مخطوطة ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ١٩٩١

(٣٥) نفسه .

وفردينان سوسير الذي يعد واضع المنهج الوصفي في دراسة اللغة قد ولد في سويسرا عام ١٨٥٧م من اصل فرنسي ، ودرس في جنيف ، ثم اكمل دراسته في المانيا في اثناء ازدهار الحركة اللغوية التاريخية ، فشارك في هذه الحركة تحصيليا وتدريسا وتأليفا « غير انه كان قد اخذ يضيق بقصر الدرس اللغوي على الوجهة التاريخية ، ولكنه لم يكن قد وجد ما يبحث عنه الا حين اتصل بما قدمه معاصره عالم الاجتماع إميل دور كايم (ت ١٩١٧م) ، فضي ضوء آرائه في بحث الظواهر الاجتماعية ، قدم دي سوسير نظريته في بحث الظواهر اللغوية » (٣٦) .

والذي لفت اهتمام سوسير « ان دور كايم كان قد اخذ يحدد (الوقائع الاجتماعية) Socialfacts باعتبارها (اشياء) things تشبه (الاشياء) التي تدرس في العلوم الطبيعية . وانه قرر ان هذه الوقائع الاجتماعية ذات طبيعة (عامة) اي انها ليست (فردية) . و (الشيء) عنده ينتظم كل موضوعات المعرفة التي لا يمكن ادراكها بالنشاط العقلي الداخلي ، ولكن بما تقتضيه من الخبرة والملاحظة والتجربة . وقد اشار دور كايم نفسه الى ان (اللغة) يمكن اعتبارها (شيئا) ، وهي ليست فردية ولكنها عامة » (٣٧) .

ومعنى ذلك ان دور كايم كان له « تأثيره البالغ في فكر دي سوسير ، ولعله كان السبب في تحويل الدرس اللغوي الى الاتجاه العلمي ، ذلك ان اعتبار اللغة (شيئا) (عاما) شأنه شأن (الوقائع الاجتماعية) الاخرى هو الذي يستر السبيل الى تطبيق قوانين (العلم) في دراسة الظواهر » (٣٨) .

(٣٦) النحو العربي والدرس الحديث : ٢٦

(٣٧) النحو العربي والدرس الحديث : ٢٦ .

(٣٨) نفسه ، ٢٦ ، ٢٧ .

أسسه :

يتميز الدرس اللغوي الحديث بأنه يستخدم المنهج العلمي في دراسة اللغة ، وهو يختلف عن الدرس التقليدي أو القديم بأنه « ينظر الى اللغة نظرة وصفية تعتمد على الملاحظة المباشرة للظواهر اللغوية الموجودة بالفعل • ولا يهدف من ذلك الى وضع قواعد يفرضها على المتكلمين باللغة ، بل كل ما يهدف اليه هو وصف نظام اللغة الصوتي والصرفي والنحوي ووضع معاجمها » (٣٩) •

وبسبب هذا اهتم علماء اللغة الوصفيون باللغة المنطوقة اهتماما عظيما ، لانهم رأوا « أن اللغة نظام صوتي في المقام الاول ، كما انهم لم يقتفوا اثر القواعد النحوية التقليدية القديمة لان هذه الاخيرة قد اسست على لغات بطل استعمالها ، كما ان اصحاب هذه الدراسة يأخذون الصورة المكتوبة للغة على انها اساس البحث ، ويردون اليها كل ظواهر اللغة المتكلمة ، ويندر ان تجد أيا منهم في تناوله للجزئيات يؤسس نتائجه على الملاحظة العلمية والاستقراء » (٤٠) •

فالفرق اذن بين اللغوي التقليدي واللغوي الوصفي هو ان الاول يقدم قواعد تعصم اللسان أو القلم من الخطأ أو اللحن ، وتقيّد مستعملي اللغة بمستوى لغوي محدد يجب الحفاظ عليه ، ويمتنع الخروج عنه ، وترسم لهم حدودا لما ينبغي ان يقولوا ، وواضح ان هذه الحدود لا تستخلص من الاستعمال الفعلي المعاصر للغة ، وانما هي حدود رسمتها كتب اللغة ، وصوّرها جهازة اللغويين (٤١) •

ولاهتمام اللغوي الوصفي بالاستعمال الفعلي المعاصر للغة ، اقام منهجه على اسس ثلاثة مهمة :

(٣٩) مدخل الى علم اللغة (د. محمد حسن عبدالعزيز) : ١٢٥ •

(٤٠) نفسه : ٢٠ •

(٤١) مدخل الى علم اللغة (محمد حسن عبدالعزيز) : ١٢٦ •

(١) الزمان :

ان تحديد المدة التي تدرس خلالها اللغة اساس مهم من اسس هذا المنهج ، ذلك ان اللغة تتغير بمرور الزمن ، فلا بد من ضمان ثبات خصائصها واستقرار نظامها في وقت تناولها بالدرس ، ولذا حرص الوصفيون اشد الحرص على ألا يشمل البحث مدة طويلة ، تجنباً لظواهر لغوية ، تخالفي عنها الاستعمال وقت اجراء الدراسة ، لانها ترجع الى عصور قديمة . فتضييق مدة البحث امر مهم في المنهج الوصفي ، ضمانا لاستقرار اللغة المدروسة ، وثبات خصائصها ونظامها ، ونقياً لاية ظاهرة تتسلل اليها من زمن سابق ، وتبرز على لسان فرد او ألسنة افراد من الجماعة اللغوية لهذا السبب او ذاك .

لقد فرق سوسير « بين الدراسة الحركية للغة **diachronic** ^(٤٢) وهي وصف للغة ما خلال تطورها التاريخي ، والدراسة السكونية **synchronic** ^(٤٣) التي تهتم بوصف حالة معينة من اللغة في مدة ما » ^(٤٤) .

وقد كانت دراسة اللغة قبل سوسير ، التي نهض بها من اطلق عليهم (النحويون الشبان) دراسة تعاقبية او تاريخية **diachronic** « فعارض سوسير هذا الاتجاه ، وقرر ان اللغة ينبغي ان تدرس في مرحلة خاصة ، اي تدرس حالة استقرارها في بيئة مكانية وزمانية محددة ، واتخذ لذلك مصطلح **synchronic** للدلالة على هذا المنهج ، وهو الذي ساد علم اللغة منذ ذلك الحين » ^(٤٥) . ولذلك « يشار دائماً الى المنهج الوصفي في علم اللغة بأنه ساكن **static** ففيه توصف اللغة بوجه عام على الصورة التي توجد عليها في نقطة زمنية معينة ، ليس ضروريا ان تكون في الزمن الحاضر » ^(٤٦) .

-
- (٤٢) مؤلفة من **dia** بمعنى (عبر) و **chronic** بمعنى (زمن) .
(٤٣) مؤلفة من **syn** بمعنى (في) و **chronic** بمعنى (زمن) .
(٤٤) اثر محاضرات دي سوسير في الدراسات العربية الحديثة (حيدر سعيد) : ٦٠ . (٤٥) النحو العربي والدرس الحديث : ٢٩ .
(٤٦) منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث (علي زوين) : ١٠ ، ١١ ، وزارة الثقافة والاعلام ، ١٩٨٦ .

لقد شبه سوسير الفرق بين دراسة اللغة تزامنيا ودراستها تعاقبيا بما « يجري في دراسة النبات مثلا حين تقدم شريحة مقطوعة قطعا افقيا ، واخرى مقطوعة قطعا رأسيا . ان القطع الافقي هو الذي يكشف ، لانه يقفنا على مرحلة خاصة ، وعلى حالة محددة ، ذلك ان هذا القطع يشمل مجموع (الخلايا) و (الحلقات) و (الالياف) التي يمكن مقارنتها ، والتي يسهل تمييز كل واحدة منها من الاخرى ، بسبب وضوح مكانها على السطح . وفحص هذه المادة لا يقتضي ان نعرف شيئا عن تاريخ ما نراه ، انه يفضي بنا الى ان نحدد المكان ، وان نحدد كل جزء ونصفه بربطه بما يجاوره من اجزاء . وهكذا اللغة ان صاحبها لا يحتاج الى ان يعرف شيئا عن اشتقاق كلمة او تاريخها كي يستعملها . ومن ثم فان تناول اللغة ينبغي ان يكون على هذا الاساس ، اي على القطع الافقي كما يقول ، لان القطع الرأسي الذي يمثل الدراسة التاريخية لا يقدم لنا صورة متكاملة على السطح ، بل يؤدي الى صور مختلفة حيث (كذا)^(٤٧) نرى خطوطا تتفرع وقد تختفي ، ومن ثم يضيع التحديد ، وتصعب المقابلة والتمييز »^(٤٨).

لقد ميز اذن سوسير علم اللغة التطوري من علم اللغة الاستقراري ، وضرب لذلك مثلا لعبة الشطرنج ، اذ ان حالة رقعة الشطرنج تختلف باستمرار ولكن يمكن وصف حالة اللعب بتمامه « انطلاقا من مكان كل قطعة ، وليس من المهم ان نعرف كيف وصل المتباريان الى حالة خاصة من اللعب »^(٤٩).

يتضح مما سبق ان هناك نمطين للدراسة اللغوية « الدراسة الاولى هي الدراسة التاريخية ويرمز اليها بالخط او المحور العمودي ، والدراسة الثانية هي الدراسة التعاصرية وتدعى ايضا بالدراسة الوصفية ويرمز اليها بالخط او المحور الافقي »^(٥٠).

(٤٧) الصواب (إذ) . (٤٨) النحو العربي والدرس الحديث : ٢٩ ، ٣٠ .

(٤٩) اثر محاضرات دي سوسير في الدراسات العربية الحديثة : ٦١ .

(٥٠) اللسانية .. مبادئها واعلامها (ميشال زكريا) : ١٤٥ ، ١٤٦ ،

بيروت ، ١٩٨٠ .

ومعنى ذلك ان المنهج الوصفي يدرس « ظاهرة من الظواهر الى جانب الظواهر المرتبطة بها في العصر نفسه ، وبهذا تشبه الخط الافقي » (٥١) . في حين ان الدراسة التاريخية تعير جل اهتمامها قضايا التعاقب ، لان تعاقب العصور عنصر مهم من عناصر تطور اللغة وتغيرها وتبدلها .

ولابد من الاشارة هنا الى « انه من الممكن القيام بدراسة اللغة دون العودة الى تاريخها . بل كان لابد لعلم اللغة الى حد كبير كي يستتب على اسس ثابتة من التخلي عن دراسة تطور اللغة ، او عن دراسة القضايا التي تجمع بين العصور اللغوية المتعاقبة بالنسبة للغة الواحدة . فالوصف اللغوي وتعميم المعطيات اللغوية لا يصبح ممكنا إلا حين تفصل بين الحالة الانسية والراهنة للغة ، ونشوء اللغة وتطورها وتحولاتها . بل لا يمكننا في الواقع وضع منهجية تحليلية لدراسة اللغة وتحديد عناصر الدراسة هذه مالم تنطلق من وصف اللغة في واقعها الحاضر » (٥٢) .

(٢) المكان :

وكما ينبغي في المنهج الوصفي تحديد الزمان الذي تدرس اللغة خلاله ، كذلك ينبغي تحديد المكان الذي تشغله تلك اللغة المدروسة ، او تقييم فيه الجماعة اللغوية التي تتكلم بها ، ذلك ان اللغة كما تختلف من زمن الى آخر كذلك تختلف باختلاف المكان .

فمن الثابت ان انعزال بيئة عن اخرى في الرقعة الجغرافية التي يتكلم افرادها بلغة واحدة يؤدي الى تشعب هذه اللغة الى لهجات كثيرة (٥٣) واما انعزال بيئات اللغة الواحدة بعضها عن بعض ، فاما ان يكون بفعل عوامل جغرافية او اجتماعية ، فقد تحول جبال او انهار او صحارى بين بيئة واخرى ،

(٥١) نفسه : ١٤٦ .

(٥٢) اللسانية .. مبادئها واعلامها (ميشال زكريا) : ١٤٦ .

(٥٣) في اللهجات العربية (ابراهيم انيس) : ٢١ ، ط ٤ ، ١٩٧٣ .

فترتب على ذلك قلة احتكاك أبناء الشعب الواحد بعضهم ببعض ، او انفزال بعضهم عن بعض ، ويتبع هذا ان تتكون مجاميع صغيرة من البيئات اللغوية ، تتسم كل بيئة بمجموعة خصائص لغوية تميز لغتها من اللغة الواحدة من جهة ولغات البيئات الاخرى من جهة اخرى (٥٤) .

ولعل خير « مثل يمكن ان يضرب لهذا الانفزال الذي يشعب اللغة الواحدة الى لهجات تلك اللهجات العربية القديمة في جزيرة العرب قبل الاسلام . وحدث الامثلة لهذا الانفزال ما حدث لاسبانية والانجليزية حين انتشر كلاهما (كذا) (٥٥) في بقاع بعيدة : الاولى في امريكا الجنوبية والثانية في امريكا الشمالية ، وبدأنا الان نلاحظ فروقا صوتية بين اسبانية اوربا واسبانية امريكا ، وانجليزية اوربا وانجليزية امريكا » (٥٦) .

واللغوي الذي يتبع المنهج الوصفي في دراسة لغة معينة ، لابد ان يعتمد الى صورتها الموحدة ، ويستبعد من مجال دراسته صور لغات البيئات الاخرى التي تشعبت لها تلك اللغة ، وظهرت في كل منها فروق لغوية ، لا تلاحظ في اللغة الاصلية ، ذلك لان هذا المنهج يتطلب الاستقرار وتجانس الخصائص في اللغة التي يتخذها موضوعا لدراسته .

(٣) مستوى الاداء :

لا تتباين اللغة باختلاف الزمان والمكان حسب ، بل تتنوع ايضا بحسب طرائق الاداء التي يسلكها المتكلمون بها ، ففي كل لغة طرائق مختلفة للتعبير ، ولكل طريقة لغة قلائمها ، ومستوى من الاداء لا يصلح الا لها . وقد اصطلح على ان تكون طرائق التعبير في العربية ، او مستويات الاداء فيها ثلاثة : الاول المستوى المثقهم ، وهو المستوى العام الذي يلجأ اليه افراد البيئة اللغوية في مخاطباتهم العامة ، وفي تصريف شؤون حياتهم اليومية ، ولا يشترط في هذا

(٥٥) الصواب : انتشرت كلاتهما .

(٥٤) نفسه .

(٥٦) نفسه .

المستوى الصحة والسلامة ، او الخضوع لقوانين اللغة واظمتها • ويوصف هذا المستوى بـ (العامة) • والثاني المستوى المتفهم الصحيح الذي يعتمد اليه ابناء البيئة اللغوية في التعبير عن شؤونهم الفكرية والثقافية ، وهو المستوى الذي تؤلف به الكتب ، وتلقى المحاضرات والاحاديث ، وتحرر الوثائق والمدونات الرسمية وغير الرسمية • واما الثالث فهو المستوى المتفهم الصحيح البليغ ، وهو الذي يعتمد اليه الشعراء والكتاب ، وهو مستوى لا تشترط فيه الصحة وحدها كالمستوى الثاني ، بل يطلب فيه التأثير ايضا •

ويبدو ان المستوى الذي ينبغي ان يتناوله الواصف هو المستوى الثاني ، لانه يمثل اللغة مجردة من كل قيد ، ومطلقة من كل ما ينحرف بها لاسباب فنية عن سمتها المعهود ، ونظامها الثابت • ومعنى ذلك ان اللغة في الشعر وكذلك النثر الفني نظاما خاصا يختلف عن نظامها في المستوى الثاني من الاداء ، وان على الواصف ان يلاحظ ذلك ، وألا يخلط هذين المستويين ، ويقيم درسه على المستوى الثاني وحده ، لانه المستوى الذي تتحقق به الوظيفة العامة للغة ، ونعني بها (الإفهام) او (الاتصال) ، وتتصف فيه بالعفوية والتلقائية ، لانه يخلو من الصنعة ، ولا يضطر مستعمله الى الانحراف عن خصائص اللغة ونظامها المطرد •

واذا كان من الممكن ان ينظر الواصف — مع نظره في المستوى الثاني — الى لغة النثر الفني ، وهو احد فرعي المستوى الثالث ، فان من غير الجائز ان ينظر في لغة الشعر ، لان الشعر كما قال ابن جني « موضع اضطرار ، او موقف اعتذار وكثيرا ما يحرف فيه الكلم عن ابنيته ، وتحال فيه المثل عن اوضاع صيغها لاجله » (٥٧) •

(٥٧) الخصائص (ابن جني) : ٣ / ١٨٨ •

خطواته :

يتخذ اللغوي الواصف للغة معينة - بعد تقيده بالاسس الثلاثة المشار اليها آتفا الخطوات الآتية :

(١) الاستقراء :

يقيم الواصف دراسته على معطيات لغوية مستعملة فعلا ، وهذا يعني ان يقف على الكيفية التي تنفذ بها اللغة على ألسنة المتكلمين ، ويتم ذلك بالاتصال المباشر بهم ، والسماع من افواههم ، « لان الواصف اذا اريد له ان يكون دقيقا وجب ان يكون سمعيا ، وهو الوصف الطبيعي للغة ، فاللغوي يسمع ويدون ما سمع » (٥٨) . وهذا ما يعرف في المنهج الوصفي بـ (الدراسة الحقلية) التي قرّبت البحث اللغوي « من مناهج البحث العلمي ، لانها تقوم على الاتصال المباشر باللغة المنطوقة كما هي » (٥٩) .

ويعتمد الواصف اللغوي في عمله الميداني على المتكلم الاصلي وهو (الراوي) او (مساعد الباحث) . ويشترط في الراوي ليكون ممثلا صادقا للغة او اللهجة المدروسة « ان يكون ممن نشؤوا ونموا في ظل هذه اللغة حتى يمكن اعتباره ممثلا صادقا لنطقها ، ويحسن ان يكون اميا لا يقرأ ولا يكتب حتى لا تؤثر العوامل الثقافية في تمثيله الصحيح ، ومن الخير كذلك الا يكون قد خرج من المنطقة التي تتكلم بها لان كثرة الاسفار والتعرض للاحتكاك باللهجات الاخرى من نفس اللغة يجعل المرء عرضة للتغير يطرأ على نطقه ، وطرق صوغه للمفردات والجمل » (٦٠) .

(٥٨) المنهج الوصفي في كتاب سيبيويه : ١٢ .

(٥٩) النحو العربي والدرس الحديث : ٣٤ .

(٦٠) اللغة بين المعيارية والوصفية : ١٥٩ .

(٢) التصنيف :

هذه هي الخطوة التالية لخطوة الاستقراء ، ونعني بالتصنيف تقسيم المادة اللغوية ، وجمع ما يتوافق منها في الشكل او في الوظيفة او فيهما معا ، وجعلها قسما قائما بذاته ، ثم تسميته باسم معين ، يعرف بـ (المصطلح) . فالتصنيف اذن يقوم على اساس ملاحظة المادة اللغوية المستقراة ، وايجاد اوجه الاتفاق والاختلاف بين جزئيات هذه المادة ، فما توافقت منها ائتلف ، وانضوى تحت صنف بعينه ، وما تناكر منها اختلف وانضوى تحت صنف آخر « وتكون اوجه الاتفاق بين ما ائتلف منها متعددة الجوانب كالشركة في الشكل او في الوظيفة او فيهما معا » (٦١) .

(٢) التقعيد :

وبعد التصنيف والاصطلاح يأتي دور التقعيد نحو : (حين يقع الاسم مسندا اليه يكون مرفوعا ، ولا يتحول عن هذا الرفع الا في حالات خاصة) ، « وليست القاعدة هنا قانونا يفرضه الباحث على المتكلمين باللغة ، وانما هو تعبير عن شيء لاحظه الباحث وكان عليه ان يصفه بعبارة مختصرة قدر الامكان » (٦٢) .

والقاعدة — كما تقدم في موضع سابق — « لابد ان تتصف بالعموم ولكنها ليس من الضروري ان تتصف بالشمول ، اي ان تكون عامة لا كلية » (٦٣) . ومعنى ذلك ان ما يقف عليه الواصف من حالات تخرج عما انتهى اليه من القواعد ، فان عليه ان ينحيا عن طريقه ، ليدرسا في نطاق عمل آخر ، ويبحث عما يعتقد انه التفسير الصحيح لهذه الحالات . وليس بصحيح ما ذهب اليه تمام حسان من ان اللغوي الواصف اذا واجه حالة تخالف القاعدة التي وصل اليها نتيجة الاستقراء والملاحظة ، عدّها « ظاهرة فرعية الى جانب القاعدة ، قد تعضدها دون ان تطعن فيها » (٦٤) .

(٦١) نفسه : ١٦١ . (٦٢) اللغة بين المعيارية والوصفية : ١٦٥ .
(٦٣) نفسه . (٦٤) نفسه .

سماته :

ان ابرز سمات المنهج الوصفي ما يأتي :

(١) الاهتمام باللغة المنظوقة ، وجعلها هدف البحث اللغوي ، ذلك « لان التغيرات تظهر على اللغة المنظوقة بشكل ادق ، فيبين النطق اثر التعاملات الصوتية في المستوى الصوتي ، ووظيفة النبر stress في المستوى الصرفي ، ومهمة التنغيم في المستوى النحوي ، في حين تجنح الكتابة نحو الاستقرار » (٦٥) .

فعبارة المنهج الوصفي باللغة المسموعة انما تكون لامرين : « الاول جعل البحث اللغوي واقعيًا من خلال ربطه باللغة المستعملة فعلا ، والاخر الوقوف على العادات النطقية لتكلمي اللغة » (٦٦) .

(٢) الاقتصار « على الجانب الشكلي في وصف الظواهر اللغوية ، وطرح كل شيء غير شكلي او ظاهري ، او لا تحده الضوابط التركيبية للوحدات اللغوية على اساس انه ليس مما يجب ان تحتويه مادة البحث اللغوي ، وقد عني هذا اسقاط الدلالة المعنوية للوحدات اللغوية والكلمات والجمل » (٦٧) .

وقد « اتضح مبلغ العناية بالاتجاه الشكلي في دراسة البنية اللغوية في تأكيد بلومفيلد ان تقرير المعاني هو اضعف نقطة في دراسة اللغة » (٦٨) . لقد اراد بلومفيلد ان يتخلص من المعنى قدر الامكان ، ويبدأ من الصور اللغوية ، لا من معاني تلك الصور (٦٩) . والى مثل ذلك ذهب سوسير اذ قرر « ان الاشكال اللغوية ينبغي ان تدرس في ذاتها اي باعتبارها اشكالا ، وليس على اساس من المعاني التي تتصورها » (٧٠) .

(٦٥) المنهج الوصفي في كتاب سيويه : ١٣ . (٦٦) نفسه .

(٦٧) المنهج الوصفي في كتاب سيويه : ١٤ .

(٦٨) نفسه : ١٤ وينظر : الالسنية مبادئها واعلامها (ميشال زكريا) : ٢٣٥ .

(٦٩) علم اللغة (السعران) : ٣٤٦ .

(٧٠) النحو العربي والدرس الحديث : ٣٤ .

وهذا يعني ان ساير رأى ان المنهج العلمي في دراسة اللغة « ينبغي أن يتركز على (كذا) دراسة اللغة (التركيبات الشكلية) للغة ، وهي تقتضي دراسة (الانماط) في الصوت والكلمة والجملـة ... لكن ذلك لا يعني درس (التراكيـب) مستقلة عما تؤدـيه من وظيفة » (٧١) .

وفي الجملة ان المنهج الوصفي يوصف بانه (شكلي) او (صوري) بمعنى انه « ينظر الى الصور اللفظية المختلفة التي تعرضها لغة من اللغات ثم يضعها على اسس معينة ، ثم يصف العلاقات الناشئة بين الكلمات في (الجملة) وصفا موضوعيا . وهو (وظيفي) لانه يقوم كذلك على ادراك (الدور) الذي تقوم به الكلمة في الجملة » (٧٢) . ولكي يكون الواصف موضوعيا عليه ان يتجنب « ان يـدخل مقدما تصنيفات سابقة وألا يعترف إلا بالاقسام اللغوية التي تعبر عنها اللغة موضوع البحث بطريقة شكلية » (٧٣) .

(٣) التفريق بين (منطق اللغة) و (المنطق الارسطي) : « الاول مقبول ومعترف به في دراسة اللغة ، والآخر مرفوض دخیل على تلك الدراسة . والمقصود بمنطق اللغة : التفكير المنظم في تناول مظاهرها وعناصرها وتقسيم فصائلها وانواعها ، اما الآخر فيقصد به المصطلح الاوربي Logic . الاول مقبول لانه وسيلة لغوية اصيلة ، والآخر مرفوض لانه تطفل خارجي ، الاول هدفه التوضيح والابانة ، والآخر يؤدي الى الاضطراب والجـدل الذهني ، الاول مفيد نافع في دراسة اللغة ، اما الآخر فلا فائدة فيه ، ولا نفع منه في تلك الدراسة » (٧٤) .

ان للغة منطقا « يختلف عن المنطق الارسطي ، لان اللغة نتاج كل افراد المجتمع ، وهؤلاء الافراد ... ليسوا اجيالا من الفلاسفة والمفكرين ، حتى

(٧١) نفسه : ٣٥ . (٧٢) علم اللغة (السعـران) : ٢٠٧ .

(٧٣) نفسه : ٢٣٩ .

(٧٤) اصول النحو العربي (د. محمد عيد) : ٦٧ .

يتحكم في لغتهم منطق ارسطو وقضاياها ، وهذا الفهم يؤدي للتسامح في تناول اللغة وتحليلها ، اذ لا تتطلب فيها احكام عقلية عميقة » (٧٥) .

فالمنهج الوصفي « منهج لغوي خالص يصف اللغة المدروسة كما هي ، فيبين ما لعناصرها من خصائص ومميزات ، وما بينها من علاقات ، دون ارقام العوامل الذاتية من فروض وظنون وآراء شخصية » (٧٦) . وهذا « هو السبيل للوصول الى نتائج تتفق مع واقع اللغة دون زيف او اضطراب ، فالالتجاء الى مؤثر خارجي ، وتطبيق افكاره ، ومبادئه على دراسة اللغة يتنافى مع هذه الحقيقة ، وهو مرفوض من وجهة النظر الحديثة . فتصنيف اللغة - اي لغة - في كل مستوياتها اصواتا وصرفا ونحوا لا يخضع لغير ما تطلعننا عليه اللغة من ذلك ، ومن الخطأ ان يتدخل في هذا التصنيف اقسام عقلية تحكيمية ، او افكار لعلوم اخرى فلسفية او نفسية » (٧٧) .

مزاياه :

لعل من اهم ما يميز (المنهج الوصفي) من غيره من المناهج ما يأتي :

(١) الاهتمام باللغات الحية والعزوف عن دراسة اللغات القديمة :

ان المنهج الوصفي يهتم بواقع الظاهرة اللغوية لا بتاريخها - على نحو ما يفعل المنهج التاريخي - وهذا ما دعا اصحابه الى التركيز في الواقع المنطوق ، لا في الوثائق المدونة التي يرجع اليها اصحاب المنهج التاريخي . ومن هنا كان اهم مأخذ للوصفيين على اصحاب المنهج التاريخي اعتمادهم على (الكتابة) ، وهي وسيلة ناقصة مهما دقت ، وهي لا ترقى الى النطق في تحديد الظاهرة اللغوية ، ومن ثم فان النتائج التي يتوصل اليها اصحاب المنهج التاريخي اقل دقة من النتائج التي يتوصل اليها الوصفيون المعتمدون على النطق الحي (٧٨) .

(٧٥) نفسه . (٧٦) نفسه : ٦٦ .

(٧٧) نفسه : ٦٦ ، ٦٧ .

(٧٨) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة (د. اسماعيل عميرة) : ٨٨ ، الزرقاء ١٩٩٢ .

وهذا هو السبب في عزوف الوصفين عن دراسة اللغات البائدة أو القديمة ، التي لم يعد وصفها ممكناً إلا بالاعتماد على الوثائق المكتوبة ، وفي مقابل هذا العزوف كان اقبالهم على دراسة اللغات الحية^(٧٩) .

وحين اراد المستشرقون تطبيق المنهج الوصفي على اللغة العربية ، على الوجه الذي طبق على لغاتهم الاوربية ، نظروا الى العربية على انها ثلاثة مستويات متباينة : « الفصحى القديمة ويسمونها العربية الكلاسيكية على نحو ما يسمون اللغات القديمة كاليونانية واللاتينية ، وامر الفصحى القديمة متروكة لمحاولات المنهج التاريخي والمنهج التاريخي المقارن كما هي الحال في اللغات الاوربية القديمة . والفصحى المعاصرة ويطلقون هذه التسمية على العربية التي تربط بين الناطقين بالعربية في ايامنا على صعيد الحياة الثقافية والرسمية . وهي تحظى بالقيمة الحقيقية لمواصفات المنهج الوصفي بمقدار ما تتحقق في الاستعمال المنطوق . وعلى هذا كانت العاميات العربية اقرب الى تجسيد المعنى الحقيقي للغة في نظر الوصفين »^(٨٠) . ولا بد من الإشارة هنا الى ان وراء اتجاه بعض المستشرقين الى دراسة بعض العاميات العربية اهدافاً غير علمية .

ومن الجدير بالذكر ان نظرة الوصفين للتغيرات الحاصلة في العربية المعاصرة تختلف عن نظرة (المعياريين) ، فهم ينظرون اليها على انها محاولات من اللغة للدخول في مرحلة جديدة . اما المعناريون فقد اعتادوا النظر الى كل تغير على انه انحراف صرفي او نحوي او دلالي يدخل في مجال الخطأ ، ولذا تجب مقاومته ، والارشاد الى الفصحى الذي تطور عنه . وما يؤكد ان الوصفين لا يعدون الخروج عن قواعد اللغة من باب الخطأ ما قاله فيشر : « ووفقاً لهذا - يعني قواعد النحاة - اصبح ينظر الى كل تغيير باعتباره

(٧٩) نفسه : ٨٩ .

(٨٠) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٨٩ .

خطأ أو انحرافاً بتأثير من اللغة الدارجة ، لا على أنه تغيير في طرائق الاستعمال اللغوي» (٨١) .

وثمة امر يؤخذ على اصحاب المنهج الوصفي « وهو تنكّرهم للنصوص المكتوبة ، فنحن لا نشك في مزايا النص المنطوق من حيث وصف الاصوات وقوانين النبر والتنغيم وما شاكل ذلك من ميادين تعتمد على نطق اللغة . بيد ان تشديد النكير على ان توصف اللغة من خلال النصوص المكتوبة ، فيه قدر من المغالاة ، بل هو يفوّت الفرصة التي يتميز بها النص التراثي المكتوب احيانا . فمن المعلوم ان من اسباب اختلاف اللهجات المنطوقة عن الفصحى ان الناس قد يتباينون في النبر والتنغيم والهمز والتسهيل والقصر والمد والادغام والفك والحذف والاثبات والنحت وغير ذلك من الظواهر اللغوية التي قد يكون النص المكتوب فيها اكثر ثبوتا واستقرارا من المنطوق » (٨٢) .

ومن المعروف « ان لغات واسعة الانتشار كالانجليزية والصينية قد تقوم على الشكل المكتوب احيانا في تحقيق التفاهم بين الناطقين بها اكثر مما تقوم على الشكل المنطوق » (٨٣) . وفي هذا المعنى يقول بعض اللغويين : « ولقد امدتنا الصين بمثال غاية في الاهمية يوضح لنا دور الكتابة بوصفها عاملا من عوامل التماسك اللغوي ، فهناك في هذه البلاد لا يستطيع كثير من المتكلمين باللهجات المختلفة ان يتصل بعضهم ببعض او ان يتفاهموا الا بطريق الكتابة التقليدية » (٨٤) .

(٢) الاعتماد عليه في مجال التعليم :

يعد المنهج الوصفي قريب النتائج ، داني الثمار ، ولذا كانت الافادة منه في مجال تعليم غير المتخصصين اكثر من الافادة من المنهج التاريخي او المنهج التاريخي المقارن ، فهذا المنهج يجاوز في اهدافه ونتاجه البعد التعليمي للبحث

(٨١) نفسه : ٩٠ . (٨٢) نفسه : ٩٥ .

(٨٣) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٩٥ .

(٨٤) نفسه : ٩٥ ، ٩٦ وينظر صدره .

اللغوي • ولهذا « عمدت الدراسات التعليمية الى اتباع المنهج الوصفي في وضع الكتب التعليمية ، وهو منهج يستهدف وصف الظاهرة اللغوية دون مقارنتها ، او دون الوقوف على مراحل التطور التي سبقت ، بل يصفها كما هي ، من حيث اطراد قواعدها ، وشيوع هذه القواعد » (٨٥).

ومن مظاهر سهولة المنهج الوصفي ، وصلاحيته اكثر نتائجها لان تعتمد في مجال تعليم اللغة ، ان الباحث الوصفي اذا اراد مثلا ان يعلم اي اعضاء الجسد الزم لان يُعرف في لغة ما ، نراه يعتمد « الى استنباط ذلك من بحث مدى شيوعها في بيئة لغوية محددة : زمانا ومكانا واقواما ومستويات ثقافية او تخصصية معينة ، ويستخرج ذلك مما يدور على السنة الناس او مما يكتب في الصحف الدارجة او المجلات او الكتب المتخصصة ، وقد يخرج بنتيجة مفادها مثلا ان كلمة (عين) اكثر انتشارا من كلمة (ركة) » (٨٦).

واذا انتهى الباحث الوصفي الى ان كلمة ما اجدر بالتناول من غيرها ، بسبب شيوعها على السنة الناس واقلامهم ، فانه يتناولها على الوجه الذي توجد عليه دون ان يهتم بما يعنى به « الباحث الذي يأخذ بالمنهج التاريخي ، فذلك يتطلع الى ان يعرف : هل هذه الكلمة او تلك كانت تنطق وتستهمل في عصورها الغابرة على نحو ما تنطق وتستهمل عليه الان ؟ فتراه لهذا يقارن طريقة نطقها وتفرع معانيها في هذه اللغة بما جاء عليه نطقها واستعمالها في لغات اخرى تنتمي الى الاسرة اللغوية نفسها • فكلمة (ركة) مثلا يترجح لدى الباحثين في المنهج التاريخي انها منقلبة عن (بركة) ، مستدلين على ذلك بأن هذه الكلمة من الالفاظ السامية المشتركة ، وقد وردت في جميع اللغات السامية التي استعملتها من الجذر (برك) وليس من (ركب) ، ثم

(٨٥) نفسه : ٩٦ .

(٨٦) نفسه .

يشفعون هذا الدليل بدليل آخر وهو ان العربية ما تزال تحتفظ بنحو (برك
الجميل) اذا جثا على ركبتيه » (٨٧) .

ومن المعلوم ان المنهج الوصفي لا يعنيه « سوى ان يتلقى الكلمة في
وضعها الحالي فيحدد مقاطعها ووزنها الصرفي واشتقاقاتها ومعناها او معانيها
وما شاكل ذلك من اسئلة تتعلق بواقع اللفظة من حيث الاستعمال الجاري » (٨٨)

وكما لا يهتم المنهج الوصفي بتتبع هذه الكلمة او تلك في اللغات التي
تنتمي الى فصيلة اللغة المدروسة ، كذلك لا يعنيه اكانت هذه الكلمة او تلك
اصيلة ام دخيلة ؟ ولا يعنيه ايضا ادخلت الكلمة على حالها كما تدخل كثير من
الالفاظ الاوربية لغتنا العربية دون ان تخضع للاوزان العربية نحو كلاسيكية
وبرجوازية وديماغوجية وبروفسور وأتوبيس فيعجل ذلك برحيلها ام دخلت
بعد ان خضعت للوزن العربي ، وطبعت بطابع الالفاظ العربية نحو تلفاز
وقسطاس وقرطاس . ولاشك في ان صمت المنهج الوصفي عن بيان اللغة التي
انحدرت منها الكلمة المدروسة يؤدي الى اغفال استنباط العلاقات الحضارية
والتاريخية بين الشعوب من خلال اللغات (٨٩) .

واذا كانت الكلمة المدروسة دخيلة من لغة اخرى ، فان الباحث الوصفي
لا يعنيه ان يعرف دلالتها الاصلية في اللغة التي انحدرت منها ، فاذا كانت
كلمة (كئيف) مثلا وكلمة (محصل) في اللغة الفارسية من اصل عربي ، فان
الباحث الوصفي يسجل كلا من هاتين الكلمتين بالمعنى الذي استقرت عليه في
الفارسية ، ف (كئيف) التي حرفت الى (كسيف) تعني (وسخ) ،
و (محصل) تعني (طالب) او (تلميذ) ومثل ذلك يقال عن الكلمات

(٨٧) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٩٧ ، وينظر التطور النحوي
للغة العربية (برجستراسر) : ٢٢ والدراسات اللغوية عند العرب الى
نهاية القرن الثالث الهجري (محمد حسين آل ياسين) : ٤٨٠ .

(٨٨) نفسه : ٩٧ .

(٨٩) نفسه : ٩٨ .

(خط) و (انتقال) و (اشتها) في اللغة الاوردية ، فهي الفاظ عربية الاصل ولكن الباحث الوصفي في هذه اللغة يسجل هذه الكلمات بالمعاني التي استقرت عليها في اللغة الاوردية فـ (خط) تعني (رسالة) و (انتقال) تعني (موت) و (اشتها) تعني (اعلان)^(٩٠) .

ان صاحب المنهج الوصفي لا يخوض في هذه التفاصيل ، بل يتركها للمنهج التاريخي ، لان كل الذي يعنيه هو ما استقرت عليه كل لفظة في اللغة المدروسة ، بغض النظر عن لغتها الام وعن هيئتها او معناها الاصلي في تلك اللغة . واذا كان للفظ الواحد اكثر من معنى سجل المنهج الوصفي من تلك المعاني اكثرها استعمالا ، واهمل ما سواه^(٩١) .

ومن اجل اعراض المنهج الوصفي عن هذه الامور وامثالها عُدَّ اكثر المناهج صلاحا لان يعتمد عليه في تعليم اللغات ، وعُدَّت نتائجها ثمارا دانية ، يتناولها المتعلم دون ادنى جهد او مشقة .

نوعاه (التقريري والتفسيري) :

لقد تبني كثير من اللغويين العرب في النصف الثاني من القرن العشرين المنهج الوصفي في اللغة ، ويبدو ان حماسهم لهذا المنهج جاءت رد فعل للمآخذ الكثيرة على المنهج الفلسفي الذي طبع النحو العربي ، وساد اعمال النحويين العرب القدامى .

ومن هؤلاء اللغويين أنيس فريجة الذي دعا الى مجرد الوصف لحقائق اللغة وقضاياها وتجنب ما انزلق اليه النحويون القدماء من تعليقات استمدوا اكثرها من نظر غريب عن اللغة . وقد ضرب انيس فريجة مثلا على ذلك (الميزان الصرفي) المتمثل في (فعل) الذي عده النحاة ميزانا لكل الافعال الثلاثية ، وما ذلك إلا لان النحاة نظروا الى الكلمة على انها (جوهر) او (اصل)

(٩٠) نفسه .

(٩١) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٩٩ .

و (عرض) يلحق ذلك الاصل ، ويزاد عليه . وقد اداهم هذا الى وضع قوانين الاعلال والادغام . ومن هذا قولهم : ان (مدّ) اصلها (مَدَدَ) و (قال) اصلها (قَوَلَ) و (باع) اصلها (بَيَعَ) و (قضى) اصلها (قَضَى) ، وبذلك اطرده الاصل الفلسفي ، في حين ان اللغة لا تحتل هذه النظرة المنطقية الصارمة ، وكان الاجدر بالنحاة - كما يرى انيس فريجة - ان يصفوا احوال الفعل الثلاثي من الخارج ، فيقولوا : لاحظنا ان الفعل الثلاثي على فئات : كتب . قام . باع . مدّ . قضى . غزا . فني . ولكل منها تصريف خاص .

هذا هو المنهج الوصفي الذي دعا اليه أنيس فريجة ، وهو منهج يصف ماهو قائم . اما المنهج الفلسفي فيضع قاعدة او اصلاً ثم ينظر في اللغة في ضوءه ، فما اندرج تحت ذلك الاصل ، قبله او اقره ، ولم تكن هناك مشكلة ، وما ابى الاندراج تأوله (٩٢) .

غير ان داود عبده رأى ان هذا تطرف في اتباع المنهج الوصفي ، وانه يكاد « يجرد علم اللغة مما يستحق ان يسمى من اجله علماً » (٩٣) . وهو عنده « مبني في الدرجة الاولى على سوء فهم للمنهج الوصفي في اللغة . فاذا كانت غاية علم اللغة الوصف فحسب ، فلاي علم تنسب تفسير الظواهر اللغوية المختلفة ؟ » (٩٤) .

ومعنى ذلك ان الوصف وحده للظواهر اللغوية لا يجعل علم اللغة (علماً) ، كما انه لا يرقى باية حقيقة من الحقائق غير اللغوية لان تكون من قبيل العلم .

ولكي يوضح داود عبده وجهة نظره هذه يقول : « يرى عالم من علماء

(٩٢) نظريات في اللغة (انيس فريجة) : ١٤٠ ، ١٤١ ، ط ١ ، ١٩٧٣ .

(٩٣) أبحاث في اللغة العربية (د. داود عبده) : ٩ ، بيروت ١٩٧٣ .

(٩٤) نفسه .

الطبيعة تفاحة تسقط من شجرة ، فيصف هذه الظاهرة بقوله : (اذا سقطت التفاحة من الشجرة فانها تسقط عموديا والى اسفل) • هذا مجرد وصف لما حدث ، يستطيع ان يقدمه اي انسان اعتيادي ، اما العالم فتتوقع منه ان يقدم تفسيراً لما حدث ، لا مجرد وصف • عليه ان يفسر لماذا سقطت التفاحة عموديا والى اسفل ، ولم تتجه افقيا او الى اعلى • ومن جواب هذا العالم يمكن الحكم على المنهج الذي يتبعه بانه علمي او فلسفي • ومثال آخر من خارج اللغة • الواصف التقريري يصف صوت الرجل بالخشونة وصوت الطفل بالنعومة ويقف عند هذا الحد • اما الواصف التفسيري فيضيف الى ما سبق ان سبب الفرق بين صوت الرجل من جهة وصوت المرأة والطفل من جهة اخرى ، يعود الى طول الوترين الصوتيين وغلظهما ، وهما عاملان يؤثران على (كذا) (٩٥) عدد اهتزازات الوترين وبالتالي على مدى خشونة الصوت او نعومته « (٩٦) • وقد خلص داود عبده من هذا الكلام الى اننا في اللغة ايضا ينبغي ألا نكتفي بالوصف التقريري ، الذي ينظر الى حقائقها من الخارج حسب ، لان مثل هذا الوصف يتأتى لاي عربي مثقف ، ولا يحتاج الى عالم لغوي • ومعنى ذلك ان قول انيس فريجة : ان الفعل الثلاثي في العربية يأتي على فئات مختلفة : كتب • قام • باع • مدّ • قضى • غزا • فني • ولكل من هذه الفئات تصريف خاص قائم بذاته ، هو من قبيل الوصف الذي لا يصح ان يسمى (علما) في رأي داود عبده •

لقد ذهب داود عبده الى ان في هذه الافعال ظواهر تحتاج الى تفسير : لماذا يكون مضارع (قال) مثلا (يقول) ومصدره (قَوْل) ، بينما مضارع (باع) : (يبيع) ومصدره (بَيْع) ؟ ولماذا يكون الفعل (مدّ) على وزن (فَعَّ) في (مدّ) و (مدّت) و (مدّوا) ولكنه يكون على وزن (فَعَّل) في (مدّدت) و (مدّدتا) و (مدّدتهم) ؟

وذهب كذلك الى ان « اللغويين القدماء كانت تعنيهم مثل هذه الامور

(٩٥) الصواب : يؤثران في عدد . (٩٦) نفسه : ٩ ، ١٠ ، ١١ .

حين قالوا ان اصل (قام) : (قَوِّم) ، وليس لان (قَوِّم) هذه من تعليقات اللغوي كي يستقيم امر (قام) مع الميزان (فَعَلَ) كما يقول فريجة^(٩٧) .

لم ير داود عبده ما يمنع ان يكون اصل (قام) : (قام) واصل (باع) : (باع) ، بل قال : « ان هذا هو الشيء الطبيعي الا اذا وجد مبرر لغير ذلك »^(٩٨) .

ثم قال : « و يقيني ان هناك مثل هذا المبرر . فالعالم اللغوي الذي يصّر على ان اصل (قام) (قام) واصل (باع) (باع) ، عليه ان يقدم تفسيراً لوجود ضمة طويلة (الواو) في مضارع طائفة من الافعال منها (يقوم) ، وكسرة طويلة (الياء) في مضارع طائفة اخرى من بينها (يبيع) . وعليه كذلك ان يفسر وجود الواو في مصادر الطائفة الاولى والياء في مصادر الثانية . ولا يكتفي من عالم اللغة في هذه الحالات بان يقول : (هكذا قالت العرب) ، لانه يكون بهذا كعالم الطبيعة الذي يكتفي في تفسيره سقوط التفاحة الى اسفل بقوله : (هكذا يحدث السقوط) . كذلك لا مانع من حيث المبدأ من ان يكون اصل (مَدَّ) (مَدَّ) لا (مَدَدَ) ، ولكن هذا الرأي مرفوض للصعوبة الكامنة في تفسير وجود (مَدَدَ) في (مَدَدَت) و (مَدَدْنَا) و (مَدَدْتُمْ) الخ »^(٩٩) .

وكما انكر داود عبده على انيس فريجة اكتفاءه بوصف الفعل الثلاثي على النحو الذي اوردناه ، كذلك انكر على ابراهيم انيس رفضه ان يكون اصل (سماء) و (قائل) و (مصاييح) و (صيام) و (ميزان) و (سيّد) و (مَرَضِي) و (مَوْقِن) و (خاف) و (اضطبر) : (سماو) و (قاول) و (مصباح) و (صوام) و (موزان) و (سَيَّوَرِد) و (مَيْقِن) و (خَوْف) و (اصبر) لانه « لم ترد لمثل هذه الكلمات صور اخرى كالتي افترضوها »^(١٠٠) .

(٩٧) ابحاث في اللغة العربية : ١٠ ، ١١ .
(٩٨) نفسه : ١١ ، قول المؤلف (مبرر) غير فصيح والفصيح (مسوغ) .
(٩٩) نفسه .
(١٠٠) من اسرار اللغة (ابراهيم انيس) : ٥٥ ، ط/٣ ، ١٩٦٦ .

لقد علق داود عبده على رأي ابراهيم انيس هذا قائلاً : ان ما يهمني في هذا الرأي قول ابراهيم انيس (لم ترد لنا مثل هذه الكلمات صور اخرى كالتي افترضوها) فاللغويون القدماء كانوا يعلمون ان معظم هذه الصور التي افترضوها لم ترد ، وآية ذلك ان ابن جني قال : « وينبغي ان يعلم انه ليس معنى قولنا : انه كان الاصل في (قام) و (باع) : قَوَمَ و بَيَّعَ وفي (اخاف) و (أقام) : (أَخَوَفَ) و (أَقْوَمَ) وفي (استعان) و (استقام) : (اسْتَعَوَنَ) و (اسْتَقْوَمَ) اننا نريد به انهم قد كانوا نطقوا مدة من الزمان بـ (قَوَمَ) و (بَيَّعَ) ونحوهما مما هو مُغَيَّرٌ ، ثم اتهم اضرَبوا عن ذلك فيما بعد . وانما نريد بذلك ان هذا لو نطق به على ما يوجبه القياس بالحمل على امثاله لقليل : (قَوَمَ) و (بَيَّعَ) و (اسْتَقْوَمَ) » (١٠١) .

وقال في موضع آخر : « ... وذلك كقولنا : الاصل في (قام) (قَوَمَ) وفي (باع) (بَيَّعَ) وفي (طال) (طَوَّلَ) وفي (خاف) و (نام) و (هاب) : (خَوَفَ) و (نَوِمَ) و (هَيَّبَ) وفي (شدَّ) (شَدَّدَ) وفي (استقام) (اسْتَقْوَمَ) وفي (يستعين) (يَسْتَعُوْنُ) وفي (يستعدُّ) (يَسْتَعْدِدُ) فهذا يوهم ان هذه الالفاظ وما كان نحوها مما يُدَّعى ان له اصلاً يخالف ظاهر لفظه قد كان مرة يقال حتى انهم كانوا يقولون في موضع (قام زيد) : (قَوَمَ زيد) وكذلك (نَوِمَ جعفر) و (طَوَّلَ محمد) و (شَدَّدَ اخوك يده) و (اسْتَعْدَدَ الاميرُ لعدوه) وليس الامر كذلك ، بل بضده . وذلك انه لم يكن قط مع اللفظ به إلا ما تراه وتسمعه . وانما معنى قوله انه كان اصل كذا انه لو جاء مجيء الصحيح ولم يعمل لوجب ان يكون مجيئه على ما ذكرنا . فأما ان يكون استعمل وقتاً من الزمان كذلك ، ثم انصرف عنه فيما بعد الى هذا اللفظ فخطأ لا يعتقده احد من أهل النظر » (١٠٢) . ثم اشار ابن جني بعد ذلك الى ان بعض ما افترض انه الاصل ، قد ورد فعلاً في بعض

(١٠١) المنصف : ١٩٠/١ .

(١٠٢) الخصائص : ٢٥٦/١ .

اللهجات او لضرورة الشعر : « ألا ترى انا نقول في الامر من المضاعف في التسمية نحو (شُدَّ) و (ضَنَّ) و (فِرَّ) و (استَعِدَّ) و (اصْطَبَّ) يا رجل) و (اطمئن يا غلام) ان الاصل (اشدُّد) و (اضمن) و (افرِّر) و (استعِدِّد) و (اصْطَبِّب) و (اطمأْنِن) ومع هذا فهكذا لغة اهل الحجاز وهي اللغة الفصحى القدمى « (١٠٣) . وذكر في موضع آخر :
» ... وكذلك قوله :

إني أجود لأقوام وان ضننوا

فان اصل (ضنَّت) اذن (ضنَّنت) بدليل قوله (ضننوا) « (١٠٤) .

ومضى داود عبده في مناقشة ابراهيم انيس قائلاً : « ونحن لو اخذنا برأي ابراهيم انيس لرفضنا ان يكون اصل (اصطبر) (اصتبر) لان الصورة الاخيرة لم ترد او ان يكون اصل (ازدهر) (ازتهر) لنفس السبب ، فان علينا ان نفسر لماذا يلفظ العرب تاء في (احترم) و (اجتمع) و (امتلك) ... الخ بينما تلفظ طاء في (اصطبر) ودالا في (ازدهر) مع ان هذين الفعلين من نفس الفئة السابقة ، فئة (افتعل) التي يلفظ العرب فيها عادة تاء بعد فاء الفعل . وليس كافيا ان يقال في تفسير هذه الامثلة : (هكذا جاء عن العرب) . فلو طلبت الى عربي ان يصوغ فعلا على وزن (افتعل) من جذر يتبدى بصاد للفظ تاء (افتعل) طاء ، ذلك ان وجود الدال له علاقة بالزاي ، ووجود الطاء له علاقة بالصاد ، وليس مجرد مصادفة . ان تغير التاء الى دال في (ازتهر) والى طاء في (اصطبر) جاء نتيجة قانون صوتي يسمى المماثلة أي assimilation . التاء وهي صوت مهموس تصبح مجهورة اي دالا مماثلة لصوت مجهور مجاور هو الزاي . وتصبح التاء وهي صوت غير مطبق صوتا مطبقا اي طاءا مماثلة للصاد التي هي صوت مطبق ، واعطاء مثل هذا التفسير لا يدخل في نطاق الفلسفة ، بل هو من صميم علم اللغة « (١٠٥) .

(١٠٣) نفسه : ٢٥٩/١ ، ٢٦٠ .

(١٠٤) نفسه : ٢٥٧/١ ، ٢٥٨ . (١٠٥) ابحاث في اللغة العربية : ١٥ .

وقال داود عبده ايضا : « كذلك لو اخذنا برأي ابراهيم انيس فرفضنا ان اصل (ميزان) (موزان) بحجة عدم ورود هذه الصورة فان علينا ان نقرر لماذا لم يكن الفعل الماضي (يَزَن) مادام الشيء الطبيعي ان تكون فاء (فعل) وفاء (مفعال) المشتق منها صوتا واحدا كما هو واضح من (نشر - منشار) و (فتح - مفتاح) و (حرث - محراث) الخ . فاذا كان رأي القدماء القائل ان الاصل في (ميزان) : (موزان) وان الواو قد انقلبت ياء رأيا غير مقبول ، فالبدل الوحيد له هو ان الياء في ميزان اصلية ، وان الفعل الماضي بالتالي ليس (وَزَن) في الاصل ، بل (يَزَن) وان الياء قد انقلبت واوا من هذا الفعل . المشكلة ان ليس هناك تفسير لغوي مقبول لانقلاب ياء (يَزَن) واوا ، ذلك انها لم تنقلب واوا في (ييس) او (يئس) او (يتم) او اية كلمة اخرى تبتدىء بياء . بينما يسهل تفسير انقلاب الواو ياءا في (موزان) في نطاق قانون لغوي سبق ان اشرنا اليه هو قانون المماثلة . فالواو تنقلب ياءا حين ترد ساكنة مسبوقة بكسرة ، وذلك مماثلة للكسرة تماما كما تنقلب الياء واوا اذا وردت ساكنة مسبوقة بضمة وذلك مماثلة للضمة : (مَثِقِن) ← (مَوْقِن) « (١٠٦) .

والحق ان ما قدمه داود عبده من ظواهر لغوية رأى انها تحتاج الى تفسير ، ولا يكتفى فيها بالوصف التقريري المجرد ، ليست كلها سواءا من حيث الحاجة الى هذا التفسير ، فتفسير بعض هذه الظواهر مطلوب وضروري لانه يقوم على طبيعة اللغة ، ويكشف عن بعض قوانين صوغ المفردات فيها ، او قل يستند الى ما يرتضيه نسيج الكلمات الصوتي ، وما ياباه هذا النسيج ، وذلك مثل تفسيره ابدال تاء (افتعل) طاءا او دالا اذا كانت فاء هذه الصيغة زايا او صاددا . وكذلك تفسيره ابدال واو (ميزان) ياءا . ولكن تفسيره لما ينبغي ان تكون عليه اصل الافعال الماضية الثلاثية الجوف او المعتلة الاخر ،

لا يدخل في نطاق التفسير اللغوي الصوتي القائم على طبيعة النسيج الصوتي للمفردة العربية ، وما يتألف في هذا النسيج من اصوات وما لا يتألف ، بل هو هو قائم على الفكرة الفلسفية التي سبقت الاشارة اليها ، وهي الفكرة التي تجعل الكلمة مؤلفة من (جوهر) وحده ، او من (جوهر) و (عَرَض) وان الذي يكشف عن هذا الجوهر والعرض هو الميزان الصرفي (فعل) ، فما طابق هذا الميزان من افعال ثلاثية لم تكن فيه مشكلة ، وما لم يطابقه اجتلب له من الحروف ما يظهر في مضارعه او في مصدره . وواضح ان فكرة الميزان الصرفي هذه مجتلبة من نظر غير لغوي ، اساسه قول المنطقة ان المادة جوهر وعرض طارئ عليه وهي فكرة ليست مما تفسر به صيغ اللغة وكلماتها .

ومما رأى داود عبده انه لا يكتفي فيه بالوصف وحده ، بل يجب تفسيره عدم وجود همزة مضارع الفعل الرباعي الذي على وزن (أَفْعَلْ) في حين انها موجودة في الماضي والامر والمصدر . فاللغوي في نظر عبده هنا « بين خيارين : اما ان يعتبر (كذا) »^(١٠٧) الفعل المضارع حاليا من الهمزة فتكون كلمات مثل (يَرْسِل) و (يَكْرِم) قد جاءت على اصلها ، وعليه ان يفسر وجود الهمزة في مثل (أَرْسَل) و (أَرْسِل) و (إرسال) الخ او ان يعتبر (كذا)^(١٠٨) ان الاصل وجود الهمزة في المضارع واسم الفاعل واسم المفعول كما في بقية المشتقات ويفسر سقوطها في الحالات التي لا تظهر فيها . ومن الواضح ان الرأي الثاني وهو الذي اخذ به اللغويون القدامى هو الرأي السليم . فتفسير سقوط الهمزة في (يَفْعِل) اسهل من تفسير اضافتها في (أَفْعَل) و (أَفْعِلْ) و (إفعال) .

« ان اعتبار (كذا)^(١٠٩) اصل مضارع أَفْعَلْ يَفْعِلْ بدلا من يَوْفَعِلْ

يلاقي صعوبات عديدة منها :

- (١٠٧) الصواب : ان يَفْعَلْ .
- (١٠٨) الصواب : ان يَفْعِلْ .
- (١٠٩) الصواب : ان يَفْعَلْ .

(١) ان احرف الزيادة في الفعل تظهر في جميع مشتقات الفعل وبينها المضارع كما يلاحظ مثلاً في فون (افعل) : (انصرف ينصرف انصرف) او تساء (افعل) : احترم يحترم احترام محترم محترّم او السين والتاء في (استفعل) .
 استقبال يستقبل استقبال مستقبل مستقبل الخ فلم تكون الهمزة شاذة ؟
 (٢) ان اعتبار الهمزة غير موجودة اصلاً يخل بقاعدة عامة هي صياغة الامر من المضارع المجزوم بحذف حرف المضارعة :

لا تُحاول ° حاول °

لا تُقل ° قل °

لا تلعب ° لعب °

فاذا كان فعل الامر الناتج بعد الحذف مبدوءاً بصوت صحيح ساكن كما في المثال الاخير طبقت قاعدة اخرى عامة هي اضافة (همزة وصل) في اول الكلمة لتجنب البدء بالساكن ... فيقال (اَلْعَب °) و (اِضْرِب °) الخ .
 « وبناء على هاتين القاعدتين وجب ان يكون الامر من مضارع (أفعل °) اذا كان الاصل فيه (يَفْعَل °) : (فَعِل °) لا تُرْسِل ° - رُسِل ° وكما يحدث لفعل الامر من (ضرب) مثلاً كان من الواجب ان يبدأ بـهمزة وصل فيقال : اِرْسِل ° ... ولكن من المعروف ان فعل الامر من وزن أفْعَل لا يلفظ كذلك وانما يلفظ بـهمزة قطع مفتوحة في اوله فيقال : (اِرْسِل °) « (١١٠) .

وقد رأى داود عبده ان اللغويين القدامى قد ادركوا هذه الامور فقرروا ان فعل الامر مشتق من (تَوْفَعِل) لا من (تَفْعِل) حتى تكون صيغة (أفْعِل °) نتيجة طبيعية بعد حذف (ت °) . اما حذف الهمزة وحركتها في

(١١٠) ابحاث في اللغة العربية : ١٩ ، ٢٠ .

المضارع فقد فسرہ القدماء تفسيراً مقبولا حين قالوا : « وانما حذفت احدى
الهمزتين من (أَكْرَم) لان الاصل فيه (أَأَكْرَم) فلما اجتمع فيه همزتان
كرهوا اجتماعهما فحذفوا احدهما تخفيفا ثم حملوا سائر اخواتها عليها في
الحذف » (١١١) . بمعنى انهم لم يقولوا في المضارع المسند الى الغائب (يؤكرم)
و (يؤرسل) وان لم تجتمع فيه همزتان ، بل قالوا : يكرم ويُرسل ، حملا
على المضارع المسند الى ضمير المتكلم .

وعندي ان هذا التفسير غير ضروري ، وان الوصف وحده كاف لعرض
حقيقة الفعل الرباعي المبدوء بهمزة نحو (أكرم) و (أرسل) وان القول : ان
الهمزة تختفي من مضارعه ، وتبدل بحرف مضارعة مضموم ، ولكنها تظهر في
أمره ومصدره ، هو تقرير لجال لغوية قائمة ملفوظة ، وما سوى هذا التقرير
هو إعانات للدارس ، وذهاب في المجهول .

ونحن اخيرا نوافق داود عبده على ان المنهج الوصفي نوعان : تقرير
ليس الامثل في اللغة دائما ، وتفسيره يكون مطلوبا احيانا لايضاح حقيقة
لغوية ، وتفسير وجه من التأليف تأتي عليه - دون غيره - مفردة من المفردات ،
على ألا يكون هذا التفسير مستندا الى نظر غير لغوي ، او قائما على فكرة
دخيلة على الدرس ، او ألا يكون هذا التفسير بدافع تسويغ ظهور حرف او
اختفاء آخر من بعض الصيغ او الكلمات فان مثل هذه الامور تقرر وتوصف
على الوجه الذي تظهر عليه ، ولا ينبغي للغوي الواصف ان يشغل نفسه
بعوارض تظهر على الكلمة ، ويكفي ان يقال عنها انها من خصائص التصريف
في هذه الصيغة او تلك .

وأما ما ذهب اليه أنيس فريجة وبعض من اخذ برأيه من اللغويين المحدثين
من ان اي مقدار من التفسير لبعض الظواهر اللغوية ، هو انحراف عن المنهج

(١١١) الانصاف في مسائل الخلاف (ابو البركات الانباري) : ١٢/١ ، ط ١٩٦١

اللغوي السليم ، فهو رأي لا يخلو من غلو ومجانبة للصواب ، فتفسير الظاهرة اللغوية بما يصح ان يكون سببها ، والباحث عليها ، امر يقره المنهج العلمي ، وتقضي اصول البحث والتدريس بتشجيعه (١١٢) .

فالمنهج الوصفي اذن لا يعني « ان يقف الباحث اللغوي في مجال عمله عند حدود الوصف ، وانما النتائج التي يتوصل اليها لا تخلو من الحاجة الى موقف الباحث لايجاد تفسيرات لغوية على ألا تخرج عن روح اللغة ومنطقها . فالوصف المقرون بالتفسير او التحليل مبدأ عام في العلوم كافة ، ورغبة طبيعية عند الباحث في معرفة طبيعة بحثه تدفعه الى ذلك مهارته ، ثم ان الوظيفة الاساسية للعلم هي الوصف والتفسير » (١١٣) .

المنهج الوصفي والتقدير في النحو :

مما قرره الوصفيون رفضهم التقدير في النحو ، ومن هؤلاء الوصفين انيس فريجة الذي قال : « المدرسة الوصفية لا تقبل اطلاقا بمبدأ التقدير ، بل تأخذ بواقع اللغة » (١١٤) . وقد ناقش داود عبده هذا المبدأ من مبادئ المنهج الوصفي في اللغة ، فذهب الى « ان كثيرا من تقديرات النحاة لا سند لها لغويا ، وقد لجؤوا اليها لتبرير (كذا) (١١٥) حركة اعراب او للحفاظ على قاعدة تبناها ، ولم يشاؤوا تغييرها » (١١٦) . ومن هذه التقديرات تقديرهم خبر (إن) محذوفاً في قول عمر بن ابي ربيعة :

اذا اسودّ جنح الليل فلتأت ولتكن خطاك خفافا ان حراسنا أسدا
وجعلهم إياه (كائنون) لتسوينغ نصب (أسد) . وتقديرهم ضمير الشأن في مثل قولهم : (ان بك زيد مأخوذ) لتسوينغ عدم نصب (زيد) . والنحاة يعدون الفاعل في جملة مثل (الرجل ذهب) ضميراً مستترا تقديره (هو) للحفاظ

(١١٢) ينظر كتابنا : في حركة تجديد النحو وتيسيره في العصر الحديث : ١٥٥ ، بغداد ، ١٩٩٥ .

(١١٣) المنهج الوصفي في كتاب سيويه : ١٤ .

(١١٤) نظريات في اللغة : ١٤٣ . (١١٥) الفصح : لتسوينغ .

(١١٦) أبحاث في اللغة العربية : ٢١ .

على القاعدة التي تنص على ان يلي الفاعل الفعل على الرغم من ان ليس هناك مانع لغوي من وقوع الفاعل قبل الفعل . ومن تقديرات النحاة تقديرهم فعلا محذوفا يفسره الفعل الموجود في مثل قولهم : (زيدا ضربته) اذ الاصل فيه (ضربت زيدا ضربته) ، وسبب هذا التقدير تسويغ نصب (زيد) . ويقدرّون كذلك فعلا محذوفا يلي (اذا) الشرطية في مثل (اذا السماء انشقت) ، لان قاعدتهم تنص على ان ادوات الشرط لا يليها إلا الفعل ، ويقدرّون احيانا عبارة محذوفة ، كما فعلوا في الآية (والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما) اذ قالوا ان الاصل (والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما فيما فرض عليكم) ، وان عبارة (فيما فرض عليكم) المحذوفة هي الخبر ، وذلك للابقاء على القاعدة التي تنص على ان الخبر لا يكون طلبا . ومثل هذا قولهم ان اصل (مرتت بزيد الفاضل) بضم اللام (مرتت بزيد هو الفاضل) لان الفاضل لم ترد بالكسر كما تقتضي القاعدة (١١٧) .

ان هذه التقديرات وامثالها مما يرفضه داود عبده ، وهو على حق ، لان الغرض منها تسويغ حركة اعراب ، او الابقاء على قاعدة اصطدمت بما اثر عن العرب . غير ان داود عبده لم يستطع ان يرفض التقدير في مواضع اخرى لانه وجده ضروريا ، يقتضيه واقع اللغة ، وتتطلبه دواعي التعبير . ومن هذا التقدير الذي وجده داود عبده مقبولا ، بل ضروريا ما يأتي :

(أ) في جملة (ما كل سوداء ثمرة ولا بيضاء شحمة) لا بد من تقدير كلمة (كل) لان ما يفهم من هذه الجملة ليس ظاهرها ، بل (ما كل سوداء ثمرة ولا كل بيضاء شحمة) ، والحذف لتجنب التكرار امر مألوف في اللغات .

(ب) في جملة (اذهب الى بيتك) يكون تقدير (أنت) امرا ليس مقبولا حسب بل هو ضروري ، لان تركيب هذه الجملة اللغوي لا يستقيم بدونه .

(ج) تقدير (أن) محذوفة بعد (حتى) حين تسبق الفعل ، له ما يسوغه لغويا ، لان (حتى) حرف جر كما هو معروف ، وحروف الجر تسبق الاسماء

(١١٧) ينظر في هذه التقديرات وغيرها : ابحاث في اللغة العربية : ٢١ وما بعدها

والضمائر ، وما يعادل الاسم ليس الفعل وحده ، بل الفعل مسبوقا بـ (أن)
المصدرية ، اي (المصدر المؤول) •

(د) تقدير (إن) الشرطية وفعل مضارع يليها في جملة مثل (ادرس تنجح) ،
له ما يسوِّغه من الناحية اللغوية ، فكلمة (تنجح) في الجملة السابقة جواب
الشرط كما هو جليّ من المعنى • اي ان اصل العبارة (ادرس ان تدرس
تنجح) • وقد امكن حذف اداة الشرط والفعل الذي يليها لان في فعل الامر
وجواب الشرط ما يدل على المعنى المطلوب ، والمتكلم يميل بطبعه الى الايجاز •
(هـ) تقدير حرف جر قبل المضاف اليه ضروري من الناحية اللغوية •

(و) تقدير كلمة (شخص) في بعض المواضع ضروري ، منها قولهم (ما
اخذها غيرك) فالاصل فيها (ما اخذها شخص غيرك) لان كلمة (غير) اداة
استثناء • وحين قدر مهدي المخزومي ذاتا محذوفة في مثل قولهم : (عجبت
له من ماهر في صنعته) اذ الاصل فيه (عجبت له من رجل ماهر في صنعته) اقره
داود عبده • ومن المواضع التي تقدر فيها كلمة (شخص) قولهم : (جاء الذي
وصل امس) ، فيكون الاصل (جاء الشخص الذي وصل امس) لان (الذي)
ليست سوى اداة لتعريف الجمل حينما تكون صفة • فداود عبده يرى ان
كلمة (الذي) تقوم مقام (الـ) التعريف ، ويؤتى بها عندما يوصف الاسم
المعرفة بجملة ، والجمل نكرات لا تصلح الا لوصف النكرات ، فاذا وصفت
بها المعارف ، وجب سبقها بكلمة (الذي) لتقوم بتعريف هذه الجمل ، فتطابق
الموصوف المعروف الذي يسبقها • فاذا قلنا : (جاء رجل طال شعره) كانت
جملة (طال شعره) صفة مطابقة في التنكير للموصوف (رجل) • واما اذا
قلنا : (جاء الرجل طال شعره) وجب تعريف جملة (طال شعره) بكلمة
(الذي) لتكون وصفا لـ (الرجل) مطابقا له من حيث التعريف • فـ (الذي)
بذلك هي اداة تعريف ، وليست اسما كما هو معروف عند النحاة • وعلى هذا
فان الجمل هي التي تحتاج الى كلمة (الذي) وليس العكس •

والحق أن داود عبده لم يكن على صواب في قبوله جميع التقديرات التي نقلناها عنه آتفاً ، وهاكم البيان :

(١) ان جملة (ما كل سوداء ثمرة ولا بيضاء شحمة) لا تحتاج الى تقدير كلمة (كل) قبل كلمة (بيضاء) ، ذلك ان العبارة مستغنية عن هذا التقدير ، وهي مفهومة بغيره ، بل انها — كما اعترف بذلك داود عبده نفسه — تفقد وجازتها بهذا التقدير .

(٢) ان جملة (اذهب الى بيتك) لا يحتاج فعل الامر فيها (اذهب °) الى تقدير فاعل مستتر هو الضمير (انت) ، اذ ان طبيعة صوغ هذا الفعل تدل على ان هذا الفعل هو امر للمخاطب المذكور ، فالهمزة المكسورة في اوله مورفيم صوتي يدل هو وسكون الباء وحركة الهاء على ذلك (١١٨) .

(٣) ان القول بتقدير (أن) بعد (حتى) اوجبه ما زعمه النحاة من ان الحرف لا يعمل الا اذا كان مختصاً ، ولما كانت (حتى) في زعمهم مختصة بالاسماء ، وعاملة فيها الجر ، اقتضى ذلك ألا تعمل في الفعل المضارع بعدها ، ويكون هذا الفعل منصوباً بـ (أن) مضمرة ، ليكون ما بعد حتى اسماً متمثلاً في المصدر المؤول الذي يعربونه في محل جر . وبهذا التقدير يحافظ النحاة على القاعدة التي افترضوها . ولا حاجة بنا الى التعليق على هذا التعسف الذي وقع فيه النحاة بسبب فرضهم على الواقع اللغوي قواعد واصولاً يأبأها هذا الواقع . ولا بد من الاشارة الى ان ثعلباً يذهب الى ان حتى هي الناصبة بنفسها (١١٩) .

(٤) ان القول بان المضارع في جملة مثل (ادرس تنجح) مجزوم على انه جواب لفعل شرط مقدر مع اداته (ادرس ان تدرس تنجح) قول لا ضرورة له ،

(١١٨) اصول النحو العربي : ٢٢٣ .

(١١٩) شرح المفصل (ابن يعيش) : ٢٠/٧ ، عالم الكتب ، الكويت .

وان جزم المضارع في الجملة المذكورة انما هو بالطلب نفسه بغير تأويل ولا تقدير ، وهذا هو مذهب بعض الكوفيين ، وفي مقدمتهم زعيمهم الكسائي (١٢٠) (٥) لقد ذهب داود عبده الى ان ما زعمه النحاة من تقدير حرف قبل المضاف اليه ، ضروري من الناحية اللغوية . فالنحاة يقولون : ان تعبير (كتابٌ خالد) و (بابٌ الدار) الاصل فيه (كتابٌ لخالد) و (بابٌ للدار) وان تعبير (خاتمٌ حديد) و (سوارٌ فضة) الاصل فيه (خاتم من حديد) و (سوار من فضة) وتعبير (مكر الليل) الاصل فيه (مكرٌ في الليل) . والحق ان الفرق واضح وجلي بين معنى التعبير بصيغة اضافة الاسم لما بعده ، ومعناه بصيغة تقدير حرف الجر بعد المضاف . ولم يبعد مهدي المخزومي عن الصواب حين قال : « اما النحاة - والبصريون منهم خاصة - يرون ان الكسرة انما هي اثر لاحد حروف الجر اينما وجدت ، سواء آكانت في المجرور بحرف ام في المضاف اليه ، وذلك لانهم آمنوا بفكرة العامل ، وبان كل حركة في الاسماء او في الافعال انما هي اثر من آثار العوامل » (١٢١) .

وقد فات داود عبده ايضا ان بعض صيغ الاضافة يمتنع فيها تقدير حرف جر قبل المضاف اليه كقولهم (ذهبتُ مع خالد) و (لدينا مزيد) وفي الاضافة غير المحضة نحو قولهم (فلانٌ حسنٌ الوجه) .

(٦) ذهب داود عبده الى ضرورة تقدير كلمة (شخص) في مثل قولهم (ما اخذها غيرك) اذ الاصل فيه (ما اخذها شخص غيرك) لان (غير) اداة استثناء .

والحق ان (غير) ليست للاستثناء ، وان النحاة جانبوا الصواب حين عدوها من هذا الباب . ولو ان النحاة فطنوا الى استعمال القرآن لكلمة (غير) لما تورطوا في رأيهم المشار اليه ، ذلك ان هذه الكلمة لم ترد في القرآن

(١٢٠) النحو الوافي (عباس حسن) : ٣٠٠/٤ .

(١٢١) في النحو العربي نقد وتوجيه : ٧٦ .

للاستثناء ، بل وردت فيه إما صفة وأما حالا وأما معربة بحسب موقعها من الكلام . فمن امثلة ورودها صفة قوله تعالى : (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) (١٢٢) . ومن امثلة ورودها حالا قوله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود احلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد واتم حُرُم) (١٢٣) . ومن امثلة ورودها معربة بحسب موقعها من الجملة قوله تعالى (فما تزيدونني غير تخسير) (١٢٤) .

وأيد داود عبده كذلك المخزومي حين قدر كلمة (رجل) في معرض حديثه عن اسم الفاعل ، وفي مثل قولهم (عجبت له من ماهر في صنعته) اذ الاصل فيه (عجبت له من رجل ماهر في صنعته) . ولم يظن داود عبده الى سبب تقدير المخزومي كلمة (رجل) في التعبير المشار اليه . فالمخزومي مثل الكوفيين يعد صيغة (فاعل) فعلا ، وان اتخذ مظهر الاسمية في جانبين : الاول اقترانه بالالف واللام التي لا تختلف عن اداة التعريف التي تلحق الاسماء والتي اختلفت عنها في المعنى ، فهي هنا لا تكسب صيغة (فاعل) تعريفا . والثاني تنوينه ، ولكن التنوين فيه ليس علامة للتكثير كما في الاسماء ولكنه علامة للدلالة على المستقبل . ومن هنا رأى المخزومي ان حق هذه الصيغة (البناء) لفعليتها ، ولكنها لم تبين وانما حملت على الاسماء في تحريك آخرها ، بمعنى ان الحركات في آخرها ليست دوال على معان اعرابية ، كما لم تكن الحركات في اواخر الافعال دوال على شيء من الاعراب . فحركات صيغة (فاعل) كما يرى المخزومي حركات اتباع للمجاورة . فقولنا (عجبت له من ماهر في صنعته) ليس المجرور فيه صيغة (فاعل) اذ لا يقع الفعل هذا الموقع ، وانما المجرور الحقيقي محذوف وتقدير الكلام (عجبت له من رجل ماهر في صنعته) وهذا يعني ان الجر في (ماهر) هو من باب الحمل على الجوار ،

(١٢٣) المائدة : ١ .

(١٢٢) النساء : ٥٦ .

(١٢٤) هود : ٦٣ .

وكذلك في قولنا : (رأيت ماهرا في صنعته) نصب (ماهر) لانه مفعول في الظاهر ، وليس الامر كذلك ، فاصل الكلام (رأيت رجلا ماهرا في صنعته) ونصب (ماهر) هو من باب الحمل على الجوار ايضا .

وواضح ان المخزومي قد تكلف في رأيه هذا ، ولجأ الى ما كان النحاة القدامى يلجئون اليه من توهم الفاظ ، وقد اخذ ابراهيم السامرائي على المخزومي تقدير مجرور حقيقي ومنسوب حقيقي في هذين المثالين ، ووجد في هذا التقدير تنكرا للمنهج الوصفي ، واخذا بالمنهج القديم الذي لا يكتفي باللفظ الظاهر ، ثم علق على هذا المنهج قائلاً^(١٢٥) : « وهذا المنهج اللغوي القديم مما لا يرضاه البحث العلمي الجديد ، فهو ذهاب في المجهول »^(١٢٥) .
وذهب داود عبده الى ان كلمة (الذي) هي عبارة عن اداة تعريف (ال) ، والفرق بين (ال) و (الذي) هو ان (ال) تعرف المفرد ، و (الذي) تعرف الجملة ، حين تكون صفة لكلمة معرفة ، لان الجمل نكرات ولا تصالح لوصف هذا النمط من الاسماء كقولنا (جاء رجل طال شعره) . فاذا وقعت الجملة صفة لمعرفة فلا بد من تعريفها بـ (الذي) اذ يقال (جاء الرجل الذي طال شعره) . فاذا وقعت (الذي) في صدر جملة لم يذكر موصوف قبلها ، وقدر ذلك الموصوف بكلمة (الشخص) ليصح وصفه بالجملة بعده ، وهي جملة معرفة بكلمة (الذي) لتطابق الموصوف المقدر في التعريف^(١٢٦) .

أرى أن داود عبده قد نأى عن الصواب في هذا التصور لكلمة (الذي) ، فليست هذه الكلمة مجرد اداة ، مهمتها تحويل الجملة بعدها الى صفة مطابقة من حيث التعريف للمفردة المعرفة قبلها ، بل هي عند المخزومي نوع من الكنايات « تعتمد في تبين المشار اليه على جملة موصوفة بها ، معهودة المضمون عند المتكلم ، والسامع جميعا » تقول : (لقيت الذي كنت تبحث

(١٢٥) الفعل زمانه وابنيته : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، بغداد ، ١٩٦٦ .

(١٢٦) ابحاث في اللغة العربية : ٥٩ وما بعدها .

عنه) • فهنا مشير هو المتكلم ، ومخاطب هو المواجه بهذا الكلام ، أما المشار إليه فغير حاضر ، ولكنه عرّف بالجملة التي اقترنت به ، والتي يعرف مضمونها كل من المتكلم والسامع ، وكانت الجملة اشارة ذهنية الى المشار اليه المكني عنه بالذي « (١٢٧) » .

وعدها تمام حسان نوعا من الضمائر التي تنقسم في العربية على ثلاثة اقسام : ضمائر الشخص وضمائر الاشارة وضمائر الموصول (١٢٨) •

ونظرة هذين الباحثين الى كلمة (الذي) وفروعها تتسم بالدقة ، وتقوم على وظيفتها الحقيقية في الكلام ، فهي لا تبلغ ان تكون اسما كما حسب القدماء ، ولا تنحط الى درجة الحرفية كما رأى داود عبده ، واذا كان الامر كذلك فلا معنى لتقدير هذا الباحث كلمة (الشخص) في مثل قولنا : (جاء الذي وصل امس) اذ الاصل فيه عنده (جاء الشخص الذي وصل امس) •

يتضح مما تقدم ان داود عبده لم يكن على صواب حين قال : « ان التقدير في اللغة ليس مرفوضا من حيث المبدأ ، وان كثيرا من تقديرات لغويينا القدماء يحتملها واقع العربية وتركيبها ، وان كنت لا افكر في الوقت ذاته (كذا) (١٢٩) ان دوافع النحاة الى بعض هذه التقديرات لا تتفق وعلم اللغة (١٣٠) » .

ان النماذج التي اوردها داود عبده دليلا على حاجة واقع اللغة العربية وتركيبها الى التقدير احيانا لم تظهر لنا هذه الحاجة ، فقد اوضحنا انها لا تختلف من حيث استغناء التراكيب عنه عن تلك التي رفضها هذا الباحث • وهذا يعني ان رفض المنهج الوصفي لمبدأ (التقدير) هو مظهر من مظاهر

(١٢٧) في النحو العربي قواعد وتطبيق : ٥٣ •

(١٢٨) اللغة العربية معناها ومبناها : ١١٠ •

(١٢٩) الصواب : في الوقت نفسه فذات ليست من الفاظ التوكيد •

(١٣٠) ابحاث في اللغة العربية : ٢٦ •

(موضوعية) هذا المنهج ، وان اقتصره على بحث الشكل المتحقق للغة ، او معطياتها التي ينطق بها المتكلم فعلا ، وابتعاده عن التصور والظنون او الحدس والتخمين دليل على دقته وسلامة نتائجه (١٣١) . بل نستطيع القول ان اعتماد المنهج الوصفي على ظواهر النصوص ، وتوجيهه جل اهتمامه الى التراكيب اللفظية الظاهرة ، قد جعل من هذا المنهج « منهجا علميا دقيقا ، يضارع العلوم الطبيعية والرياضية في خضوعها للمنهج العلمي المضبوط ، فهو نموذج للعلوم الانسانية وقدرتها على ان تصبح علوما دقيقة » (١٣٢) .

النحو العربي والمنهج الوصفي :

حين ظهر المنهج الوصفي كان « تحولا في دراسة اللغة ، وظل يسعى الى تغيير (النحو القديم) بما يوافق البحث العلمي الموضوعي » (١٣٣) . وقد كان اللغويون المحدثون في اوربا يطلقون على النحو القديم اسم (النحو التقليدي) ويعنون به « منهج النحو القائم على افكار ارسطو عن طبيعة اللغة اليونانية ، كما تتمثل في اعمال اليونان والرومان القدماء » (١٣٤) .

وقد نجم عن النظر في هذا النحو القديم في ضوء المنهج الوصفي بروز جوانب نقص كثيرة فيه ، فجمالها فيما يأتي :

(١) اهتمام النحو التقليدي بمعرفة (العلة) ، فالسؤال الذي لا ينفك يشغل اصحابه هو : لم كان هذا هكذا ولم يكن غير ذلك ؟ وواضح ان هذا الاهتمام بالتعليل « كان نتيجة صدور هذا النحو عن الفكر الارسطي ، اما النحو الوصفي فهمته الوحيد هو ان يقرر الحقائق اللغوية حسبما (كذا) (١٣٥) تدل عليها الملاحظة دون محاولة تفسيرها بتصورات غير لغوية » (١٣٦) .

(١٣١) اصول النحو العربي : ٢١٤ ، ٢١٥ .

(١٣٢) المنهج الوصفي في النحو العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري : ١٣ .

(١٣٣) النحو العربي والدرس الحديث : ٤٥ .

(١٣٤) النحو العربي والدرس الحديث : ٤٥ . (١٣٥) الصواب : بحسب ما

(١٣٦) النحو العربي والدرس الحديث : ٤٦ .

(٢) ونتيجة لاعتماد النحو التقليدي على المنطق الارسطي جعل هذا النحو (الجملة الخبرية) اساس البحث اللغوي ، ونظر الى الانماط الاخرى من الجمل على انها اشكال (منحرفة) عن الجملة الخبرية ، اما النحو الوصفي فينظر في جميع (النطوق اللغوية) ويقوّم كلا منها بحسب خصائصه المميزة له (١٣٧) .

(٣) وقد اشرنا في موضع سابق الى ان اللغويين الاوربيين - قبل ظهور المنهج الوصفي - قد درسوا لغاتهم في ضوء ما تقرر في اللغة اليونانية والرومانية دون ان يلاحظوا ان بين لغاتهم وهاتين اللغتين المنقرضتين بونا بعيدا ، فأدى بهم ذلك الى خلط شديد في فهم ظواهر كل لغة .

(٤) لم يميز النحو التقليدي بين (اللغة المنطوقة) و (اللغة المكتوبة) ، ولم يلاحظ ان لكل منهما نظاما خاصا ، قد يختلف اختلافا كبيرا عن صاحبه ، بل ان هذا النحو قد اولى انواعا معينة من (اللغة المكتوبة) جل اهتمامه ، فترتب على ذلك انه قدم قواعد اللغة على اساس (معياري) او جمالي (تقويمي) ، فهذا استعمال (عال) وذاك استعمال (متوسط) وذلك استعمال (قبيح) او (شاذ) . وقد كنا اشرنا ايضا الى ان الاهتمام بـ (اللغة المكتوبة) قد صرف الدارسين عن العناية بالاصوات اللغوية ، وان هذا العنصر من البناء اللغوي لم يدرس الا في ظل المنهج الوصفي .

تلك هي اهم جوانب النقص في النحو التقليدي ، التي تلمسها اللغويون الاوربيون المحدثون الاخذون بالمنهج الوصفي .

وكما نظر اللغويون الاوربيون المحدثون في النحو التقليدي في ضوء المنهج الوصفي ، كذلك فعل اللغويون العرب المحدثون بعد ان انتقل اليهم هذا المنهج ، نتيجة اتصالهم بالغرب ، فأسفر هذا النظر عن تلمس مظاهر من المنهج الوصفي تمثلت في اعمال النحاة العرب القدماء ، وهو ما لم يجده

(١٣٧) نفسه : ٤٦ ، ٤٧ .

اللغويون الاوريون في اعمال النحاة اليونانيين والرومانيين • وسنوجز هذه المظاهر بما يأتي :

(١) لقد اعتمد النحاة العرب في جمع اللغة على الاتصال المباشر بالمتكلمين بها ، وتلقفوا من افواههم ضروب الاستعمال اللغوي ، والوان النطوق ، فقد ذكرت لنا كتب التراجم رحلة أئمة النحاة الى البادية ، وبرزت حرصهم على استقاء الصور الواقعية للكلام كما ينطق بها البداءة • وليس ببعيد عنا ما عرف عن الكسائي من انه انقد خمس عشرة قينة حبرا في الكتابة عن العرب سوى ما حفظه (١٣٨) •

وقد اشرنا فيما مضى من هذا البحث الى ان الاتصال المباشر بالواقع اللغوي يعد اصلا من اصول النحو الوصفي • ويبدو ان النحاة العرب قد تأثروا في حرصهم على هذا الاصل بالمناخ العام الذي نشأت فيه الحركة العلمية عامة ، وهو مناخ اساسه النقل والرواية ، فالقراءات القرآنية كانت نقلا محضا ، وكذلك رواية الحديث ، فكان لا مناص عن ان يتأثر النحو العربي بهذا المناخ العقلي العام ، ويستمد منه اصول منهجه فيكون فيه جانب وصفي لا يخطئها الباحث (١٣٩) •

(٢) ان ما اثر عن ابي الاسود الدؤلي من عمل يتصل بضبط النص القرائي يعد عملا وصفيا لان اساسه الملاحظة المباشرة لقراءة النص ، فقد قال لكاتبه : « اذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه الى اعلاه ، وان ضمنت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف وان كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف » (١٤٠) • وعمل ابي الاسود هذا يمثل قارئاً يقرأ وكاتباً يلاحظ حركة

(١٣٨) نزهة الالباء (الانباري) : ٢٥ ، تح . محمد ابي الفضل ابراهيم ، دار نهضة مصر .

(١٣٩) النحو العربي والدرس الحديث : ٥٤ ، ٥٥ .

(١٤٠) (الفهرست ابن النديم) : ٥٩ ، ٦٠ ، القاهرة ١٩٧٩ .

شفتيه ليضع رموزا تصور هذه الحركة • ولا يخفى ان تعبيرات ابي الاسود التي اطلقها على حركة شفتيه من فتح وضم وكسر كانت اساس المصطلحات الاعرابية في النحو العربي •

(٣) ان الذي يتتبع اعمال النحاة الاوائل يجد ان كثيرا مما قرروه من احكام كانت وصفا تقريريا محضا لكلام العرب ، يخلو من التعليل والتأويل والتقدير • فكتاب سيبويه مثلا حافل بالعبارات التي تدل على ان كثيرا من القواعد التي انتهى اليها انما اقامها على الاستعمال اللغوي ، وكان فيها مجرد واصف لكلام العرب • ومن هذه العبارات التي تكررت كثيرا في كتابه قوله : (فأجره كما أجره وضع كل شيء موضعه) ، او (فأجره كما أجرته العرب واستحسنه) (١٤١) • وقوله : (لان هذا اكثر في كلامهم وهو القياس) (١٤٢) • وكلمة (القياس) عند سيبويه وغيره من النحاة الاوائل لم تكن إلا متابعة كلام العرب ، وجمع المتناظر منه في اطار حكم عام ، او قانون لغوي • ولم يتخذ غير هذا المسار إلا على ايدي النحاة المتأخرين الذين احواله الى قياس صناعي ، ليس هذا مكان الحديث عنه •

(٤) لقد عرفت مدرسة الكوفة بانها مدرسة وصفية ، ولكن ذلك ينبغي الا يكون حكما عاما ، ففي مجمل اعمال المدرستين ما ينأى بهما كليهما عن جادة الوصف ، غير ان في تراث الكوفيين — شأنهم في ذلك شأن البصريين — عبارات تظهر لنا نزعة وصفية صريحة ، ولعل اشهر هذه العبارات ما روي عن الكسائي حين سئل « في مجلس يونس عن قولهم : لا ضربنَّ أيَّهم يقوم ، لم لا يقال : لا ضربنَّ أيَّهم يقوم ؟ فقال : اي هكذا خلقت » (١٤٣) • وقد علق باحث معاصر على عبارة الكسائي هذه قائلا « ولسنا نعرف تعبيراً ادل على الوصف المحض من تعبيره (اي هكذا خلقت) » (١٤٤) • وقد اثر عن ابن فارس — وهو

(١٤١) الكتاب : ٢٧٥/١ ، ٢٧٦ •

(١٤٢) نفسه : ٤٠٣/١ • (١٤٣) الخصائص : ٢٩٢/٢ •

(١٤٤) النحو العربي والدرس الحديث : ٥٩ •

كوفي - في كتابه (الصاحبى) تعبير يشهد له بالنزعة الوصفية فيما دون من احكام اللغة وقوانينها ، فقد كان يقول : (ومن سنن العرب كذا وكذا...) (١٤٥) (٥) ومن مظاهر الوصف في النحو العربى دراستهم الظواهر اللغوية على اساس (شكلي) • وقد مرّ بنا ان دراسة اشكال اللغة وابنيته التركيبية مبدأ من مبادئ المنهج الوصفى •

لقد تناول النحاة العرب ظواهر اللغة كالتأنيث والتذكير والتعريف والتنكير والافراد والتثنية والجمع والعلاقة بين الفعل والفاعل والمبتدأ والخبر على اساس (الاشكال) لا على اساس (المعاني) • ويكفى للتدليل على هذا معالجتهم لجمله مثل (ضارب زيد عمرا) ، فقد صنفوا الاسم الاول بانه فاعل والاسم الثانى بانه مفعول ، على الرغم من انهما مشتركان في احداث الفعل « ولكن تحليل (الاشكال) هو الذي جعلهم يطرحون المعنى عند فهم التراكيب » (١٤٦) •

وقد فطن ابن جنى الى هذا الاصل من اصول النحو العربى فتناوله في غير موضع من كتبه ، منها ما قاله في باب (الرد على من اعتقد فساد علل النحويين لضعفه هو في نفسه عن احكام العلة) : « وهذا كقولهم : يقول النحويون ان الفاعل رفع والمفعول به نصب وقد ترى الامر بضد ذلك ، الا ترانا نقول : ضرب زيد فرفعه وان كان مفعولا به • ونقول : ان زيدا قام فننصبه وان كان فاعلا • ونقول : عجبت من قيام زيد فنجره وان كان فاعلا • ونقول ايضا : قد قال الله عز وجل (ومن حيث خرجت) فرفع (حيث) وان كان بعد حرف الخفض ، ومثله عندهم في الشناعة قوله - عز وجل - : (لله الامر من قبل ومن بعد) وما يجري هذا المجرى • ومثل هذا يتعب مع هذه الطائفة لاسيما اذا كان السائل عنه من يلزم الصبر عليه • ولو بدأ الامر باحكام الاصل لسقط عنه هذا الهوس وذا اللغو ، ألا ترى انه لو عرف ان الفاعل

(١٤٥) الصاحبى : ينظر مثلا : ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ... الخ •

(١٤٦) النحو العربى والدرس الحديث : ٥٩ •

عند اهل العربية ليس كل من كان فاعلا في المعنى وان الفاعل عندهم انما هو كل اسم ذكر بعد الفعل وأسندت ونسبت ذلك الفعل الى ذلك الاسم ، وان الفعل الواجب وغير الواجب في ذلك سواء ، لسقط صراع هذا المضعوف السؤال « (١٤٧) » .

وكما تلمس اللغويون العرب المحدثون بعد اطلاعهم على المنهج الوصفي مظاهر من هذا المنهج في اعمال النحاة القدامى كذلك ظهرت لهم في اعمال هؤلاء النحاة ملامح تأت بهم عن جادة الوصف ، وشكلت ما يمكن ان يسمى جوانب (نقص) في تلك الاعمال ، تشبه جوانب (النقص) التي ظهرت للغويين الاوربيين المحدثين في اعمال النحاة اليونان والرومان التي تقدمت الاشارة اليها . وسنشير فيما يأتي الى هذه الملامح التي خرجت بالنحو العربي عن المنهج الوصفي :

(١) لم تكن دراسة النحاة العرب للغة « في ذاتها ومن اجل ذاتها » كما يتطلب ذلك المنهج الوصفي ، بل كانت دراستهم لها لغرض تعليمي ، الهدف منه تنقية اللغة من اللحن الذي بدأ يغزو السنة الناس ، ويفشو في كلامهم ، حتى استوى في ذلك عامتهم وخاصتهم . قال ابو بكر الزبيدي : « ولم تزل العرب في جاهليتها وصدر من اسلامها تبرع في نطقها بالسجية ، وتكلم على السليقة ، حتى فتحت المدائن ، ومثرت الامصار ، ودونت الدواوين ، فاحتك العربي بالنبطي ، والتقى الحجازي بالفارسي ، ودخل الدين اخلاط الامم وسواقط البلدان ، فوقع الخلل في الكلام ، وبدأ اللحن في السنة العوام ، فكان اول من استدرك ذلك ، وحاول اصلاح فسادة ابو الاسود ظالم بن عمرو الدؤلي ، فالف ابوابا من النحو ذكر فيها عوامل الرفع والنصب والجر والجزم ، ودل على الفاعل والمفعول والمضاف ، ثم فشا اللحن وكثر بعد اختلاط الناس وكثرتهم ونشوء الذرية على فاسد من لفظهم ، فاقتفى اثر ابي الاسود جملة

(١٤٧) الخصائص : ١/ ١٨٥ وينظر : النحو العربي والدرس الحديث : ٥٩ ، ٦٠ .

ممن اخذوا عنه ، ففرعوا على ما اصّله ، وبنوا على ما اسسه ، فوضعوا
للعربية قياسا ، ونهجوا اليها سبيلا ، حتى انتهى ذلك الى الخليل بن احمد
الفراهيدي ففتح ابواب النحو ، ومدّ اطنابه ، واوضح علله ، وبلغ اقصى
حدوده ، واستوعب فيه غاية مراده ، وكان في علمه هذا لا نظير له ، وفردا
لا قرين معه « (١٤٨) » .

وقد تنبه الى هذه الحقيقة اللغويون المعاصرون ، فقال تمام حسّان :
« إن الغاية التي نشأ النحو العربي من اجلها ، وهي ضبط اللغة ، وايجاد
الاداة التي تعصم اللاحقين من الخطأ ، فرضت على هذا النحو ان يتسم في
جملته بسمة النحو التعليمي لا العلمي ، او بعبارة اخرى ان يكون في عمومته
نحوا معياريا لا نحوا وصفيا » (١٤٩) .

وكان المستشرق برجستراسر قد اشار الى ان دارسي اللغة الاوائل قد
تعدوا وظيفة (العالم) الى وظيفة (المعلم) بسبب « مداومتهم على السؤال
عن الجائز في اللغة وضده ، وعلى المنع عن كثير من العبارات ، وهذا وان كان
واجبا نافعا فهو عمل المعلم لا العالم ، فالعالم يفحص عما يكون في الحقيقة ،
لا عما كان ينبغي ان يكون ، والمعلم لا يظن ان تعليمه اقوى من الحياة ، فان
نسي هذه النصيحة ، واجتهد ان يقهر حياة اللغة ويعوقها ، جازته وغفلت عن
تعليمه ، فيتسع اذن الشق الحاجز بين اللغة الحقيقية الحية ، وما يعلمه النحويون
كما نشاهد ذلك في تاريخ اللغة العربية » (١٥٠) .

(٢) خلط المراحل الزمانية :

لم يدرس النحاة الاوائل العربية في مرحلة زمنية محدودة ، كما يتطلب
ذلك المنهج الوصفي ، بل درسوها في حقبة واسعة ، امتدت نحو ثلاثة قرون ،

(١٤٨) لحن العوام (ابو بكر الزبيدي) تح . رمضان عبد التواب : ٤ ، ٥
ط ١ ، ١٩٦٤ .

(١٤٩) اللغة العربية معناها ومبناها : ١٣ .

(١٥٠) التطور النحوي للغة العربية : ١٣٧ ، ١٣٨ .

كان نصف هذه المدة قبل الاسلام ، ونصفها الآخر بعده ، اذ وقفوا في جمع نصوص اللغة عند النصف الاول من القرن الثاني الهجري ، ولما كانت اللغة لا تبقى ساكنة بمرور الزمن ، بل تعرض لها انماط من التغير ، فقد ادى تناول اللغة في هذه المساحة الزمنية الواسعة الى ان تكون المادة اللغوية المدروسة غير متجانسة ، اذ كان بعضها ينتمي بخصائصه الى مرحلة غابرة ، لم يسبق في الاستعمال الحي في العصر الذي درست فيه اللغة ما يمثل تلك الخصائص ، او يكون شاهدا عليها ، وكان بعضها الآخر لا تزال خصائصه حية تجري بها الالسة ، وتتداولها الاقلام .

وقد ترتب على تباين المادة اللغوية المدروسة زمانيا ، ان تكون القواعد المبنية على هذه المادة متعارضة متصادمة ، ينقض بعضها بعضا . وقد تجلّى هذا التصادم والتعارض في القواعد في كثرة الوجوه التي تروى للظاهرة الواحدة ، او في الموضوع النحوي الواحد . وكان المنهج اللغوي السليم يقضي بان يقصر النحاة دراستهم للغة على عصر محدد ، يضمن فيه استقرار اللغة ، ومحافظة على خصائصها ، بحيث لا تحدث في اثنائه تغيرات ذات اهمية . واما الظواهر اللغوية التي تنتمي الى عصور غابرة ، وما ينشأ عنها من قواعد ، فقد كان على اولئك النحاة تنحيتهما من طريقهم ، لتدرس في اطار المنهج التاريخي . ولو فعل النحاة العرب ذلك لبرئت بعض قواعد العريضة مما عرفت به من تناقض وتعارض .

لقد فات النحاة العرب ان تضيق زمن المادة اللغوية يسهل وصف اللغة ، وينفي عنها تداخل السمات ، واختلاط الخصائص ، ويتيح لها ان تكون ساكنة مستقرة ، لا يدخلها تطور ، ولا يعتورها تغير . ويبدو ان عبده الراجحي قد اختلط عليه الامر حين قرر ان النحاة العرب قد وضعوا للغة التي تناولوها بالدراسة زمانا معيناً حين « حددوا عصر الاستشهاد بآخر العصر الاموي ، لما نعرف من عزوفهم الاخذ (كذا) » (١٥١) بلغة العصر العباسي التي تعرضت

(١٥١) الصواب : عزوفهم عن الاخذ .

لتأثيرات كثيرة من حضارات مختلفة ، وهذا التحديد الزمني قد يكون سببا في امتناع معظم النحاة عن الاستشهاد بالحديث لجواز روايته بالمعنى ولكثرة الرواة الاعاجم بين المحدثين « (١٥٢) .

صحيح ان النحاة وقفوا في استقرار النصوص اللغوية عند نهاية النصف الاول من القرن الثاني ، ولكن هذه الرقعة الزمانية التي تناولوها بالدراسة كانت واسعة ، قد تقلبت اللغة خلالها من حال الى آخر ، وقد ظهر هذا التقلب في عدم ثبات القاعدة في الباب النحوي الواحد .

(٣) خلط البيئات المكانية :

وكما خلط النحاة الاوائل المراحل الزمانية كذلك خلطوا الاماكن التي تؤخذ منها المادة اللغوية المدروسة ، فجعلوا الجزيرة العربية كلها ميدانا لدراستهم ، على ما نعرف عن هذه الجزيرة من ترامي الاطراف ، وتناهي البقاع ، وقد اشرنا الى ان اللغة تتغير باختلاف الاماكن كما تتغير بتباين العصور . ومعنى ذلك ان النحاة القدامى قد جمعوا المادة اللغوية من لهجات مختلفة . فعلى حين حاول البصريون ان ينتقوا ست قبائل هي قيس وتميم واسد وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين (١٥٣) وجدنا الكوفيين يوسعون مجال الاخذ ، فيأخذون عما احجم البصريون عن الاخذ عنهم من القبائل ، فكان كلا الفريقين بعيدا من المنهج الوصفي ، الذي يقضي بتضييق النطاق المكاني للغة المدروسة ، ليضمنوا استقرارها ، ويأمنوا تداخل سماتها واختلاط خصائصها .

وكما ترتب على سعة المرحلة الزمنية التي شغلتها المادة اللغوية المدروسة تناقض القواعد واضطراب الاقيسة المستنبطة منها ، كذلك ترتب الامر نفسه على سعة البقعة المكانية . فلم يكن غريبا ان تجد في قواعد النحاة ان للمفرد اكثر من جمع واحد وللفعل اكثر من مصدر واحد وان تجد عين المضارع

(١٥٢) النحو العربي والدرس الحديث : ٥٠ ، ٥١ .

(١٥٣) الزهر : ١١١/١ .

لا يستقر امرها على فتح او كسر او ضم ، وان تجد من يقول : (ما هذا رجل) و (ما هذا رجلا) وتجد من يقول : (ان الرجلين) ومن يقول : (ان الرجلان) ومن يقول : (لم يذهب) فيجزم بـ (لم) ومن ينصب بها فيقول : (لم يذهب) الى غير ذلك من تناقض في القواعد ، واضطراب في القوانين لا تعدمه في اي من ابواب النحو ، بسبب غياب التجانس عن المادة اللغوية المدروسة ، لانها لم تكن تنتمي الى عصر محدد ، او بقعة مكانية معينة .

وقد وقف ابراهيم انيس عند خلط النحاة القدامى للبيئات اللغوية ، فاخذ عليهم انهم لم يتقيدوا باللغة النموذجية المشتركة التي يلتزمها الناس في المجال الجدي ، وفي الاثار الادبية من شعر وثر ، وهو ما ينبغي ان يفعله من يريد ان يقعد للغة من لغات الامم الراقية التي تكون لها لهجات ذات صفات متباينة وتكون لها في الوقت نفسه « لغة نموذجية ادبية مشتركة ، تنتظم كل البيئات ، ويتطلع الى اتقانها ابناء هذه الامة » (١٥٤) .

فاذا اراد « عالم لغوي ان يقعد للانجليزية قواعد عمد الى استقراء صفاتها وخصائصها من مصدر واحد وهو لغتها النموذجية ، تاركا لهجات الانجليز للدراسات الخاصة التي يتوفر عليها الباحثون في الجامعات والمعاهد العليا . اما ما يتعلمه التلاميذ في مدارسهم ، وما يلتزمه الكتاب والخطباء والشعراء ، وما يتمسك به الناس في المجال الجدي من الحياة ، فيكاد يكون مقصورا على تلك اللغة النموذجية ، لا يخلط بينها وبين اللهجات في تقعيد القواعد . فاذا

سمع بعض الانجليز في منطقة خاصة يقول : *glukes my baby*

أو يقول : *you was with him.*

أو يقول : *give to J .*

لم يذكر ذلك اللغوي في قواعده ان من الانجليز اصحاب اللغة من

(١٥٤) من اسرار اللغة : ٢١ .

يعبرون هذا التعبير ، وينطقون بمثل هذه الاساليب • او على الاقل (كذا) (١٥٥)
لا يقول ان مثل هذه الاساليب جائزة مقبولة ، لا لشيء سوى انها صدرت
عن انجليزي ، والانجليزي عنده سليقة • فان فعل هذا احد اللغويين فقد
تنكب طريق الصواب في تقعيد القواعد ، وجاءنا بمزيج غريب فيه من
الاضطراب والخلط ما يأباه اللغوي الحديث » (١٥٦) •

غير ان القدماء من علماء العربية « لم يقصروا تقعيدهم على مصدر واحد
هو لغتها النموذجية الادبية كما كان الواجب ، بل اقموا معها اللهجات
العربية القديمة بصفاتها وخصائصها المتباينة ... ولذا جاءتنا قواعدهم
مضطربة ، تعددت فيها الوجوه ، واختلفت الاقوال في المسألة الواحدة » (١٥٧) •
(٤) خلط مستويات الاداء :

من خصائص المنهج الوصفي — كما سلف — تحديد المستوى الادائي
الذي يروم الباحث وصفه ودراسته ، ذلك لان لكل مستوى خصائص • والذي
جرى عليه النحاة العرب انهم نظروا في عدة مستويات ، فلم تكن المادة اللغوية
التي اخضعوها للدرس والملاحظة متجانسة ، اذ كان فيها شعر وثر وقرآن وامثال ،
ولكل مستوى من هذه المستويات خصائص وسمات لا يتوافر في المستوى
الآخر ، وقد ترتب على خلط هذه المستويات بعضها ببعض ان القواعد التي
استنبطت منها جاءت متعارضة ايضا ، بحيث تفتقر القاعدة الواحدة في الموضوع
النحوي الواحد الى العموم والاطراد ، او الى الثبات والاستقرار •

وقد كان المنهج الوصفي يقضي بان يدرس كل مستوى من هذه
المستويات بمعزل عن الآخر ، استكشافا لخصائص اللغة فيه ، واستجلاء
لقواعدها وقوانينها في ضوءه فتكون للعربية انحاء مختلفة ، فواحد للنشر

(١٥٥) الصواب : او في الاقل •

(١٥٦) من اسرار اللغة : ٢٢ •

(١٥٧) نفسه : ٢٢ ، ٢٣ •

وآخر للشعر وثالث للقرآن • وكان بإمكان النحاة العرب ان يجعلوا النحو المستتب من النثر الذي يعالجون به شؤونهم الفكرية والاجتماعية هو النحو الممثل للعربية النموذجية التي يتداولها الجمهور ، ويعمدون اليها في حال السعة والاختيار ، ويمكن ان يضم الى هذا النحو جميع صور الكلام التي تتألف معه ، شعرا كانت او قرآنا او امثالا ، واما ما يخرج عنه ، لسبب من الاسباب ، فيدرس في الاطار الذي يصلح له •

يتضح مما تقدم ان نحو العربية لم يبن على مادة لغوية موحدة زمانا ومكانا ومستوى ادائيا ، فنجم عن ذلك اضطراب قواعده وقوانينه ، مما ادى بالنحاة الى ان يقفوا من هذا الاضطراب في القواعد مواقف شتى ، فقد يلجؤون الى (التأويل) و (التقدير) اللذين كانا وسيلتهم احيانا في ان يردوا الى القاعدة العامة ما يخالفها من المادة اللغوية ، وقد اشرنا الى ان (التأويل) ليس من وسيلة الواصف ، لانه يحمله على تجاوز المنطوق الى عناصر يتوهمها فيه • واما اذا لم يستطع النحاة ان يتأولوا المادة اللغوية المخالفة للقاعدة فانهم يصفونها بالشذوذ او يصمونها بالخطأ •

وذهب عبده الراجحي الى « ان النحو العربي لم يقعد للعربية كما يتحدثها اصحابها ، وانما قعد لعربية مخصوصة تتمثل في مستوى معين من الكلام هو في الاغلب شعر او امثال او نص قرآني ، اي انه لم يوسع درسه ليشمل اللغة التي يستعملها الناس في شؤون الحياة ، وانما قصره على درس اللغة الادبية » (٥١٨) •

وقال : « على انا ينبغي ان نفهم الاشياء في سياقها ، فقد اشرنا الى ان النحو - شأن العلوم الاسلامية الاخرى - نشأ (لفهم) النص القرآني الكريم ، فاللغة التي توجه اليها النحاة هي هذا النص الذي هو مناط الاحكام

في الحياة الاسلامية ، والذي هو ايضا (اعجاز) لغوي ، ومن ثم كان توجههم الى النصوص الادبية - والشعرية منها بخاصة - لاستخلاص القوانين التي تدور عليها العربية التي نزل بها القرآن الكريم ونحسب ان هذا امر ضروري لفهم طبيعة النحو العربي ، وفي وضعه في اطاره الصحيح » (١٥٩) .

ثم قال : « غير اننا فلتت الى ان الحكم على النحو بانه اعتمد على هذا المستوى الخاص من اللغة فيه نصيب كبير من الصحة ، وفيه ايضا نصيب من التجوز . فالنحاة - في الحق - لم يأخذوا كل قواعدهم من (النصوص) العالية ، بل اتصلوا بالحياة اللغوية بمعناها الواسع ، ولازلنا (كذا) (١٦٠) نذكر ما قاله البصريون لعلماء الكوفة : (نحن تأخذ اللغة عن حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، واتم تأخذونها عن اكلة الشواريز وباعة الكواميخ) (١٦١) » (١٦٢) .

ان فيما نقلناه آنفا من كلام عبده الراجحي ثلاثة امور تستدعي التعليق عليها : الاول انه وصف القرآن والشعر والامثال بانها (مستوى معين) من الكلام ، ووضح انها ثلاثة مستويات ، لكل مستوى خصائصه وسماته ، وكان المنهج السليم يقضي بأن تنحى جميعها من دائرة الدرس ، ليقتصر على مستوى واحد هو النثر وما يوافقه ، ويجري مجراه من المستويات الثلاثة الاخرى ، اي الشعر والقرآن والامثال .

الثاني انه سوغ لجوء النحاة الى هذه النصوص العالية برغبتهم في فهم القرآن ، واستخلاص القوانين التي تدور عليها العربية التي نزل بها . وفاته ان النحاة كان بإمكانهم ان يقعدوا للعربية في مستواها الذي لا يرتفع الى (الاعجاز) ، بل يكون في حدود التعبير الذي يتأتى للمتكلمين بها في عفوية

(١٥٩) نفسه : ٤٩ .

(١٦٠) الصواب : وما زلنا .

(١٦١) الاقتراح (السيوطي) تح . د . احمد محمد قاسم : ٢٠٢ ، القاهرة ١٩٧٦

(١٦٢) النحو العربي والدرس الحديث : ٥٠ .

وتلقائية ، معززين اياه بما يناظره مما جاء في القرآن او الشعر او الامثال ،
تاركن لغة القرآن لتدرس في اطار آخر •

الثالث ذهابه الى أن النحاة لم يأخذوا قواعدهم من النصوص العالية ،
بل ضموا الى هذه النصوص لغة الحياة بمعناها الواسع ، مستدلا على ذلك
بالنص الذي نقله عن نحاة البصرة والكوفة • والصحيح ان النحاة هبطوا في
بعض قواعدهم الى لغة الحياة اليومية ، وتركوا لغة النصوص العالية ، ولكن
لا يستدل على هذا بالنص الذي اورده عبده الراجحي ، وانما بتلك الشواهد
المتهاففة الركيكة التي تخرج عن العربية في استعمالها العام المعهود • اما النص
الذي اورده عبده الراجحي فيصلح دليلا على ان البصريين جعلوا البداهة
شرطا للشواهد التي يعتمدون عليها ، والكوفيين لم يتقيدوا بهذا الشرط ، بل
اخذوا عن البداهة وعن غيرهم من سكان الارياف والحوضر •

(٥) تأثر النحو العربي « بالمنطق الارسطي منذ مراحله الاولى ، وان هذا
التأثر صار طاغيا في القرون المتأخرة ، وقد ادى ذلك الى ان يكون النحو
العربي (سوريا) وليس (واقعا) ومن ثم اهتم بالتعليل والتقدير والتأويل
ولم يركز درسه على الاستعمال اللغوي (كما هو) » (١٦٣) •

(٢)

المعيارية

إذا كان المنهج الوصفي^{١٦٤} ينسب الى سوسير ، ويذكر حين يذكر « فان (المعيارية) لا تنسب الى لغوي معين ، ومن ثم لا توجد لها ملامح او سمات او اوصاف مكتوبة ، في مؤلف من مؤلفات احد اللغويين ، بحيث يكون هو صاحب هذا المنهج وانه قد وضعه وحدد معالمه اولا ، ثم سارت الابحاث اللغوية عليه من بعد »^(١٦٤) . لذا نجد كمال بشر يقول : « والمعيارية فكرة تقليدية مشهورة تمثلها العبارة الاتية : اللغة هي ما يجب ان يتكلمه الناس ، وليست ما يتكلمه الناس بالفعل »^(١٦٥) . فقلوه (فكرة تقليدية مشهورة) تدل على انه « لم ينسبها الى احد ، ولم يصفها بانها منهج ، او يحدد نشأتها بزمن معين ، او يذكر بدء اشتهارها ، او يحدد ملامحها ، إلا بأنها اللغة كما يجب ان تكون »^(١٦٦) .

من اجل ذلك فانك غير واجد ذكرا لمنهج معياري عند بعض الباحثين المحدثين حين يذكرون المناهج التي تبحث اللغة في ضوئها .

فهذا تمام حسان يفرق بين ناحيتين من فواحي النشاط اللغوي ، هما -
ناحيتا الاستعمال اللغوي والبحث اللغوي ، فالاستعمال اللغوي وظيفة المتكلم ،
والبحث اللغوي وظيفة الباحث ، والاستعمال تطبيق لاسس معينة غير واضحة

(١٦٤) الكتاب بين المعيارية والوصفية (د. احمد سليمان ياقوت) : ١٦ ، ط ١ ، ١٩٨٩ .

(١٦٥) دراسات في علم اللغة ، القسم الاول (كمال بشر) : ٥٦ .

(١٦٦) الكتاب بين المعيارية والوصفية : ١٦ .

عند المتكلم ، والبحث تفتيش عن هذه الاسس ، حتى تكون واضحة عند الدارس . والاستعمال باعتباره تطبيقا يتوخى معايير معينة ، اما البحث فبوصفه تفتيشا يستخدم الاستقرار ، ليصل منه الى وصف الحقائق التي يصل اليها البحث . فمن اوضح وسائل الاستعمال المعيار ، ومن اوضح وسائل البحث الوصف . فالاختلاف بين الاستعمال والبحث خلاف من هذه النواحي جميعا (١٦٧) .

فالمعيارية عند تمام حسان بهذا المفهوم ليست منهجا تدرس اللغة في ضوءه وانما هي تصور معين للغة يراعي المستعمل ، ويعمل على مطابقته ، ولذا لم يربط تمام حسان بين المعيارية والمنهج في حين انه رأى ان الوصفية هي المنهج الامثل للدراسات اللغوية في العصر الحاضر .

اللغة اذن بالنسبة للمتكلم معايير تراعى ، وبالنسبة للباحث ظواهر تلاحظ ، وهي بالنسبة للمتكلم ميدان حركة وبالنسبة للباحث موضوع دراسة . فالتكلم يشغل نفسه بالمعايير ، والباحث يشغل نفسه بالمادة اللغوية المدروسة ، ويحسن التكلم اذا احسن القياس على معاييرها ، ويحسن الباحث اذا احسن وصف نماذجها .

وليس تمام حسان وحده هو الذي لم يربط بين (المعيارية) والمنهج الوصفي ، بل تبعه في ذلك عبده الراجحي في كتابه (النحو العربي والدرس الحديث) ، اذ لا تجد في هذا الكتاب كلمتي (المنهج المعيارى) او (النحو المعيارى) ، فقد استبدل بهما (النحو التقليدي) ، وهو ما اطلقه اللغويون الغربيون على النحو القديم ، ويعنون به منهج النحو القائم على افكار ارسطو ، وحين وصف النحو العربي لم يصفه بانه نحو معيارى ، بل قال : « ان النحو العربي نحو تقليدي ، يتميز بما تتميز به الانحاء التقليدية في كثير من اللغات » (١٦٨) .

(١٦٧) اللغة بين المعيارية والوصفية : ٤ ، ٥ .

(١٦٨) النحو العربي والدرس الحديث : ١٦٠ .

ومحمود فهمي حجازي حين تحدث عن مناهج البحث اللغوي في كتابه (علم اللغة العربية) لم يذكر بينها منهجا يدعى (المنهج المعياري) ، بل انه يستعمل (المعيارية) من غير استعمال كلمة (منهج) ، ويراها مرتبطة بالنحو التعليمي الذي يذهب الى انه (معياري) بل انه يباعد بين المعيارية وعلم اللغة لاختلاف مفهوم الاثنين^(١٦٩) فيقول : « اما النحو بالمعنى التعليمي المعياري اي بهدف وضع ضوابط الاستخدام اللغوي الصحيح لابنية المفردات وابنية الجمل ، فهو يختلف فيما يبدو عن علم اللغة ، فعلم اللغة يبحث اللغة او اللغات بهدف الكشف عن جوانبها المختلفة لا بهدف الحكم بالخطأ والصواب على الاستخدام اللغوي »^(١٧٠) .

ويشير احمد سليمان ياقوت الى انه لم يجد مصطلح (المنهج المعياري) واردا في المعجمات الاجنبية ، بل وجد فيها (المعيارية) غير مقترنة بكلمة (منهج) ، وقد عرفت بانها اصطلاح استعمله اللغويون لوصف اي اتجاه يهدف الى وضع ضوابط الصحة للغة كما يجب ان تستخدم . والملاحظ ان التعريف استخدم كلمة (اتجاه) مع (المعيارية) ، والاتجاه لا يرقى الى مرتبة (المنهج) المتكامل ، ولا الى مصاف (النظرية)^(١٧١) .

والذي يبدو لي ان (المعيارية) تظهر في دراسة اللغة مرتين : الاولى خلال عملية (الوصف) ، والاخرى بعد انتهاء الوصف من استخلاص قوانينها وصياغة نظامها . وهدف (المعيارية) حين تظهر خلال (الوصف) اطراد القواعد ، والحرص على تمثيلها للاستعمال العام للغة ، وتجنب ما ينقضها ويضطدم بها من الشاذ والنادر وسائر ما ينحرف عن مجرى اللغة العام ، لهذا السبب او ذاك .

ومن هنا يرى ابراهيم انيس انه كان على النحاة العرب ان يقفوا موقفا

(١٦٩) الكتاب بين المعيارية والوصفية : ١٦ .

(١٧٠) علم اللغة العربية : ٤٢ هـ ١٦ .

(١٧١) الكتاب بين المعيارية والوصفية ص ١٧ .

أكثر حزمًا من الظواهر الشاذة أو النادرة ، حتى لو كانت « لبعض الفحول
وشعراء الجاهلية كالنابعة » (١٧٢) .

وأما هدفها حين تظهر بعد انتهاء (الوصف) ، فالمحافظة على « الاستقرار
اللغوي بين مجموعة الفئات التي تنتمي إليها الأمة ، وتسجل به تراثها ، وتزداد
الحاجة إلى المعايير كلما كبرت الأمة واتسعت رقعتها الحضارية وامتد بها
الزمان » (١٧٣) .

وهذا يعني أن (المعيارية) لا تقتصر على العربية ، بل إنها قد تظهر في
اللغات الأخرى ، ولكن حاجة العربية إليها أمسّ لعلاقتها الخاصة بالقرآن
الكريم ، فكان لابد « أن يظل تطورها منوطاً - مهما اتسع - بالقواعد
(الأساسية) التي جاءت عليها لغة القرآن الكريم حتى يظل متسنى للأجيال
- مهما توسعت في تطويع اللغة لمتطلبات عصورها - أن تقرأ القرآن
فتفقهه » (١٧٤) .

ولولا هذه (المعيارية) التي روعيت - ولا تزال تراعى - في بحثنا
اللغوي ، لما ظهر هذا الفرق الكبير بين العربية وغيرها من اللغات القديمة
كالإغريقية والسانسكريتية والعبرية والسريانية والآرامية وغيرها ، « فهذه
اللغات لغات تاريخية أدت دورها ثم انقطعت عن الحياة منذ أمد بعيد . أما
العربية فهي لم تنقطع عن الحياة ، بل هي الشريان الذي تحيا به الحياة الثقافية
على مر العصور ، دون توقف إلى زماننا هذا ، وإن حصلت اختلافات عبر
العصور فهي يسيرة ، لا تحول بين الباحث اللغوي والبحث الدقيق لهذه
اللغة » (١٧٥) .

(١٧٢) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٩٣ وينظر مصدره .

(١٧٣) نفسه : ٩٤ .

(١٧٤) نفسه .

(١٧٥) نفسه : ٩٤ ، ٩٥ .

وهذا يعني ان الباحث اللغوي لا يكتفي في دراسة لغة ما بأن ينظر اليها في ضوء منهج معين ، وانما يحسن به ان يحتاط لنفسه فيكون على ذكّر من احكام المناهج والاتجاهات الاخرى ومبادئها ، « فالظاهرة اللغوية تشبه في الطبيعة الشكل المادي ، انها كالمكعب لا يكفي لوصفه ان نسلط عليه الضوء من نور مصباح واحد ، يضيء سطحا واحدا من مساحاته ، وتختفي عندئذ اسطحه الاخرى ، ولذا كان ادعى في محاولة الاحاطة بحقيقة الظاهرة اللغوية ان تسلط على ابعادها اضواء المناهج المتعددة ، وبحسب الحاجة الى ذلك » (١٧٦) .

المنهج التاريخي

نشأته :

يبدو ان المنهج التاريخي اقدم ما عرف اللغويون الاوربيون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من مناهج دراسة اللغة « فلو نظرنا في الدراسات السابقة للمنهج التاريخي لوجدنا انها دراسات نصية ترمي الى فهم النص من خلال المعايير المستقاة منه ، لغرض الوقوف على معناه ، اما تتبع الظواهر من حيث تطورها التاريخي فلم يكن مطلب الاساسي في تلك الدراسات » (١٧٧) .

فالغريون قبل معرفتهم المنهج التاريخي - والمنهج المقارن جزء منه - لم يكونوا يدرسون لغة النصوص (من اجل ذاتها) ، بل كانوا يدرسونها ليفهموا تلك النصوص ، ومن ثم يتخذون النصوص وسيلة لغايات اخرى كدراسة الثقافة او الادب في امة من الامم (١٧٨) . ومعنى ذلك ان اللغويين الاوربيين لم يجعلوا اللغة هدفا لدراستهم إلا بعد معرفتهم المنهج التاريخي . وقد اشرنا الى ان الدرس اللغوي قد اتخذ في القرن التاسع عشر طابع (التاريخ اللغوي) و (المقارنات اللغوية) ، غير ان بعض الدارسين اشار الى ان الطابع السائد في بداية القرن التاسع عشر كانت البحوث المقارنة ، وظلت كذلك حتى ١٨٧٠م حين ظهر علم اللغة التاريخي (١٧٩) . واحترس بعضهم من هذا التحديد الصارم ، ورأوا ان علم اللغة التاريخي قد ظهرت بشائره قبل ذلك ولاسيما

(١٧٧) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٢٢ .

(١٧٨) فقه اللغة في الكتب العربية : ١٩ .

(١٧٩) مدخل الى علم اللغة (محمد حسن عبدالعزيز) : ٢٨٥ .

عند (جريم) (١٧٨٥-١٨٦٣ م) الذي يعد عند هؤلاء مؤسس علم اللغة التاريخي (١٨٠) (١٨١) .

ومهما يكن فقد اخذ علم اللغة الحديث بالظهور في مطلع القرن التاسع عشر في صورة دراسات تاريخية مقارنة ، واستمر على هذه الصورة زماناً ، وقد أدت هذه المقارنات بين اللغات الرئيسية في العالم الى الكشف عن الخصائص الاساسية لهذه اللغات والى الوصول الى ما بينها من نسب ، كما « قدمت معلومات كثيرة عن التغيرات التي تطرأ على الكلام الانساني بحيث امكن الوصول الى الاصول العامة التي تسير عليها هذه التغيرات . نعم كانت هناك تأملات من قبل تتعلق بطريقة التغيرات اللغوية ولكنها كانت (تأملات) اي لم تكن مبنية على اساس علمي ، ولكن في اواخر القرن التاسع عشر حلت محل هذه التأملات نتائج قائمة على الاستدلال العلمي » (١٨٢) .

ولابد من الاشارة الى ان التصورات العلمية التي سادت في القرن التاسع عشر قد اثرت في مناهج اكثر لغويي ذلك العصر وفي نتائج دراساتهم .

(١٨٠) نفسه .

(١٨١) اشتهر (جريم) بدراسة التحولات الصوتية ، وقد اخذ عنه ما يعرف بقانون جريم في التحولات الصوتية ، وكان قد اعلنه عام ١٨٢٢ م . لقد اوضح جريم ان اللغات الجرمانية حين تضم احدى كلماتها **F**

يقابله في الكلمات المشتركة في اللاتينية واليونانية والسنسكريتية الحرف

P . وحين تضم **P** يقابله في اللغات الاخرى حرف **b**

وحين تضم الحرف الذي يرمز له بدائرة فيها خط افقي مائل (وهو صوت مهموس احتكاكي اسناني يشبه الشاء العربية) يقابله في اللغات الاخرى **T** . وقد فسر جريم هذه التقابلات بافتراض حدوث تغير صوتي في مرحلة

ما من تاريخ الجرمانية . [مدخل الى علم اللغة (محمد حسن عبدالعزيز) ٨٥] .

ما تقدم يشير الى ان (جريم) كان من اوائل اللغويين الذين درسوا اللغات درسا تاريخيا الهدف منه الكشف عن التغيرات التي تطرأ عليها ، ولذا عده بعضهم مؤسس المنهج التاريخي في دراسة اللغة .

(١٨٢) علم اللغة (السعران) : ٣٣٤ .

فالقرن التاسع عشر « هو قرن النزعة التطورية والعلوم الطبيعية ، وهو فترة عظيمة من فترات (التاريخ للظواهر) المختلفة في الدراسات المختلفة . وكان لنظرية دارون وللعلم الطبيعي اثرهما في دراسة التغيرات اللغوية على وجه الخصوص » (١٨٣) .

لقد تأثرت كثير من العلوم في القرن التاسع عشر بنظرية دارون ، التي كانت بدعة العصر عند ظهورها . ولم يكن علماء اللغة بدعا من غيرهم في هذا التأثير ، فقد رأوا فيها - كما رأى غيرهم - « حلا لكثير من مشكلاتهم فظهرت حوالي (كذا) (١٨٤) سنة ١٨٧٠ م مناهج جديدة للبحث في اللغة على اساس فلسفة جديدة ، او تصورات عامة جديدة هي ان طبيعة (التغيرات اللغوية) نفس طبيعة التغيرات التي تحدث في العالم الطبيعي ، ولاسيما عالم الحيوان والنبات ، وهكذا قال بعض علماء اللغة ان ما يعرض للغات من تغير انما هو بفعل (قوانين عمياء) (كذا) (١٨٥) » (١٨٦) .

واذا كان المنهج التاريخي اسبق الى الظهور في اوربا من غيره من المناهج ، فقد انبنى على ذلك اتجاه الاوربيين الى اللغات القديمة كال يونانية واللاتينية ، واهمالهم اللغات الحديثة التي كانوا يتكلمون بها ، ذلك لانهم نظروا الى اللغات الحية « على انها شيء متغير خداع وان الجزء الثابت منها الذي يستحق الدراسة هو ذلك الموجود في اللغة المكتوبة » (١٨٧) .

ولم يبعد المستشرقون عن اقرانهم من اللغويين الاوربيين في الاهتمام باللغات القديمة ، اذ انصرفوا الى دراسة العربية القديمة ، ثم توجهوا في القرن العشرين الى الاهتمام باللهجات المعاصرة (١٨٨) .

(١٨٣) نفسه : ٣٣٤ ، ٣٣٥ .

(١٨٤) الصواب : فظهرت نحو سنة ١٨٧٠ .

(١٨٥) الصواب : قوانين عملي .

(١٨٦) علم اللغة (السعرا) : ٣٣٥ .

(١٨٧) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٢٣ .

(١٨٨) نفسه .

طبيعته وخصائصه :

ان اهم ما يميز المنهج التاريخي انه يبحث لغة ما « في مكان محدد في مراحل زمنية مختلفة لبيان التغيرات التي لحقتها في اثناء تلك المراحل » (١٨٩) . ويرى بعض الدارسين ان هناك مصطلحا « يستعمل مرادفا لعلم اللغة التاريخي **diachronic Linguistics** مكون من **dia** بمعنى (عبر) و **chronic** بمعنى (زمن) ومصطلحا آخر يرادف علم اللغة الوصفي **Synchronic Linguistics** مكون من **syn** بمعنى (في) و **chronic** بمعنى (زمن) ويعني دراسة اللغة كما تبدو في نقطة معينة من الزمن » (١٩٠) .

فالمنهج التاريخي اذن يعنى بدراسة التغيرات التي تعترى لغة ما او مجموعة من اللغات عبر مسيرتها ، ومظاهر هذا التغير واسبابه ونتائجه . وهذا يعني ان هذا المنهج ينطلق من مفهوم (الحركة) او (الفاعلية المستمرة) التي تتميز بها اللغات ذلك ان « تغير اللغة عبر الزمان والمكان خاصة فطرية في داخل اللغة ، وفي كل اللغات كما ان التغير يحدث في كل الاتجاهات : النماذج الصوتية والتراكيب الصرفية والنحوية والمفردات ، ولكن ليس على مستوى واحد ، ولا طبقا لنظام معين ثابت . هذه التغيرات تعتمد على مجموعة من العوامل التاريخية » (١٩١) .

ويعد (التغير اللغوي) من اهم الافكار التي تمخض عنها علم اللغة الحديث ، ويعني هذا ان ظهور المنهج التاريخي مرتبط بظهور هذا المفهوم في الدراسة اللغوية ، اذ هو منهج قائم على تتبع مظاهر هذا التغير في لغة ما ، ومحاولة تفسيرها والكشف عن العوامل المؤدية لها .

(١٨٩) مدخل الى علم اللغة (محمد حسن عبدالعزيز) : ١٤٦ .

(١٩٠) نفسه .

(١٩١) اسس علم اللغة : ١٣٧ .

ولا يكون (التغير) دائما « فسادا في اللغة او انحرافا عن التعبير الصحيح — كما يعتقد اللغويون التقليديون — ذلك ان التغير في اغلب احواله ضرورة ملحة ، وهو ايضا حقيقة واقعة لا يمكن انكارها او التغاضي عنها » (١٩٢) .
فحين نحتاج الى كلمات جديدة للتعبير عن حاجات جديدة « قد تقترض من اللغات الاخرى ، فنضيف بذلك كلمات جديدة الى لغتنا ، وقد نضطر احيانا الى احياء كلمات مهجورة ، وقد نضيف الى معاني الكلمات التي نستخدمها معاني جديدة لتتسع لاغراضنا ، كل هذا يحدث ، وقد حدث شيء منه في تاريخ كل اللغات ، وهو عمل مشروع ، وحاجة ملحة وتغير ضروري » (١٩٣) .

وهذا يعني « ان اللغة تتغير باستمرار ، وان هذا التغير لا ينبغي ان يفسر دائما على انه فساد او انحراف » . ان دراسة التغيرات التي تصيب اللغة تقع في اطار ما يسمى علم اللغة التاريخي **Historical Linguistics** « (١٩٤) .

وهناك لغويون يعرفون المنهج التاريخي بانه دراسة تطور اللغة الواحدة عبر القرون ، في حين ان هناك لغويين آخرين « يرفضون كلمة التطور في هذا الاطار باعتبارها تحمل دلالة الارتقاء ، اي التغير الى الافضل ، وهذا حكم تقويمي وهو غير ممكن في مجال التغير اللغوي ، فليس هناك صيغة افضل من صيغة ، وليس هناك صوت افضل من صوت » . ولذا يفضل اكثر الباحثين المعاصرين وصف ما يحدث بانه تغير . وثمة فرق بين ان يقال ان اللهجات نتيجة تغير لغوي او انها نتيجة تطور لغوي « (١٩٥) .

فالظواهر الصوتية تدرس دراسة تاريخية « فيختار الباحث مراحل زمنية محددة ، ثم يقوم بدراسة الموضوع على حدة دراسة وصفية في كل مرحلة ، ثم يقارن بعد ذلك بين هذه المراحل المختلفة ليحدد التغيرات التي

(١٩٢) مدخل الى علم اللغة (محمد حسن عبدالعزيز) : ١٤٥ .

(١٩٣) مدخل الى علم اللغة (محمد حسن عبدالعزيز) : ١٤٥ .

(١٩٤) نفسه : ١٤٦ .

(١٩٥) مدخل الى علم اللغة (محمود فهمي حجازي) : ٢٤ ، ٢٥ .

حدثت ، وهكذا الامر اذا كانت الظواهر المدروسة صرفية او نحوية او معجمية « (١٩٦) . ويعد « من الخطأ ان يتجاوز الباحث المرحلة الزمنية التي اختارها او المكان الذي حدده ، والمستوى الذي عينه ، لانه ان فعل شيئا من ذلك اختلطت عليه الامور ، واضطربت النتائج » (١٩٧) .

فمؤرخ اللغة اذن « يراقب تطور الظاهرة ، ويرسم خطها البياني من حيث الاستعمال قلة وكثرة ، حياة وموتا ، ثم يحاول ان يبين القوانين التي تحكم مسار الظاهرة والعوامل اللفظية والحضارية التي قد اثرت فيها او تؤثر فيها او سوف تؤثر فيها . وعلى هذا فان الباحث التاريخي يعد نفسه مسؤولا عن الاجابة عن تاريخ الظاهرة اللغوية : ما اصلها ؟ وماذا اصبحت ؟ ومتى ؟ والى اين تتجه » (١٩٨) .

ومن سمات المنهج التاريخي ايضا انه يقوم على الجانب المكتوب من اللغة ، فالمادة اللغوية المنظوقة لمرحلة زمنية سابقة للمرحلة المعاصرة لا تتوافر لدى الباحث ، اذ ان وسائل التسجيل لم ت اخترع الا حديثا ، ولذا ليس امام الباحث إلا ان يلجأ الى الكتابة وهي وسيلة عاجزة لا تمثل المنظوق تمثيلا صحيحا (١٩٩) . فاعتماد المنهج التاريخي على الجانب المكتوب من اللغة يضاهي اعتماد المنهج الوصفي على المادة الكلامية لتكلمين احياء (٢٠٠) بل ان اتباع المنهج التاريخي يرون ان اللغة المنظوقة « شيء متغير خداع ، وان الجز الثابت منها الذي يستحق الدراسة هو ذلك الموجود في اللغة المكتوبة » (٢٠١) .

(١٩٦) مدخل الى علم اللغة (محمد حسن عبدالعزيز) : ١٤٨ .

(١٩٧) نفسه : ١٤٩ .

(١٩٨) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٢٢ .

(١٩٩) مدخل الى علم اللغة (محمد حسن عبدالعزيز) : ١٤٩ .

(٢٠٠) نفسه : ١٥٠ .

(٢٠١) نفسه : ١٤٩ .

ولذا ينبغي للباحث عند دراسة اللغة المكتوبة على الاحجار والصخور او على الطين واوراق البردي وغير ذلك « ان يحتاط في الاحتجاج بها وان يغلب الشك على اليقين في اغلب الاحيان ، كما ينبغي ان يدعم استنتاجاته بشواهد اخرى مثل ملاحظات العلماء القدامى او الكلمات التي تقرضها اللغة المدروسة من اللغات الاخرى ، او يدعم موقفه بالمعارف العظيمة التي تحققت بدراسة ميكانيكية النطق والسمع » (٢٠٢) .

ولاشك في ان اللغات تتفاوت في امكان دراسة جانبها المنطوق في مراحل تاريخية غير معاصرة ، فالعربية الفصحى قد احتفظت بصورتها المنطوقة حتى يومنا هذا ، متمثلة في قراءة كبار القراء للقرآن الكريم ، هذه القراءة ظل المتقنون من القراء يتناقلونها خالفا عن سالف ، بعد ان وضعوا للقراءة « قواعد محكمة احتفظت بصورة يعتقد انها لم تتعرض لتغيرات كبيرة كالتى حدثت في لغة الخطاب » (٢٠٣) .

ومما ساعد على احتفاظ العربية الفصحى بجانبها المنطوق حتى زماننا هذا ما امتازت به من الخصائص في بناء كلماتها وخضوعها لاوزان معينة ولطرق الاشتقاق المحددة ان كل ذلك يتيح لنا امكان تعرف بعض الحقائق الصوتية ، كما ان الشعر العربي الموزون المقفى ساعد الى حد كبير في تعرف هذه الحقائق .

ولابد من الاشارة هنا الى ان بعض الباحثين كانوا يتصورون ان المنهج التاريخي في دراسة اللغة « يمكن ان يكتفي بالمرحلة المبكرة في تاريخ كل لغة من اللغات ، اي اقدم المراحل المتاحة واقربها نسبيا من اللغة الاقدم (كذا) » (٢٠٤) . ولكن الوضوح المنهجي في علم اللغة يتيح وجود دراسات وصفية للمستويات

(٢٠٢) نفسه : ١٥٠ .

(٢٠٣) نفسه .

(٢٠٤) الصواب : اللغة القدامى .

اللغوية عبر القرون ، ويتيح ان تتكامل هذه الدراسات الوصفية الكثيرة لتمهد الطريق امام البحث التاريخي اللغوي بالمعنى الدقيق للكلمة ، اي البحث في تاريخ اللغة من اقدم نصوصها المدونة الى وقتنا هذا » (٢٠٥) .

ومعنى ذلك ان التاريخ اللغوي بإبعاده الكاملة « من شأنه ان يعطي صورة واضحة لتاريخ الحياة اللغوية ، ولا يقتصر هذا البحث على تغير البنية اللغوية من الجوانب الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية بل يتناول بالضرورة مستويات الاستخدام اللغوي في البيئات المختلفة وتغير ذلك عبر الزمن ، كما يتناول الانتشار اللغوي ودخول اللغة الى مناطق جديدة ، ويبحث ايضا الانحسار اللغوي عن مناطق بعينها » (٢٠٦) .

والعربية مثلا من اللغات التي كان لها في بعض مراحل حياتها وجود في اماكن عديدة غير رقعتها الاصلية ، ولكنها لم تبق في تلك الاماكن ، فقد انحسرت عن الاندلس وايران وعن مواضع من شبه القارة الهندية ، وان حركة العربية هذه خارج موطنها وجودا وانحسارا ، يدخل في اطار الدراسة التاريخية للغة .

آراء الباحثين فيه :

لقد قلل علماء اللغة الوصفيون من القيمة العلمية لدراسة اللغويات التاريخية التي تقوم على معطيات الوثائق والمدونات ، ودأبوا على ان يستبدلوا بهذه الطريقة في البحث طرائق اخرى يعتقدون انها اكثر جدوى ، وادق نتائج ، كما صرفوا همهم الى دراسة اللغات الحديثة التي يتداولها الناس ، وما يتشعب عنها من لهجات محلية . غير ان هناك لغويين آخرين لم يكتفوا بالغض من قيمة علم اللغة التاريخي بل اخرجوا هذا العلم من العلوم اللغوية . ومن هؤلاء (كريستال) « الذي يرى ان علم اللغة ينبغي الا ينظر اليه على انه دراسة

(٢٠٥) مدخل الى علم اللغة (محمود فهمي حجازي) : ٢٥ .

(٢٠٦) مدخل الى علم اللغة (محمود فهمي حجازي) : ٢٦ .

تاريخية للغة Diachronic ، ويفسر ذلك بقوله : ان علم اللغة يهتم بالدراسة غير التاريخية للغة synchronic اي دراسة مرحلة معينة من اللغة في وقت بعينه ، بغض النظر عن تاريخها السابق او اللاحق ، انه مثلا يبحث في اللغة الانجليزية كما تستعمل اليوم او كما كانت تستعمل في عصر شكسبير ، ولا يبحث في الطريقة التي تطورت بها اللغة الانجليزية في عصر شكسبير الى اللغة الانجليزية الحديثة ، ولا في الطريقة التي ستتطور بها الانجليزية المعاصرة الى انجليزية القرن الحادي والعشرين ، لان معظم القضايا المهمة التي تشغل عالم اللغة ليست قضايا تاريخية على الاطلاق ، وانما الذي يشغله قضايا مثل ما وظائف اللغة في المجتمع ؟ وهل كل اللغات لها تركيب واحد ؟ وما العلاقة بين اللغة والفكر ؟ ولكي نبحت مثل هذه القضايا ونحددها لابد لنا من ان ننظر نظرة غير تاريخية ، اي ننظر اليها كموضوع للبحث لابد من دراسته بطريقة تجريبية وبالمصطلحات الخاصة به مثلما ندرس تماما الظواهر الطبيعية او الكيمياءية » (٢٠٧) .

ولعل الذي دفع كريستال الى اخراج الدراسة التاريخية من نطاق علم اللغة امران : الاول ان التغير اللغوي لم يعد يشغل اللغويين اليوم كما كان يشغلهم في القرن التاسع عشر ، وان امورا اخرى استرعت انتباههم كالتسي اشرنا اليها انفا ، او كالاتفاة من نتائج العلوم اللغوية في المجالات العملية ، او ما يعرف اليوم بـ (علم اللغة التطبيقي) كصناعة المعجمات وتعليم اللغات القومية والاجنبية وعلاج امراض الكلام والعادات اللفظية والكلامية والترجمة وغير ذلك . الاخر ان دراسة التغير اللغوي لا تخضع لمقتضيات البحث العلمي ، وهو امر يجعل من المستبعد الوصول من دراسته الى نتائج يمكن التحقق منها تجريبيا (٢٠٨) .

(٢٠٧) مدخل الى علم اللغة (محمد حسن عبدالزير) : ١٤٧ ، ١٤٨ وينظر مصدره .

(٢٠٨) نفسه : ١٤٨ .

ويبدو ان رأي كريستال هذا في الدراسة التاريخية للغة مطابق لرأي سوسير الذي كان يؤكد تنحية الاعتبارات التاريخية من الدراسة اللغوية ، وكان يضرب لذلك مثلا « حين شبه اللغة بلعبة الشطرنج ، ففي اثناء اللعب تتغير حالة الرقعة باستمرار غير اننا في اي وقت نستطيع ان نصف حالة الرقعة وصفا كاملا بتحديد المواقع التي تحتلها قطع الشطرنج المختلفة ، ولا يعنينا - والحال كذلك - كيف وصل اللاعبان الى الحالة الراهنة التي وصفناها - آثما ، ولا يعنينا بأي وسيلة وبأية حركة او بأي عدد من القطع فعلا ذلك ، لقد وصفنا الحالة الراهنة للرقعة دون التفات الى حركة سابقة » (٢٠٩) .

فاللغات في رأي سوسير مثل رقعة الشطرنج تتغير باستمرار ، ويمكن وصفها في أي وقت دون الرجوع الى احوال سابقة كان لها تأثيرها في الحالة الموصوفة في الوقت المحدد (٢١٠) .

ولم يكن كريستال او سوسير على حق في الغض من القيمة العلمية للدراسة التاريخية للغة ، فاذا كان بالامكان الاكتفاء في عرض نحو اية لغة بوصف منظومتها النحوية ، فان « تحليل الظواهر التي توجد في هذه اللغة يظل امرا بالغ الصعوبة اذا لم يُعرف لهذه اللغة فترات تاريخية متباعدة يمكن المقارنة بينها ، ومعرفة صور التطور الناتجة عبر الاجيال الكثيرة . وعندئذ يمكنه الكشف عن السر الذي يكمن وراء احدي صور هذا التطور » (٢١١) .

فاللغة العامية التي تتكلم بها في هذا العصر ، يمكن وصفها من نواحيها المختلفة « ولكن معرفة سر وصول هذه النواحي المختلفة من صوتية وصرفية وتركيبية ودلالية وغيرها الى ما وصلت اليه كان من الممكن ان يظل لغزا لولا معرفتنا بالعربية الفصحى . وكان من الممكن ان يزداد وضوح التطور واسراره

(٢٠٩) نفسه : ١٤٩ .

(٢١٠) نفسه .

(٢١١) المدخل الى علم اللغة : ١٩٦ .

في هذه اللغة العامية ، لو اننا توصلنا الى معرفة حلقات التطور المختلفة منذ الجاهلية حتى الان » (٢١٢) .

بين المنهجين التاريخي والوصفي :

يوصف المنهج الوصفي - كما تقدم - بأنه منهج ساكن static ذلك لانه يتناول اللغة بوجه عام على الوجه الذي توجد عليه في نقطة زمنية معينة ، ويوصف المنهج التاريخي بأنه منهج متحرك dynamic لانه يدرس اللغة من خلال تغيراتها المختلفة عبر الزمن . وعلى الرغم من تباين المنهجين في السكون والحركة ، انهما لا ينفصلان في مجال التطبيق العملي ، فكل المصطلحات التي تستعمل في المنهج الوصفي قابلة من الناحية العملية للاستعمال في المنهج التاريخي (٢١٣) ومعنى ذلك ان المنهج التاريخي لا يستغني عن مبدأ الوصف ، وان تتبع اية ظاهرة لغوية في لغة ما حتى اقدم عصورها ، يعني وصفها وصفا دقيقا في كل مرحلة ثم ملاحظة ما عراها من تطور عبر المراحل ، ثم وصفه ايضا وصفا امينا . فالوصف اذن بجميع خطواته هو الطريقة التي يلجأ اليها الباحث التاريخي وهو عُدته التي بها ينجز عمله .

الدراسات اللغوية التراثية والمنهج التاريخي :

لم يتهأ للعربية في الماضي « دراسات تاريخية لغوية ذات شأن ، فقد تركزت جهود اللغويين على دراسة اللغة الى عصر الاحتجاج ، اي من العصر الجاهلي مرورا بصدر الاسلام و انتهاء بحوالي ١٥٠ هـ ، ويقدر هذا بثلاثمئة عام تقريبا وذلك بقصد ايجاد معايير ثابتة للغة تلتزم بها الاجيال الناطقة بالعربية في العصور اللاحقة ، وتكون معايير عصر الاحتجاج حجة يسار عليها في الاهتداء الى الفصحى » (٢١٤) .

(٢١٢) المدخل الى علم اللغة : ١٩٦ .

(٢١٣) اسس علم اللغة : ١٣٧ .

(٢١٤) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٢٤ .

وكان الدافع الى اقتصار اللغويين القدماء على دراسة اللغة في عصر الاحتجاج هو « رغبتهم في الحفاظ على اللغة في صورتها التي ترتبط بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وسيرة السلف الصالح من المسلمين ، الأول ، ولذا فانهم (كذا) (٢١٥) لم يكثرثوا بالعصور اللاحقة الا في الحدود التي تشد الناس الى لغة المعيار الثابت ، لغة عصر الاحتجاج » (٢١٦) .

ومعنى هذا ان الدرس اللغوي قد توقف عند مرحلة معينة من تاريخ العربية ، وان ما اعقب تلك المرحلة لم يقع ضمن دائرة الدرس ، بل نظر الى ما جدّ فيه من صيغ ومفردات وتراكيب على انها خارجة عن اللغة المثلى التي استنبطت من كلام العرب الذين عاشوا في عصور الاحتجاج . وبهذا نستطيع ان نفسر تلك الحركة القوية من التأليف اللغوي التي بدأت في اواخر القرن الثاني الهجري ثم استمرت في جميع القرون التالية ، والتي اطلق عليها (حركة تنقية اللغة) ، وقد سميت الكتب التي اثمرتها هذه الحركة بكتب (لحن العامة) وكتب (لحن الخاصة) وهي كتب عالجت ما يدعى بظاهرة (اللحن اللغوي) التي اتسعت دائرتها في العصور اللاحقة لعصر الاحتجاج ، فشملت عوام الناس وخواصهم بل ان في تسمية اللغويين لهذه الكتب بكتب (اللحن) ما يشير الى غرضهم من تأليفها فهي كتب رمت « في جعلتها الى اصلاح ما يقع فيه الناس من خطأ اوردهم الى المعايير الثابتة التي تمثل اساليب العرب ضمن اطار زمني لا يتجاوز عصر الاحتجاج ، ولا يتخطى بيئات مكانية محددة تمثلها قبائل محددة هي اقرب القبائل الى تمثيل لغة القرآن » (٢١٧) .

لقد كان المفروض - لولا معيارية النحاة - ان تكون كتب اللحن هذه دراسات في التاريخ اللغوي للعربية ، تصور ما عرض لهذه اللغة من تغيرات كثيرة نالت اصواتها وبنية مفرداتها ودلالاتها ، ولكن وصف « قواعد اللغة

(٢١٥) الصواب : ولذا لم يكثرثوا .

(٢١٦) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٢٤ .

(٢١٧) نفسه .

المتطورة في العصور اللاحقة بقصد المسير عليها مسعى لا يقره القدماء» (٢١٨) .
 واما عصر الاحتجاج اللغوي نفسه « فهو في حقيقته عصور لغوية تمتد على
 رقعة زمانية تضرب في عمق الزمن الى ما لا يقل عن ثلاثئة عام ، تطورت اللغة
 خلالها وقبلها تطورا اثر فيه اختلاف الزمان والمكان والجوار وغير ذلك من
 عوامل كثيرة ، وبخاصة قبل الاسلام ولم يفت القدماء من اللغويين ان يلتفتوا
 الى ذلك بحديثهم عن تباين اللهجات والاصوات والتراكيب احيانا ، ثم لم
 يفتهم احيانا ان يسيروا الى اثر الزمان في تحول الصيغ والتراكيب من زمن الى
 زمن ، كأن يصف ابن السراج في كتابه (اصول النحو) واو القسم بانها اكثر
 ادوات القسم شيوعا ، قال : فكثرها الواو ، ثم يشير تاريخيا الى ان الاصل
 (الباء) ، ونحو هذه الاشارة التاريخية كثير ، بيد انها اشارات خاطفة عارضة
 وليست مستهدفة متقصدة » (٢١٩) .

ومما يمكن ان نعه اشارات تاريخية في كلام القدماء من اللغويين ما
 اوردوه من صيغ قليلة استعملت اسما ، وهي قد تكون مرحلة من مراحل
 التطور الصرفي لصيغة المضارع في العربية بقيت عالقة بالمرحلة الجديدة ، بعد
 ان استقر المضارع على صيغة (يفعل) ، ومن هذه الصيغ صيغة (يفعل) مثل
 يربوع ويعسوب وصيغة (يفعل) مثل (يثرب) وصيغة (يفعل) مثل
 (اليعضيد) .

ومن هذه الاشارات التاريخية ما ادخله اللغويون القدماء في باب (الشاذ)
 من الكلام ، كاقتران صيغة المضارع بالالف واللام التي يمكن ان تكون مرحلة
 اخرى من مراحل تطور صيغة المضارع في العربية قبل ان تستقر في صيغة
 (يفعل) . قال ابو علي الفارسي : « ومن الشاذ في القياس والاستعمال قولهم :
 اليجدع وادخال لام التعريف فيه على الفعل ، فهذا شاذ عن القياس لان موضع

(٢١٨) نفسه .

(٢١٩) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٢٥ وينظر مصدره .

الفعل على خلاف التخصيص ، وشاذ في الاستعمال ايضا ولم يوجد ذلك الا في شعره انشده ابو زيد وهو :

يقول الخنكا وابغض العُجْم ناطقاً الى ربنا صوت الحمار اليجدّع^{٢٢٠} وفي هذا الشعر : (اليتقصّع) « (٢٢٠) » .

ومن هذه الاشارات التاريخية ما اورده اللغويون من كلمات وصفوها بأنها مهملة او مهجورة ، كالفعل (وَدَّعَ) وهو ماض مهمل من المضارع المستعمل (يَدَّعُ) واسم الفاعل (وادع) من الفعل الماضي الممات نفسه . قال ابو علي الفارسي : « وكما رفض مثال الماضي منه فكذلك رفض المصدر واسم الفاعل ، فان بعض البغداديين انشد :

حزين على ترك الذي أنا وادع

وهذا في القلة كما تقدم « (٢٢١) » .

ومن الاشارات التاريخية ما يتعلق بالتركيب ، كحديثهم عن اسناد (عسى) الى (تاء التأنيث) و (واو الجماعة) ، قال ابن السراج : « تقول عسى ان افعل وعسى ان يفعل ، تكون عسى للواحد والاثنين والجميع والمذكر والمؤنث . ومن العرب من يقول : عسى وعسّيا وعسّوا وعست وعسّنا وعسّين . و (أن) لازمة لها ، ومن العرب من يقول : عسى يفعل فيحذف (أن) » (٢٢٢) .

حاجة العربية الى المنهج التاريخي :

ان الحفاظ على اللغة في صورتها المثلى التي استنبطت من كلام العرب الفصحاء ، هو هدف جليل ، ينبغي ان تتجه اليه الهمم ، وتبذل في سبيله

(٢٢٠) المزهر : ٢٠٩/١ وينظر : المسائل العسكرية : ١١٠ .

(٢٢١) المسائل العسكرية : ١٠٢ .

(٢٢٢) الموجز في النحو (ابن السراج) : ٣٣ تح . مصطفى الشويمي ورفيقه ، بيروت د. ت .

الجهود ، ولكن هذا الهدف لا يتعارض مع هدف آخر يتطلبه المنهج التاريخي ، إذ يقتضي هذا المنهج ان تراقب اللغة في جميع عصورها ، لرصد ما جدّ فيها من صيغ ومفردات ، وما اخذ يظهر فيها من تراكيب ، وتحديد هوية هذا الجديد ، اهو حادث في اللغة نتيجة حركتها الذاتية ام جراء احتكاكها بغيرها من اللغات ، واطلاع اهلها على آداب الامم الاخرى ، وتأثرهم بتلك الاداب . ولا ريب في ان هذا الضرب من الدراسة اللغوية يبين لنا تجربة (الاخذ) و (العطاء) بين لغتنا واللغات التي احتكت بها . ومما ينجم عن مراقبتنا اللغة الكشف عما يطرأ على الالفاظ من تغير في الشكل او المضمون ، « وقد تزداد الحاجة الى دراسات اسلوية تبين المعاني البلاغية والاسلوية الجديدة سواء ابفعل التطور الذاتي كانت أم بالتطور المترتب على اطلاع ادبائنا وكتابنا على الاداب الاخرى . فقد يقتل إلفنا لالفاظ لغوية او انماط بلاغية تشيع في عصرنا القدرة على تبين الاصول التي وفدت منها هذه الانماط . بيد ان التتبع التاريخي يحتاط لذلك فيحاول ان يرصد هذه الظواهر في منابعها وتوجهاتها ، وما تؤول اليه مع تحديد ذلك كله زمانيا ومكانيا والسعي نحو تفسيره تفسيراً ينطلق اصلاً من الواقع النصّي الذي يعد الوثيقة التاريخية في يد الباحث التاريخي » (٢٢٣) .

ويمكن الاستفادة من المنهج التاريخي في مجال الدراسات المعجمية للوصول الى معجمات لغوية تكمل معجماتنا القديمة ، وتبين لنا امورا جديدة منها :

(١) ميز العربي الاصيل من المعرب والدخيل الذي وفد على العربية من لغات اخرى ، وتصحيح ما وهم فيه القدماء من نسبة لفظ الى امة معينة ، وهو مستعار من غيرها ، ذلك لان معرفة كثير من لغويينا المعاصرين باللغات المختلفة قديمة وحديثة ، منقرضة وحية اوسع واوثق من معرفة لغويينا القدماء بهذه اللغات .

(٢) تتبع حياة اللفظ العربي عبر العصور ، وتحديد ما طرأ عليه من تغير في الشكل والمضمون في كل عصر من عمر اللغة ، وبيان المعنى الحقيقي والمعنى المجازي ، فان كثرت المعاني الحقيقية للكلمة او المعاني المجازية « سعى الباحث الى تحديد الزمن الذي يعود اليه كل معنى من خلال العودة الى اقدم النصوص واثقها ، وقد يستأنس بالجانب المقارن من المنهج التاريخي » (٢٢٤) .

ولابد من الاشارة هنا الى ان انجاز معجم تاريخي للغة العربية ايسر على المتصددين له من انجاز مثيل له في اللغات الاخرى ، فاللغة العربية ماتزال موصولة الحاضر بالماضي ، لم يُعزل عصر سابق عن عصر لاحق ، كما حصل في غيرها من اللغات كالانجليزية مثلاً . ومع سهولة عمل معجم تاريخي للعربية من هذه الناحية ، فلا تزال هذه اللغة تفتقر الى معجم تاريخي تأصيلي على غرار معجم اكسفورد التاريخي للغة الانكليزية .

(٣) تعرف ما غاب من الفاظ عن افق الاستعمال ، وما انحسر استعماله من الفاظ اخرى لتكون مقصورة على فن معين او حرفة مخصوصة او ظروف بيئية مميزة المناخ او العادات والتقاليد وما شابه ذلك (٢٢٥) .

ولا تفوتنا الاشارة هنا الى محاولات بعض المستشرقين في مجال المعجم التاريخي للغة العربية ، واهم هذه المحاولات محاولة المستشرق الهولندي دوزي الذي ألف معجماً كبيراً سماه (ذيل المعاجم العربية) استدرك فيه ما اهملته المعجمات القديمة من مادة لغوية لم ترد عن عصر الاحتجاج ، جامعاً هذه المادة من كتب الفلاسفة والاطباء والجغرافيين والرحالة وغيرهم . ومحاولة المستشرق الالماني فيشر (١٩٤٩م) الذي لم ينجز من (المعجم اللغوي التاريخي) سوى المقدمة وبعض مادة الهمزة .

(٢٢٤) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٢٧ ، ٢٨ .

(٢٢٥) نفسه : ٢٨ .

ويمكن الافادة كذلك من المنهج التاريخي في مجال الدراسة الصرفية ، وذلك بالكشف عما لحق الابنية من تطور خلال العصور ، سواء كان ذلك في الشكل او المضمون او في الغياب من افق الاستعمال وغير ذلك من عوارض تبدو لمن يرصدها . من ذلك ان بعض الصيغ كانت سماعية في زمن تدوين النحو والصرف ثم كثرت في زماننا كثرة بالغة كصيغة (فِعَّيل) التي اصرَّ قدماء اللغويين على سماعيتها ، لقلة ما اثر عن العرب منها (٢٢٦) فاصبحت في هذا العصر كثيرة ، مما جعل مجمع اللغة العربية في القاهرة يجيز قياسيتها (٢٢٧) . والمصدر الصناعي كان في الجاهلية قليلا جدا ، لم تؤثر منه عن ذلك العصر سوى امثلة قليلة كقولهم (الجاهلية) و (الرهبانية) و (اللصوصية) ثم كثرت في العصر العباسي لظهور الفرق والعقائد والافكار الفلسفية وسواها . واما في عصرنا الحديث فقد مست الحاجة اليه اكثر ، مما دعا مجمع اللغة العربية في القاهرة الى الافتاء بقياسيته ايضا (٢٢٨) . وقل مثل ذلك عن ظاهرة (النحت) التي كانت قليلة ثم كثرت امثلتها في هذا العصر .

وهناك صيغ صرفية كانت قليلة ثم هجرت هجرانا نحو (جَبَرُوت) و (رَحْمُوت) و (رَهْبُوت) و (ملكوت) ، ونحو (افعلل) كاقعنس و (افعللى) كاسلنقى و (افعوّل) كاجلوّد بمعنى اسرع . وثمة صيغ صرفية لم يحفظ الاستعمال مجردها الذي يقال انه الاصل ، وحفظ لنا المزيد الذي يعد الفرع . ومن ذلك (طمن) التي منها (اطمأن) و (مَسَى) التي منها (أمسى) ، ومن الصيغ ما اتحد فيه المجرد والمزيد نحو (ثوى) و (أثوى) بالمكان اذا اقام فيه ، و (زها) الزرع و (أزهى) اذا ارتفع .

(٢٢٦) الجمهرة (ابن دريد) : ٣٧٦/٣ .

(٢٢٧) من قضايا اللغة والنحو (احمد مختار عمر) : ١٩٦ ، ١٩٧ ، عالم الكتب ١٩٧٤ .

(٢٢٨) المباحث اللغوية في العراق (د. مصطفى جواد) : ٢١ ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٥ .

ان تطبيق المنهج التاريخي في مجال (الصرف) كفيل بان يظهر لنا الوانا كثيرة من التطور في هذه المنظومة ، لم تكن الامثلة السابقة إلا جانباً ضئيلاً منها •

ويمكن الافادة كذلك من المنهج التاريخي في مجال الدراسة النحوية ، فقد يحسب المرء اول وهلة ان النحو العربي بمنظومته المعروفة ، وقواعده التي وعتها الكتب المؤلفة فيه ، ثابت ، قد استعصى على قانون التطور ، او أفلت من عوامل التغيير ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، فقواعد اللغة تبدو « مستقرة بفعل التوجه المعيارى كما تبدو ذرات الماء هادئة قارّة في اثناء زجاجى صاف ، بيد أن واقع الامر ان ذرات الماء تتحرك بهدوء نحو الاعلى والاسفل بفعل ما فيها من عوامل التفاعل الداخلى ، او ما يطرأ عليها من بواعث خارجية » (٢٢٩) والنحويون العرب قد توهموا ثبات النحو ، فوضعوا له تصورا تلتقي عليه جميع نظوق العرب في عصورهم اللغوية كافة ، وجعلوا من هذا التصور نموذجاً يحتذى به العرب في كلامهم وكتاباتهم ، فان خرج امرؤ عن هذا النموذج ، فعليه ان يراجع نفسه ليعود او يعاد اليه •

فقواعد النحو بمقتضى هذه النظرة المعيارية مستقرة ثابتة ، تخضع لها نصوص عصر الاحتجاج اللغوى ، بلكه نصوص ما تلاه من عصور ، فان عارض هذه القواعد نص « حملوه على الضرورة في مجال الشعر او على الشذوذ في مجال النثر ، او اخذوا النص بشيء من التأويل او الحذف والتقدير او ما شاكل ذلك في سبيل ان تطرد القاعدة ، وينقذ المعيار » (٢٣٠) •

ولذا لم يكن التطور او التغير ليخطر ببال النحاة ، وما كان هؤلاء ليشغلوا نفوسهم بالتأصيل التاريخى لطواهر اللغة ، فقد اشاروا مثلاً الى ما اصطالحوا عليه باسم (لغة أكلونى البراغيث) ، « لكنهم لم يتطرقوا الى انها

(٢٢٩) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٣٤ •

(٢٣٠) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٣٢ •

تمثل اصلا قديما تشترك فيه العربية مع اللغات السامية ، وان (اكلتني
البراغيث) - التي اصبحت المعيار والقاعدة - تطور » (٢٣١) .

غير ان واقع الاستعمال يشير الى ان قواعد اللغة لا تظل ثابتة ، وان عوامل
التغير قد امتدت اليها قبل عصر النحاة وبعده ، والمنهج التاريخي معني " بمتابعة
هذا التغير في حركته الهادئة او العنيفة في كل مرحلة زمنية ، وفي كل بيئة
مكانية ، وتحت تأثير مختلف العوامل ، داخلية كانت او خارجية ، مع تقديم
التفسير المقنع لذلك التطور .

ولعل من اوضح الامثلة على حركة قواعد العربية ، وتغير معاييرها ، ان
التركيب الاسمي كالتركيب الفعلي ، كلاهما معيار جائز ، وقاعدة مقبولة ،
اذ يقال (قام زيد) و (زيد قام) ، غير ان الذي يستقري كلام اهل عصرنا
يجد ان التركيب الاسمي اصبحت اكثر شيوعا ، وما ذلك إلا لاحتكاكهم بغير
العرب كالأوربيين الذين تصاغ الجملة الخبرية عندهم تركيبا اسميا ، فاذا
قدم الفعل صارت الجملة استفهامية (٢٣٢) .

وان من الاسلوب الشرطي استعمال (إن) الشرطية المدغمة في (ما) ،
والمتبوعة بالفعل المضارع المؤكد نحو قوله تعالى (فإِذَا يَبْلُغُنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرِ
احدهما) (٢٣٣) . ان لهذا الاسلوب امثلة كثيرة في القرآن الكريم ، ولكننا
لا نجد له امثلة كثيرة في العصور اللاحقة (٢٣٤) . ومثل ذلك يقال عن اسلوب
توالي الاضافات الذي كان قليلا في عصر الاحتجاج اللغوي ، ثم كثر كثرة
لافتة للنظر في زماننا هذا ، وذلك لظهور التعابير المركبة نحو (منظمة هيئة
الامم المتحدة) (٢٣٥) .

(٢٣١) نفسه .

(٢٣٢) نفسه : ٣٣ ، ٣٤ .

(٢٣٣) الاسراء : ٢٣ .

(٢٣٤) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٣٤ .

(٢٣٥) نفسه .

المنهج المقارن

المنهج المقارن جزء من المنهج التاريخي في دراسة اللغة « وهو يتميز عن (٢٣٦) المنهج التاريخي في عمومته بأنه يركز على (٢٣٧) بحث الظاهرة اللغوية في أكثر من لغة ، ويركز بشكل خاص على بحث الظاهرة في اللغات التي تنتمي الى اصل واحد ، كاللغات السامية او الحامية او الهندية الاوربية » (٢٣٨) .

والهدف من المنهج المقارن « التأصيل التاريخي ، كأن يستدل على قدم الظاهرة بالتماسها في اخواتها ، او حدائتها بتفرد اللغة المعنية بها من بين اخواتها ، بحسب تاريخ حياة تلك اللغة » (٢٣٩) .

وقد يتوخى المنهج المقارن التوصل الى اعادة بناء الاصل المشترك الذي تفرعت عنه مجموعة معينة من اللغات ، والذي يدعى (اللغة الام) ، تلك اللغة التي لا وجود لها الان في صورة وثائق او نقوش مكتوبة ، كما انها « لا تخرج عن كونها افتراضا قابلا للتعديل في اي وقت طبقا لما تؤدي اليه بحوث المستقبل » (٢٤٠) .

وقد أفكر نولدكة امكان إعادة بناء (اللغة الام) لاية مجموعة من اللغات تنتمي الى اصل مشترك واحد ، حين قال : « واننا نريد ان نوجه سؤالاً لمن يظن ان اعادة البناء الكامل للغة السامية الاولى ، ولو بالتقريب ، امر

(٢٣٦) الصواب : من .

(٢٣٧) الصواب : يركز في بحث .

(٢٣٨) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٤١ .

(٢٣٩) نفسه .

(٢٤٠) المدخل الى علم اللغة : ٢٠٠ ، ٢٠١ .

ممكن ، والسؤال هو : هل يستطيع احسن العارفين باللهجات الرومانية كلها (الايطالية والفرنسية والاسبانية) ان يعيد بناء الاصل القديم لهذه اللغات ، وهو اللغة اللاتينية ، لو فرض انها غير معروفة الان ؟ » (٢٤١) .

وقد تتناول الدراسة المقارنة « مرحلتين زمانيتين او اكثر من مراحل التطور التاريخي للغة واحدة ، والغرض من هذه الدراسة التوصل الى التغيرات اللغوية التي وقعت في اثناء تلك المراحل » (٢٤٢) .

وثمة اختلاف بين المنهج المقارن والمنهج التقابلي ، فعلى الرغم من ان كلا منهما يثني بالموازنة بين اللغات ، ان الفرق الجوهرى بينهما هو ان « الاول يوازن بين اللغات بقصد التأصيل والوقوف على جوانب التطور ، والثاني يقصد التعليم ومعرفة المشكلات التي يعاني منها الدارس الذي يرغب في اكتساب لغة جديدة بأيسر السبل ، وذلك بمعرفة المشكلات التي يواجهها في اللغة الجديدة حين يدخل رحابها بعادات لغوية تحكمها معايير لغته الاولى بنحوها وصرفها واصواتها ومعانيها » (٢٤٣) .

فالمنهج التقابلي اذن يتناول « لغتين حديثتين من غير اشارة الى تطوراتهما واصولهما التاريخية ، وذلك بقصد الوصول الى مواطن الشبه والاختلاف في صورتهم الحاضرة ، ويتحقق هذا لأغراض تعليمية اذ تمكننا هذه المقارنات من تعلم اللغات المختلفة وتعليمها بطريقة ميسرة » (٢٤٤) .

ومعنى ما تقدم ان المنهج المقارن يشترط اتحاد الارومة في اللغتين الموازن بينهما ، واما المنهج التقابلي فيعنى بلغتين ليستا اصلا من ارومة واحدة ، فيكون الدافع الى العناية بهما تعليميا ، وهو دافع قد يكون معطلا او لا قيمة له في المنهج المقارن حين تكون المقارنة احيانا « بين لغتين او لغات انقرضت او انقرض

(٢٤١) نفسه : ٢٠١ ، وينظر مصدره .

(٢٤٢) مدخل الى علم اللغة (د. محمد حسن عبدالعزيز) : ١٥١ .

(٢٤٣) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٤١ ، ٤٢ .

(٢٤٤) مدخل الى علم اللغة (د. محمد حسن عبدالعزيز) : ١٥١ .

بعضها ، ولكن البحث التاريخي يتطلب هذه الموازنة في سبيل تأصيل الظواهر اللغوية او الحضارية ، ويعدّها وثيقة تاريخية ضرورية « (٢٤٥) .

ومن المفيد ان نشير هنا الى ضروب العلاقات التي تربط اللغات ، فهي إما علاقات بنيوية او شكلية .

فالتماثل المطرد الذي لاحظّه اللغويون في بعض العناصر اللغوية بين الالمانية والانجليزية يرجع الى ان اللغتين تنتميان الى اصل مشترك ، اطلقا عليه اللغة الجرمانية « فبين اللغتين بهذا الاعتبار قرابة ، والقرابة هنا تعبر عن مجموعة من العلاقات اللغوية تقع في مستويات او على درجات اشبه ما تكون بالعلاقات الاسرية ، كعلاقة الام بابنتها او الاخت باختها او ما الى ذلك من علاقات قريبة او بعيدة « (٢٤٦) .

وتتمثل العلاقات الثقافية بين اللغات فيما نجد بين العربية والفارسية ، فقد اقترضت كل منهما من الاخرى الفاظا كثيرة ، وليس بين العربية والفارسية قرابة لغوية ، فالعربية لغة جزرية والفارسية لغة هندية اوروبية .

أما العلاقات البنيوية أو الشكلية فقد تكون بين لغات ليس بينها علاقة قرابة او علاقة ثقافية ، « وعلى سبيل المثال لاحظ اللغويون وجوه شبه قوية بين الانجليزية والصينية لا يثارهما طريقة مشتركة في بناء الكلمات ، ولا حظوا وجوه شبه قوية بين العربية والسنسكريتية لا يثارهما منهجا مشتركا في تصريف الكلمات « (٢٤٧) .

اسس المنهج المقارن في تقسيم اللغات على اسر :

يَعْمِدُ الباحث الذي يستخدم المنهج المقارن للكشف عن صلة القرابة بين مجموعة اللغات الى وضع الصيغ المبكرة المأخوذة من تلك اللغات ، ثم

(٢٤٥) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٤٢ .

(٢٤٦) مدخل الى علم اللغة (د. محمد حسن عبدالعزيز) : ١٥٢ .

(٢٤٧) مدخل الى علم اللغة (د. محمد حسن عبدالعزيز) : ١٥٢ .

يفحصها ويوازن بينها ، ليصدر الحكم بشأن درجة الصلة بينها ، والشكل الذي يبدو اقرب صلة الى اللغة الام . ويكون الباحث آمنا « حين يقرر انتماء لغات متعددة الى اصل مشترك اذا وجد بينها تماثلا كافيا في تركيباتها النحوية ، ومفرداتها الاساسية ، واذا لاحظ ازدياد قربها بعضها من بعض كلما اتجهنا الى الوراء » (٢٤٨) . فالتشابه بين اللغات في البنى الصرفية والتراكيب النحوية واطراد تبادل القوانين الصوتية يعد دليلا على ان تلك اللغات اسرة واحدة .

ولابد من التنبيه هنا على « ان من الواجب ان نميز في الاتفاقات التي توجد بين لغتين او اكثر ، بين ما يُعدّ منها نموا ذاتيا وما يفترض قيام تقليد مشترك بين تلك اللغات ، فمن الممكن ان يكون التوافق بين مفردات منعزلة نتيجة للمصادفة البحتة ، كما انه من الممكن ان يكون ذلك نتيجة لاستعارة اللغتين من لغة واحدة . ولكن مجموعة الاتفاقات في الصيغ النحوية تسدل على وحدة الاصل دلالة قاطعة » (٢٤٩) . فلا « يُعد التقاء اللغات في كثير من المفردات دليلا قاطعا على انها تنتمي الى اصل واحد ، فاللغات ، وبخاصة في مجال المفردات ، قد تكثر من الاستعارة ولكنها تبقى مشدودة الجذور الى اسرتها . من الامثلة الدالة على ذلك بقاء اللغة الفارسية من اسرة اللغات الهندية الاوربية على الرغم من ان نحو نصف الفاظها من اصل عربي ، وكذلك التركية . وتظل اللغة الانجليزية جرمانية الاصل مع ان جلّ مفرداتها ينتمي الى اليونانية واللاتينية . وحال المالطية في ذلك كالانجليزية اذ لم يُخرج كثرة الدخيل في هذه اللغة عن اسرة اللغات السامية ، بل لم يأت بها عن نطاق الارومة العربية » (٢٥٠) .

(٢٤٨) اسس علم اللغة : ١٦٨ .

(٢٤٩) المدخل الى علم اللغة : ٢١٠ .

(٢٥٠) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٤٩ ، ٥٠ .

نشأته ومجالاته :

لقد ظهر المنهج المقارن بعد ان اكتشفت اللغة السنسكريتية ، ثم تطور تطورا كبيرا في القرن التاسع عشر . فقبل هذا العهد لم تكن القرابة بين اللغات معروفة على نحو علمي دقيق ، غير ان المقارنات التي اجراها اللغويون بين اللغة السنسكريتية واللغات الاوربية المختلفة اثبتت ان كثيرا من هذه اللغات تحمل اوجه شبه في البنية والمعجم ، « وبذلك اتضحت معالم اسرة لغوية كبيرة تضم لغات كثيرة في الهند وايران واوربا ، واطلق الباحثون على هذه الاسرة اسم اسرة اللغات الهندية الاوربية » (٢٥١) .

وخطا المنهج المقارن خطوة اخرى عندما طبقه الباحثون في مجال اللغات السامية ، فظهرت بذلك مجموعة اللغات العربية والعبرية والارامية والاكديية والعربية الجنوبية في اليمن والحبشية ، « واضيف الى اللغات السامية في القرن العشرين اللغة الاجريتية التي اكتشفت في ساحل الشام بالقرب من مدينة رأس شمرا سنة ١٩٢٦ » (٢٥٢) .

وواضح ان مجالات المنهج المقارن هي الاصوات والصرف والنحو والدلالة . فهو يبحث « من الناحية الصوتية الاصوات الموجودة في اللغات المنتمية الى اسرة واحدة محاولا التوصل الى قواعد مطردة تفسر التغيرات الصوتية التي طرأت على مدى الزمن ، فانقسمت اللغة الواحدة لهجات » (٢٥٣) .

وقد اتضح للباحثين في اللغات الجزرية مثلا « ان مجموعة من الاصوات مستمرة دون تغير يذكر في كل لغات الاسرة الواحدة . فكل اللغات السامية مثلا بها صوت الراء دون تغير ، وعلى العكس فهناك اصوات خضعت لتغيرات بعيدة المدى منها صوت الضاد الذي اختفى بمضي الوقت من كل اللغات السامية باستثناء العربية . وعلى ذلك فالبحث في اصوات الحلق في اللغات

(٢٥١) مدخل الى علم اللغة (محمود فهمي حجازي) : ٢١ .

(٢٥٢) نفسه .

(٢٥٣) نفسه : ٢١ ، ٢٢ .

السامية او في اصوات الاطباق في اللغات السامية او في الاصوات الشفوية في اللغات السامية يعد من قضايا علم الاصوات المقارن في اللغات السامية» (٢٥٤) . وعلى صعيد بناء الكلمة يتناول المنهج المقارن كل ما يتعلق بالاوزان والسوابق واللواحق ووظائفها المختلفة . وعلى هذا فدراسة الضمائر في اللغات السامية مثلاً ، ودراسة ابنية الافعال او اسم الفاعل او المصدر تدخل في علم الصرف المقارن ، لانها في مجال بنية الكلمة ، وتتم بمنهج مقارن (٢٥٥) .

وقل° مثل ذلك في مجال بناء الجملة ، اذ يتناول المنهج المقارن دراسة الجملة الخبرية في اللغات السامية مثلاً : فعلية كانت او اسمية ، ويتناول كذلك جميع القضايا المتعلقة ببناء الجملة في اللغات السامية كالاستفهام والاستثناء والمطابقة بين الفعل والفاعل والعدد والمعدود .

ويتناول المنهج المقارن في مجال الدلالة في اللغات السامية مثلاً كل ما يتعلق بتاريخ الكلمات وتأصيلها . فهو يبحث الكلمات السامية المشتركة وما يطرأ عليها من تغير دلالي° ، ولعل اهم بحث في علم الدلالة المقارن للغات السامية هو تأصيل المواد المعجمية العربية بردها الى اصولها السامية إن وجدت . وهذا الضرب من البحث يعد من الاضافات المهمة التي نجدها في المعجم الكبير الذي يصدره مجمع اللغة العربية في القاهرة (٢٥٦) .

وعلى الرغم مما حققه المنهج المقارن في مجال البحث اللغوي خلال القرن التاسع عشر «فما زالت هناك جهود ضخمة يمكن بذلها حتى بالنسبة لتلك اللغات التي لاقت اهتماماً كبيراً ، فان هناك اكتشافات ضخمة لكتابات مسجلة ما تزال يتوصل اليها . ويجب كلما اكتشف شيء من ذلك ان يعاد النظر في

(٢٥٤) نفسه : ٢٢ .

(٢٥٥) مدخل الى علم اللغة (محمود فهمي حجازي) : ٢٢ .

(٢٥٦) نفسه : ٢٢ ، ٢٣ .

النتائج المقارنة السابقة التي كان بعضها فرضيا ، ويدخل عليها من التعديلات ما هو ضروري بعد الاستفادة من تلك الشواهد الجديدة « (٢٥٧) .

ولابد من الاشارة هنا الى علاقة المنهج المقارن بالمنهجين الوصفي والتاريخي ، اذ ان هذا المنهج يتطلب القيام بدراسة وصفية مستقلة لكل لغة تقارن بلغة او بلغات اخرى ، ومعلوم ان الدراسة المقارنة هي شكل من اشكال الدراسة التاريخية ، لان تشعب اللغة الام او الاصل الى لغات انما هو تطور تاريخي (٢٥٨) .

دوافع الاهتمام بالمنهج المقارن :

لعل اظهر اسباب اهتمام اللغويين الاوربيين بالمقارنة بين اللغات ما يأتي :

(١) البحث عن اللغة الاولى للبشر :

لقد جاء في (الكتاب المقدس) ان العبرية اصل اللغات ، فثارت الرغبة في نفوس الاوربيين للتثبت من ذلك . وكانت بحوثهم الاولى في هذا المجال قد خرجت بنتيجة غير صحيحة ، مفادها ان اللغة العبرية اصل اللغات ، وعنها تفرعت اللاتينية واليونانية ، ثم « اتجه الباحثون الى غاية اخرى وهي بحث الصلة بين اللغات من خلال ما يسمح به واقعها الموثق ، غاضين النظر عن اصلها الاول ، وعن اللغة الاولى ، فقد عدوا ذلك خارجا عن اطار البحث العلمي . وقد تمخض هذا عن تقسيم اللغات الى (٢٥٩) اسر لغوية متباينة ، كأسرة اللغات الهندية الاوربية واسرة اللغات السامية والحامية والاورال والباتو والصينية واليابانية والكورية « (٢٦٠) .

(٢) الكشوف الجغرافية والاغتراب عن الاوطان :

وكان لوجود الكثير من الاوربيين خارج اوطانهم منذ زمن بعيد ، ابتداء

(٢٥٧) المدخل الى علم اللغة : ١٩٨ .

(٢٥٨) مدخل الى علم اللغة (د . محمد حسن عبدالعزيز) : ١٥٤ .

(٢٥٩) الصواب : على .

(٢٦٠) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٤٤ .

بالقرن الخامس عشر ، اثر في اذكاء الرغبة في المقارنة بين اللغات ، ثم جاء عصر الاستعمار الاوربي ، فتطلب الموقف تعلم لغات البلدان المستعمرة • ولعل خير مثال على ذلك ما حدث للسير وليم جونز في اثناء اقامته في البنغال ، اذ اعلن سنة ١٧٨٦م ما لاحظته من صلة قرابة بين السنسكريتية واليونانية واللاتينية •

(٣) حركة استقلال العلوم عن الفلسفة :

وقد واكبت الدراسات المقارنة موجة استقلال الكثير من العلوم الطبيعية والانسانية كعلم الفيزياء والكيمياء والطب عن الفلسفة ، بعد ان اتضح للعلماء ما في كل علم من هذه العلوم من قوانين مطردة متميزة •

ولم يكن علماء اللغة بمعزل عن هذه الحركة العلمية ، فراحوا « يبحثون عن القوانين المطردة في كل لغة على حدة ، ثم في كل مجموعة متجانسة من اللغات ، ويبحثون عن القواعد المشتركة بين اللغات بوجه عام • وقد شرع بعض اللغويين في الموازنة بين ما توصلوا اليه من حقائق عن اصل اللغات وفروعها وما توصل اليه نظراؤهم في العلوم التطبيقية » (٢٦١) •

ومما يؤثر في هذا الشأن ان بعض اللغويين وازن بين نتائجه عن مقارنة نحو السنسكريتية بنحو اللغات الاخرى والنتائج التي توصل اليها علم التشريح المقارن في مجال التاريخ الطبيعي (٢٦٢) •

ومما تردد بين علماء اللغة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر « ان قوانين الصوتيات التي تطرأ على اللغات ، وتحكم تطورها هي من جنس القوانين التي تحكم عالم الطبيعة » (٢٦٣) •

(٢٦١) نفسه : ٤٥ بتصرف يسير •

(٢٦٢) نفسه : ٤٥ ، ٤٦ •

(٢٦٣) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٤٦ •

(٤) النظرة القومية :

لقد اهتمت اوربا في عصر القوميات « اهتماما كبيرا بعلم السلالات البشرية ، ومحاولة تأصيلها والانتصار لعرق على عرق باثبات تفوقه لغويا وحضاريا ، فراحوا يجمعون لغات الشعوب المتباينة ، ويقارنون بينها على نحو ما فعل ادوار ساير (١٩٣٩م) في دراسة اللغات الهندية الاوربية بتوجيه من عالم السلالات البشرية بواس ، وكما فعل اوليفر باسليين الذي كان ينتصر لقوميته الفرنسية بالسخرية من اللغة الانجليزية اذا ما قورنت باللغة الفرنسية في نطقها » (٢٦٤) .

(٥) علم الاثار والبحث في تاريخ الحضارات القديمة :

لقد عني العلماء بالاثار والتنقيب عنها في العالم القديم ، ولا سيما في موطن اللغات الجزرية فيما بين النهرين والشام وشمالى افريقيا وفي الجزيرة العربية والحبشة فظهرت لهم الالواح الطينية ، وشواهد القبور ، والنقوش العديدة ، فعكفوا على دراسة ذلك كله . وكان من ثمار فحص هذه النقوش المكتشفة ودراستها ان عرفت الاكدية في منتصف القرن التاسع عشر ، واكتشفت الاوغاريتية في اواخر العقد الثالث من القرن العشرين ، وعرفت كذلك بفضل ما عثر عليه من نقوش امور كثيرة عن الكنعانية والارامية والتمودية والصفوية واللحيانية والسبئية والنبطية وغيرها (٢٦٥) .

وليس غريبا ان يهتم الاوربيون باللغات السامية ، فبعضها تنزلت بها كتبهم المقدسة كالعبرية والارامية الفلسطينية ، واما اللغة العربية فهي اللغة السامية الحية بين اخواتها ، وبها يمكن ان تحل كثير من المشكلات النصية المتعلقة بكتبهم المقدسة ، وما تم في هذا المضمار من دراسات خاصة بالمقابلة بين العربية والعبرية التوراتية .

(٢٦٤) نفسه .

(٢٦٥) نفسه : ٤٦ ، ٤٧ .

حاجة العربية الى المنهج المقارن :

تدل الاشارات في كتب اللغة على ان القدماء كانوا يعلمون بوجود صلة وثيقة ، تجمع العربية بغيرها من اللغات الجزرية ، كالعبرية والكنعانية والسريانية ، ولعل اول من اشار الى وجود قرابة لغوية بين لغتين جزريتين هو الخليل بن احمد الذي قال في العين في مادة (كنع) : « وكنعان بن سام بن نوح يُنسب اليه الكنعانيون وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية » (٢٦٦) . وممن اشار الى وجود هذه العلاقة بين العربية وبعض اللغات السامية ابو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ) الذي وازن بين اداة التعريف في العربية واداة التعريف في السريانية ، وهي الفتحة الطويلة في اواخر كلماتها . قال ابو حاتم الرازي : « قال ابو عبيد القاسم بن سلام : للعرب في كلامها علامات لا يشركهم فيها احد من الامم نعلمه ، منها ادخال الالف واللام في اول الاسم ، والزامهم اياه الاعراب في كل وجه ، في الرفع والنصب والخفض ، كما ادخلوا في (الطثور) ، وحذفوا الالف في الآخر ، فالزموه الاعراب في كل وجه ، وهو بالسريانية (طثورا) على حال واحد ، في الرفع والنصب والخفض وكذلك (اليمم) هو بالسريانية (يَمّا) فأدخلت العرب فيه الالف واللام ، وصرفته في جميع الاعراب على ما وصفت » (٢٦٧) .

وكان ابن حزم الاندلسي (٤٥٦هـ) اكثر صراحة وهو يعرض لهذا الموضوع ، اذ قال : « ان الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا ان السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وريبعة لا لغة حمير واحدة ، تبدلت مساكن اهلها ، فحدث فيها جرس كالذي يحدث من الاندلسي اذا رام نعمة اهل القيروان ، ومن القيرواني اذا رام لغة الاندلس ، ومن الخراساني اذا رام نعمتهما » (٢٦٨) .

(٢٦٦) العين (كنع) .

(٢٦٧) الزينة في الكلمات الاسلامية العربية : ٧٧/١ تح. حسين الهمداني ، القاهرة ١٩٥٧-١٩٥٨ وينظر : فصول في فقه العربية : ٤٣ .

(٢٦٨) الاحكام في اصول الاحكام : ٣٠/١ .

وقال : « فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية ايقن ان اختلافها انما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل الفاظ الناس على طول الازمان واختلاف البلدان ، ومجاورة الاسم ، وانها لغة واحدة في الاصل » (٢٦٩) .

وكان ابو حيان الاندلسي (٧٤٥هـ) قد عرف اللغة الحبشية ، وفطن للعلاقة بينها وبين العربية ، وألف كتابا ذكره في (البحر المحيط) فقال : « واما قولهم : هندي وهندي في معنى واحد وهو المنسوب الى الهند . . فخرجه اصحابنا على ان الكاف ليست زائدة ، لانه لم تثبت زيادتها في موضع من المواضع ، فيحمل هذا عليه ، وانما هو من باب : سبط وسبطر . والذي اخرجه عليه ان من تكلم بهذا من العرب - ان كان تكلم به - فانما سرى اليه من لغة الحبش لقرب العرب من الحبش ، ودخول كثير من لغة بعضهم في لغة بعض . والحبشة اذا نسبت الحقت آخر ما تنسب اليه كافا مكسورة مشوبة بعدها ياء ، يقولون في النسب الى الفرس : الفرسكي ، وربما ابدلت تاء مكسورة ، قالوا في النسب الى جبّر : جبّرّي . وقد تكلمت على كيفية نسبة الحبش ، في كتابنا المترجم عن هذه اللغة ، المسمى بـ (جلاء الغبش عن لسان الحبش) . وكثيرا ما تتوافق اللغتان : لغة العرب ولغة الحبش في الفاظ ، وفي قواعد من التراكيب نحوية ، كحروف المضارعة ، وتاء التأنيث ، وهمزة التعديّة » (٢٧٠) .

ولكن اكثر ما ورد عن اللغويين العرب من هذه الاشارات وامثالها ، لا يعني انهم عرفوا تلك اللغات ، وانهم استخدموا معرفتهم بها لمقارنة ظواهر من العربية بنظائرها في اخواتها ، ذلك ان المنهج المقارن - كغيره من المناهج الاخرى - منهج غربي حديث ، « جاء وليد خطأ وثيدة ، حفزت اليها دوافع معقدة » (٢٧١) .

(٢٦٩) نفسه .

(٢٧٠) البحر المحيط (ابو حيان الاندلسي) : ٤ / ١٦٢ ، ١٦٣ مطبعة السعادة القاهرة ١٣٢٨ هـ .

(٢٧١) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٤٣ .

وعلى الرغم من ان اللغويين العرب لم يدرسوا العربية في ضوء اللغات
الجزرية ، ان لهم كثيرا من الاراء التي ايدها البحث اللغوي المقارن الحديث ،
وما ذلك الا دليل على تفاذ بصيرة اسلافنا ، ودقة فقههم لحقائق اللغة ونواميسها .
ومن خير الامثلة على ذلك ان البصريين ذهبوا الى ان الالف في الضمير
(أنا) زائدة ، جيء بها تفريقا للضمير (أن) عن الادوات • اماء الفراء
والكوفيون فرأوا ان (أنا) بجميع اصواته هو الضمير ، وليس فيه زيادة • وقد
أيد رأي الكوفيين هذا البحث المقارن الحديث • فالضمير
(أنا) في الحبشية : أنا ana ، وفي الارامية : إنا ena
وفي السبئية والمعينية ana ، وفي العبرية أني ani وفي البابلية
والآشورية anaku • وكل هذه اللغات تحتفظ بالاصول الثلاثة
للضمير (٢٧٢) .

ومثل (أنا) الضمير (أنت) الذي اختلف فيه اللغويون القدماء ، فذهب
البصريون الى ان (أن) هي الضمير والتاء لحقت للدلالة على الخطاب مثل
الكاف • وذهب الفراء والكوفيون الى ان (أنت) جميعا الضمير بما في ذلك
التاء • والضمير في الحبشية (أتا) anta وفي الارامية ant
أنت ، وفي السبئية والمعينية anta أتا ، وفي العبرية atta
أتا ، وفي البابلية والاشورية atta أتا • والتاء اصل في الضمير
في جميع هذه اللغات (٢٧٣) .

واذا كان اللغويون العرب قد اصابوا ملاحظاتهم اللغوية ، (إنهم
اخطؤوا في ملاحظات غيرها ، وذلك لانهم درسوا العربية داخل العربية نفسها ،
فأدى ذلك الى « انهم لم يوفقوا الى (٢٧٤) بيان المعاني الدقيقة التي يؤديها

(٢٧٢) الدراسات اللغوية عند العرب الى نهاية القرن الثالث (د . محمد حسين
آل ياسين) : ٤٧١ ، ٤٧٢ وينظر مصدره .

(٢٧٣) نفسه : ٤٧٢ .

(٢٧٤) الصواب : لم يوفقوا لبيان .

كثير من الكلمات العربية ... لأنه ليس من الممكن في كل الأحوال ان يهتدي الباحث الى اصل اشتقاق الكلمة اذا اقتصر بحثه على لغة سامية واحدة» (٢٢٥) .

لقد مرّت العربية بمراحل تاريخية طويلة ، ولا يمكن معرفة هذه المراحل وما تركت من اثار في العربية « إلا من خلال دراسة مقارنة باخواتها الساميات ، وهو ما لم يفعله اللغويون العرب ، فكان تقصيرهم في هذا مظهرا من مظاهر النقص في الدرس اللغوي القديم » (٢٢٦) .

ان المعرفة العميقة للعربية تقتضي دراستها من خلال مقارنتها باللغات الجزرية ، وبهذا نستطيع « أن نحقق بعض المسائل التي ربما لم يصل اليها القديم فيها الى نتائج حاسمة ، ولاشك ان النتائج التي يمكن ان يتوصل اليها مفيدة للاستئناس بها في ترجيح الاراء السابقة ، او الوصول الى وجهات نظر جديدة ، وربما الى حقائق يقينية في البحث اللغوي » (٢٢٧) .

ويمكن الاستفادة من المنهج المقارن في دراسة العربية في مجال (المعجم) للتوصل الى الحقائق الآتية :

(أ) الميّز بين العربي الخالص الخاص بالعربية ، والعربي المشترك بين العربية واللغات الجزرية كالأكدية والعبرية والسريانية والعربية الجنوبية والحبشية ، على نحو ما فعل (فرينكل) في تتبعه للالفاظ العربية ذات الاصل الآرامي ، وكما فعل (برجستراسر) و (بروكلمان) وغيرهما .

(ب) الميّز بين العربي الاصيل والمغرب او الدخيل الذي وفد الى العربية من اللغات الأخرى ، التي احتكت بها العربية كالفارسية والاعريقية واللاتينية والتركية واللغات الأوربية المعاصرة وغيرها .

(ج) وفي مجال الدلالة يمكن الاستفادة في بحوثنا المعجمية من مقارنة العربية

(٢٢٥) تاريخ اللغات السامية : (ولفنسون) : ٢١٧ ، ط ١ بيروت ١٩٨٠ .

(٢٢٦) الدراسات اللغوية عند العرب : ٤٧٥ .

(٢٢٧) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٦١ .

باللغات السامية ، لتصحيح ما وقع فيه اللغويون القدماء من اوهام نتيجة
جهلهم بهذه اللغات .

فالفعل (سجد) عدّه اللغويون القدماء من الاضداد ، فهو يعني (انحنى)
و (انتصب) ، ونسب المعنى الثاني الى طيّء . وقد اثبت الدرس المقارن ان
(ساكد) في العبرية يعني (الخضوع) في احد معانيه ، قبل ان يتخصص في
طيّء بمعنى الانتصاب ، وسائر القبائل الاخرى بمعنى الانحناء . وواضح
ان المعنى السامي القديم عام ، يصدق على الانحناء والانتصاب (٢٧٨) .

وذكر اللغويون القدماء ان الفعل (وثب) من الاضداد ، فهو يعني
(قفز) و (جلس) ونسب الثاني الى حمير . وقد دلّ البحث المقارن على ان
(يثب) العبري يعني (جلس) أو (اقام) . ومثله الفعل السرياني (يثب)
مما يجعلنا نطمئن الى أنه المعنى الجزري القديم ، وقد تطورت دلالاته في
مواطن عربية فأصبح يعني (قفز) وبقيت في الحميرية دلالاته الاولى (٢٧٩) .

و (جَوْن) عند قدماء اللغويين من الاضداد ايضا ، فهي تعني الاسود
والابيض . وقد اثبت الدرس المقارن ان المعنيين يعودان الى معنى عام هو
اللون . وقد استعمل النبي (صلى الله عليه وسلم) اللفظة بهذا المعنى العام
حين سأل اصحابه في سحابة مرّت فوقهم : (فكيف ترون جَوْنَهَا) ، يريد
معنى اللون المطلق . وقد أيّد الدرس الحديث ان هذه اللفظة تعني اللون في
العبرية والسريانية ، اذ تلفظ في الاولى (كَفُون) و (كَفَان) و (كافن) ،
وتلفظ في الثانية (كَوْنَا) و (كَوْن) . ويظهر ان هذه اللفظة تخصصت
في العربية بالاسود لدى قضاة ، وبالابيض لدى سائر القبائل العربية (٢٨٠) .
ولذا ذهب محمد حسين آل ياسين الى انه ليس من العلم ان ينسب ادي شير

(٢٧٨) الدراسات اللغوية عند العرب : ٤٨٢ ، ٤٨٣ .

(٢٧٩) نفسه : ٤٨٣ .

(٢٨٠) الدراسات اللغوية عند العرب : ٤٨٣ ، ٤٨٤ .

لفظة (الجون) بهذا المعنى العام الى الفارسية ، ذاهبا الى انها من المعربات عنها (٢٨١) .

(د) وبفضل المنهج المقارن نستطيع ان نتوقع مستقبل الالفاظ العربية او الدخيلة ، فقد دلت البحوث على ان العربية استخدمت « منذ عصور سحيقة الفاظا دخيلة وفاءا بحاجاتها العصرية ، فما انسجم من هذه الالفاظ مع الوزن العربي هضمته العربية ، وغدا خيوطا طبيعية في نسيج لثمتها ، ومالم يخضع للوزن العربي ككثير من الوان الاطعمة والملابس والزينة التي اخذتها عن الفارسية وعجت بها الكتب التي تعرضت لمثل هذه الموضوعات كالبخلاء للجاحظ والاغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، فقد كتب عليها ان تموت ، او يموت اكثرها » (٢٨٢) .

وتأسيسا على هذه الحقيقة ان في وسع المرء « ان يقرر ان كثيرا من الالفاظ التي تشيع في العربية الان من اصل غير عربي - وبخاصة ما يخرج عن الوزن العربي - مثل دوبروماسية وبيروقراطية وبيلوغرافيا . . . ان يهمل طويلا ، بل ان المرء ليشاهد في عمر الفرد الواحد بزوغ الفاظ اجنبية اكسد استعمالها نظام ما في بلد ما ، مثل (بروتيتاريا ، بروجوازية ، ارستقراطية) ثم افلت هذه الالفاظ بافول ذلك النظام . اما الالفاظ التي من مثل : التلفزة والتلفنة والبسترة فان فرصتها في البقاء اوفر ، لانها تأقلمت ، واخذت سحنة عربية ، بل استطاعت ان تتكاثر بالاشتقاق كما تتكاثر الكلمات العربية الاصلية ، فيقال : تَلَفَزَ يُتَلَفَزُ مُتَلَفِزٌ . . . الخ وقد حدث هذا من قبل في تاريخ العربية ، في نحو : فلسف ویتفلسف ومتفلسف وفلاسفة ، ونحو : قرطاس وقرطاس ، ومن ذلك التَّرْعَة وهي الباب او قُوَّة الجدول ، فقد اشتق منها التَّرَاع وهو البوَّاب ، وهي سريانية الاصل . وغير ذلك كثير » (٢٨٣) .

(٢٨١) نفسه : ٤٨٤ .

(٢٨٢) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٦٣ ، ٦٤ .

(٢٨٣) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٦٤ .

ويمكن الاستفادة من المنهج المقارن في مجال الدراسة الصوتية والصرفية ،
وسنجتزىء من ذلك ببعض الامثلة •

من ألقاب اللهجات العربية (الاستنطاء) ، وهو لقب لُقبَت به لهجات
سعد بن بكر وهذيل والازد وقيس والانصار واهل اليمن^(٢٨٤) ، « ويقصد
به في الدراسة القديمة ابدال العين الساكنة فونا اذا جاورت الطاء ، ولم يُذكر
له إلا مثال واحد ، هو (أنطى) في (اعطى) • وقرأ الحسن البصري : (إنا
انطيناك الكوثر) بدل (أعطيناك) • وكل ما ذكر من شواهد الاستنطاء النثرية
والشعرية لا تخرج عن هذا المثال »^(٢٨٥) •

وقد لاحظ الدرس المقارن ان هذا الفعل في اللغات الجزرية بالنون ،
فأعطى في العبرية : تن ، وفي السريانية : تنن ، ويُلَفَّظ كالفعل العبري تقريبا •
وفي العبرية الفعل : (نطا) الذي يستعمل في مثل قولنا : نطا يدو الى : مدَّ
يده الى ، اي أخذ ، وهو المعنى المضاد لـ (أعطى) العربي ، والموافق لـ
(عطا يعطو) اي اخذ وتناول • ومن هذا يتبين ان النون اصيلة في الفعل
(أنطى) وهو الفعل الجزري القديم^(٢٨٦) •

اما ابراهيم السامرائي فيذهب الى ان الفعل (أنطى) مأخوذ من (آتى)
بمعنى (أعطى) ثم ضعفت التاء فصار (أتى) وحين فك الادغام كان بالنون ،
على سنن العربية واللغات الجزرية من فك التضعيف بالنون احيانا ، كجندل
من جَدَل ، وقد يفك بغير النون^(٢٨٧) •

ومما لُقبَت به لهجة هذيل (الفحفحة) وهو جعل الحاء عينا ، ولا مثال
على هذا فيما تذكر المصادر سوى (عتّى) في (حتى) • وقرأ ابن مسعود :
(عتّى حين) ، بدل (حتى حين) ، وافكر ذلك عليه عمر^(٢٨٨) • والمصادر لا تتجاوز

(٢٨٤) الدراسات اللغوية عند العرب : ٤٧٥ ، ٤٧٦ وينظر مصدره •

(٢٨٥) نفسه : ٤٧٦ •

(٢٨٦) نفسه •

(٢٨٧) دراسات في اللغة : ٢١٧ •

(٢٨٨) المحتسب (ابن جني) : ٣٢٣/١ •

(عتّى) الى مثال آخر ، نستطيع ان نستدل به على ان ابدال الحاء عينا سنة لغوية في هذيل .

وقد كشف الدرس المقارن عن حقيقة هذا الامر ، ففي العبرية يقابل (حتى) : (عَدَّ) ويقابلها في الارامية (عَدَّ) ايضا . وقد ابدل صوت التاء المهموس في هاتين اللغتين دالا وهو صوت مجهور يتجانس مع العين المجهور . ومعنى ذلك ان صوت العين في هذه الكلمة هو الاصل السامي الذي احتفظت به هذيل (٢٨٩) .

وكان اللغويون القدماء يظنون ان التاء في (اللص) بدل من الصاد في (لص) ، اي ان اللص هي الاصل والصلت فرع منها . وذكروا في جمعهما لصوص ولصوت واستشهدوا لهما (٢٩٠) . ونسبت الصيغة التي بالتاء الى طييء واهل اليمن وبعض الانصار وغيرهم .

والحق ان قوانين اللغة تأبى - ان كانت اللص اصلا والصلت فرعا - ان يبدل الصاد الرخو تاءا شديدة . وقد لجأ الدارسون الى المنهج المقارن لحل هذا الاشكال ، فوقفوا على ان اللصت بالتاء هي الاصل ، والصل بالصاد هي الفرع ، فهي في السريانية Lestes لستس والتاء اصلية فيها (٢٩١) .

وذهب اللغويون العرب الى ان اصول الافعال : قال وباع ورمى وتلا هي : قَوَلَ وَبَيَعَ وَتَلَوْ وَرَمَى ، وهي اصول قياسية مفترضة لم تستعمل . غير ان الدرس المقارن اثبت ان الحبشية تقول : بَيَنَ بمعنى تحقق ، ويقابل (بان) العربي ، وَدَيَنَ بمعنى دان وَرَمَى بمعنى رمى وَتَلَوْ بمعنى تلا . وهذا يعني ان هذه الصيغ اصلية فعلا ، وقد كانت مستعملة في

(٢٨٩) الدراسات اللغوية عند العرب : ٤٧٦ ، ٤٧٧ وينظر : المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٧٤ وما بعدها .

(٢٩٠) في اللهجات العربية : ٩٢ .

(٢٩١) الدراسات اللغوية عند العرب : ٤٧٩ .

اللغات السامية قبل ان تنتقل فيها العربية الى مرحلة استعمال الصيغ الجديدة ،
التي استحدثها طلب اليسر في النطق بالابتعاد عن توالي ثلاث حركات (٢٩٢) .

وقد اختلف اللغويون في حقيقة همزة (اسم) ، فذهب البصريون الى
ان (اسم) مشتق من السمو فالالف فيه عوض من الواو . وذهب الكوفيون
الى ان (اسم) مشتق من الوسم والألف عوض من الواو ايضا (٢٩٣) .

وقد اثبت الدرس المقارن الحديث ان كلا الفريقين بعيد من الحقيقة ،
ويبدو ان الذي اوقع اللغويين فيما وقعوا فيه هو تمسكهم بفكرة ثلاثية
الاصول العربية . وهم حين تأولوا لهزمة (اسم) اصلا ، كانوا قد تأولوا لـ
(يد) و (دم) واشباههما من الثنائيات اصلا ثالثا . وقد اثبت الدرس اللغوي
المقارن ان هذه الثنائيات في العربية ان هي إلا بقايا مرحلة لغوية سابقة .
ف (اسم) في العبرية (شِم) وفي الآرامية (شِما) والالف في آخره اداة
التعريف ، وفي الاكدية (شِمْ) . وواضح ان هذه اللغات تنبىء بان همزة
(اسم) غير اصلية ، وان الكلمة ثنائية الاصل (٢٩٤) .

وكانت (اللهم) مثار خلاف بين اللغويين ، فذهب سيبويه والبصريون
الى انها في الاصل (الله) وميم مشددة في الآخر تنوب عن ياء النداء . وذهب
الفراء والكوفيون الى انها منحوتة من (يا الله أُمَّنا بخير) ، ولكثرة
الاستعمال حذفت بعض اجزاء هذه العبارة تخفيفا . وقد خذلت الشواهد
كلا الفريقين ، ولم تسعفه بما كان يريد منها . وأما الدرس اللغوي المقارن
فقد اباط اللثام عن هذه الكلمة ، واثبتت انها متطورة عن (إلهيم) العبرية
التي تعني بها الآلهة . والياء والميم فيها علامة الجمع ، ولكن الاستعمال يريد
بها (الله) ، وعلامة الجمع انما جاءت للتعظيم (٢٩٥) .

(٢٩٢) نفسه : ٤٨١ وينظر مصدره .

(٢٩٣) الانصاف في مسائل الخلاف (المسألة الاولى) .

(٢٩٤) الدراسات اللغوية عند العرب : ٤٨١ .

(٢٩٥) نفسه : ٤٨٢ وينظر مصدره .

ومسألة التذكير والتأنيث مما اختلف فيه اللغويون ، فاللغات الجزرية لم تكن في مراحلها الاولى تفرق بين جنس المذكر والمؤنث ، وحين تطورت هذه اللغات ، واستقرت على التفريق ، متخذة لذلك علامات التأنيث ، بقيت فيها مفردات تضطرب في الاستعمال بين التذكير والتأنيث ، مشيرة بذلك الى المراحل السابقة .

ولما كان اللغويون يحرصون اشد الحرص على توحيد اللغة بالقواعيد المطردة ، والقياس الشامل ، انكروا بعض المؤنثات لان الاكثر تذكيرها ، وأولوا بعض المذكرات لان الاوسع او الاصح تأنيثها ، كما ردوا بعض ما جاء في الشعر من تذكير او تأنيث يخالف ما قرروه الى الضرورة . وقد فات اللغويين ان هذا التغير في استعمال المذكر والمؤنث موجود في جميع اللغات السامية ، وهو يمثل في جميعها المراحل القديمة ، وان اللغة حين استقرت على التفريق تخصصت بعض الالفاظ بالتأنيث في لهجات من العربية ، وبالتذكير في لهجات اخرى ، او تخصص بالتأنيث في لغة جزرية وبالتذكير في لغة اخرى ، ولو ادركوا ذلك لما حكموا على ما وقعوا عليه من الفاظ هذه الظاهرة بما يخالف وجه الصواب .

ومن ذلك (الكف) التي قطع الفراء بانها مؤنثة ، ثم حمل استعمال الاعشى لها مذكرة في قوله :

الى رجل منهم أسيف كأنما يضم الى كشحيه كفاً مخضباً
على الضرورة (٢٩٦) .

وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) قد استعمل (كف) مذكرة في قوله :
(مضمض واستنشق من كف واحد) . ومن العرب من ذكرها ايضاً .

واذا جئنا الى اللغات الجزرية وجدنا (الكف) مؤنثة في العبرية والسريانية ومذكرة في الارامية ، وعرفنا انها مؤنث وتذكر في العربية ، ولذا

(٢٩٦) المذكر والمؤنث (الفراء) : ١٧ .

لا وجه لحمل استعمالها مذكرة في بيت الاعشى على الضرورة ، والقطع بتأنيثها (٢٩٧) .

ومما اختلفوا فيه كلمة (بنت) و (أخت) ، فقد ذهب فريق منهم الى ان التاء فيهما ليست للتأنيث ، لان ما قبلها ساكن ، والقياس في هذه التاء ان يسبقها مفتوح . ولذا قرروا ان التاء في (بنت) و (أخت) بدل من الواو ، ولم يدفعهم الى هذا الزعم إلا ان (بنت) و (أخت) تخالفان قياسيهم الذي تمسكوا به .

وقد علّق باحث حديث على رأي اللغويين هذا بقوله : « من اين جاءهم ان التاء ليست للتأنيث ؟ ألمجرد ان اغلب تاءات التأنيث في العربية مسبوقة بفتحة ، اما تاء (أخت) و (بنت) فمسبوقة بسكون ؟ ولماذا تجري القياس الى هذا الحد ؟ ان المقارنة بين اللغات توضح ان التاء في بنت وأخت علامة للتأنيث ، وانهما اقدم من قولهم : ابنة وأخة » (٢٩٨) . وكان السيوطي قد قال : « وزعم ان بعض العرب يقولون في الاخ والاخت : اخ وأخة ، ذكره الكلبي ، ولا ادري ما صحة ذلك » (٢٩٩) .

وأما في مجال الدراسة النحوية فيمكن الافادة من المنهج المقارن ، لتصحيح بعض ما وقع فيه النحاة القدماء من اوهام نتيجة جهلهم باللغات الجزرية . من ذلك ان النحاة القدماء رأوا في قولهم : (وازيداه) ان الالف زائدة ، و (زيد) مبني على الضم في محل نصب والهاء للسكت . اما المنهج المقارن فيحاول ان يفسر الالف في هذا المثال وما يشبهه بأنه بقايا حروف نداء مكررة ، فالذي يقول : يا زيداه ، كأنما قال : يا زيد يا ، فاذا مظل الصوت كثيرا انتهى النفس بالهاء ، فقال : يا زيداه ، وكذلك في بقية الكلمات ، « وتكرار حروف

(٢٩٧) الدراسات اللغوية عند العرب : ٤٨٥ ، ٤٨٦ .

(٢٩٨) المدخل الى دراسة النحو على ضوء اللغات السامية (عبدالمجيد عابدين) :

٨٨ ، ط ١ ، ١٩٥١ .

(٢٩٩) المزهري : ٦٥/١ .

النداء ظاهرة طبيعية يحتاج اليها الانسان في كل لغة ... وقد حدث مثل ذلك في احدى شقيقات العربية المقربات ، وهي اللغة الحبشية الجعزية ، اذ يذكر فيها حرف النداء في اول التعبير ، ثم يذكر المنادي ، ثم يكرر حرف النداء او يكرر بعضه ، فيقال مثلا : اويست او = يا امرأة يا ، وقد تحذف الهمزة من حرف النداء الاخير لتصبح : اويستو » (٣٠٠) .

ومن ذلك ما انتهى اليه الدرس المقارن من ان التنوين - وهو علامة التنكير - اقدم من اداة التعريف بالعربية ، ذلك ان التنوين مستخدم في اقدم ما وصل الينا من نصوص اللغات الجزرية كالاكدية وفيها (التميم) والاوغاريتية وفيها (التنوين) . اما اللغات السامية التي استخدمت اداة التعريف فانها لم تستقر على اداة واحدة ، فهي (ال) في العربية و (هل) في العبرية ، ثم اصبحت اداة التعريف في هذه الهاء وحدها بعد ان اختفت اللام . والهاء اداة التعريف في العربية البائدة (الثمودية واللحيانية) ، اما العربية الجنوبية ففيها (أن) و (أم) وهما اداتا تعريف قديمتان في العربية الجنوبية ، ولا تزالان تستخدمان حتى اليوم في بعض مناطق اليمن . وقد وردت الهاء بدلا من الهمزة في النقوش اليمنية القديمة ، فقليل : (هن) في (أن) . ولا يعني ذلك اصالة اداة التعريف في اللغات السامية ، وان هذه الاداة كانت موجودة في السامية الام ، وذلك لان كثيرا من اللغات الجزرية القديمة كالاكدية والاوغاريتية تخلو من اداة التعريف .

ومن المفيد ان نشير الى ان النحويين القدماء حين عدوا التنكير اصلا والتعريف فرعاً ، فانهم لم يبنوا رأيهم هذا على الدليل التاريخي ، وانما بنوه على اساس عقلي ، ذلك ان التنكير عندهم يعني الشيوع ، والتعريف يعني التخصص ، والشيء يكون شائعاً اولاً ثم يتخصص .

(٣٠٠) المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة : ٦٩ .

(٥)

مناهج اخرى ١ - المنهج التحويلي

ظروف نشأته :

لقد اشرنا فيما سبق الى ان في اواخر القرن التاسع عشر ظهر لغويون عارضوا المنهج التاريخي المقارن ، وحملوا على اسلوب مقارنة اللغات الحية بلغة ميتة ، وكان اللغوي السويسري (سوسير) المتوفى عام ١٩١٣ من اوائل اللغويين المعاصرين الذين عارضوا البحث التاريخي المقارن ، وذهب الى انه لا يصلح لدراسة اللغات الحية ، ثم قرر سوسير ان اللغة ينبغي ان تضيق دائرة درسها ، فتدرس في مرحلة خاصة ، وفي بيئة مكانية وزمانية محدودة ، واطلق على منهجه هذا (المنهج الوصفي) . وهكذا رفض سوسير المنهج التاريخي واقام على انقاضه منهجا جديدا هو المنهج الوصفي ، لانه في رأيه الطريق الوحيد لبحث اللغة على اساس علمي .

ثم ساد هذا المنهج ، ونال احترام اللغويين الذين جاؤوا بعد سوسير في اوربا وامريكا ، وعلى الرغم من ان اصحاب المنهج الوصفي سعوا الى استقلالية علم اللغة ، انهم لم يحجموا عن الاستفادة من نتائج العلوم الاخرى كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الطب وعلم التشريح ، وكان سوسير نفسه متأثرا بعلم الاجتماع .

وكان ظهور المنهج الوصفي في دراسة اللغة بوجه عام ودراسة النحــو بوجه خاص يعد ثورة في علم اللغة ، فقد شاع هذا المنهج ، وكتبت له السيادة

لا في اوربا وامريكا حسب بل في الوطن العربي ايضا ، حيث برز عدد من النحاة الذين تأثروا به ، وعدوه المنهج الصحيح في دراسة اللغة العربية ، ثم حملوا على النحو التقليدي لاعتماده على المنطق والفلسفة ، وتجاوزه ظاهرة التركيب اللغوي الى ما وراءه من الفاظ مفترضة ، لا ينطق بها المتكلم فعلا ، ولا تبرز على سطح اللغة كما يقولون .

ثم جاء عام ١٩٥٧م فحدثت ثورة جديدة في ميدان دراسة اللغة ، وبرز اتجاه آخر يدعو الى تغيير اتجاه علم اللغة من المنهج الوصفي الى منهج جديد هو ما يعرف بـ (المنهج التحويلي) ، وكان صاحب هذا الاتجاه هو اللغوي الامريكي المعروف (نعوم چومسكي) المولود في امريكا عام ١٩١٨م .

لقد رأى هذا اللغوي ان المنهج الوصفي يقصر اهتمامه على السطح اللغوي ، فكأن الحدث اللغوي امر آلي ، لا يرتبط بما في نفس الانسان من عوالم عقلية وشعورية تؤثر في الحدث اللغوي ، وتشكله بهذا الشكل او ذاك . إن اللغة كما يرى چومسكي اهم الجوانب الحيوية في نشاط الانسان ، ولهذا ليس من المعقول ان تكون لها هذه الاهمية ثم تتحول الى مجرد تراكيب شكلية يسعى الوصفيون الى تجريدتها من العقل (٣٠١) . ومعنى ذلك ان هذا اللغوي كان يقيم نظريته على اساس عقلي ، ويحاول ان يفسر ظواهر اللغة تفسيراً عقلياً يناسب اهميتها ، ويكشف عما وراءها من دوافع عقلية ومنطقية . وعلى هذا الاساس قسم چومسكي الكلام الانساني على جانبين :

الاول : ما ينطق به الانسان فعلا وقد سماه (البنية السطحية للكلام) .

الآخر : هو ما يجري في اعماق الانسان ساعة التكلم فيدفعه الى تفضيل هذه الصيغة او ذلك التركيب ، وسماه (البنية العميقة للكلام) . ومعنى ذلك ان اللغة التي ننطق بها فعلا انما تكون تحتها عمليات عقلية عميقة ، ودراسة

(٣٠١) النحو العربي والدرس الحديث : ١١٢ .

بنية السطح تقدم التفسير الصوتي للغة ، اما دراسة (بنية العمق) فتقدم التفسير الدلالي لها (٣٠٢) .

ومن اجل ذلك رفض جومسكي المنهج الوصفي لقصوره ، وعجزه عن الايغال فيما وراء الاشكال اللغوية الظاهرة ، المنظوقة او المكتوبة . وقد طبق المنهج التحويلي على دراسة النحو ، فظهر ما يسمى بـ (النحو التحويلي) وهو كما تقدم يهتم بالبنية العميقة للكلام ، ويحاول ان يربط بينها وبين ما تتحول اليه من بنية سطحية .

وتسمية هذا النحو بالتحويلي نابعة من انه يفترض لكل بنية لغوية ظاهرة ، بنية اخرى عميقة كامنة في ذهن المتكلم ، ثم يحاول الكشف عن كيفية تحول البنية العميقة الثانية الى البنية السطحية الاولى ، او البنية الظاهرة الملفوظة . ولا بد لمن يتبع هذا المنهج في دراسة النحو من ان يعتمد على الحدس او التصور او الفروض العقلية . ولا بد من الاشارة الى ان جومسكي الذي ينسب اليه هذا المنهج ، ويعد اول من وضع اسسه واطهر اهميته ، قد درس العبرية القديمة ، وربما درس اصول النحو العربي عن طريق المترجمات العبرية في الاندلس ، وهي مترجمات نقلت قواعد النحو العربي ، وطبقته على العبرية . ومن هنا يمكن ان نفترض تأثر تشومسكي والمدرسة التحويلية بالدراسة اللغوية العربية القديمة . واما على صعيد الغربيين فجومسكي ايضا لم يكن اول من فطن الى هذا المنهج ، وان كان هو اول من اعطاه هذا المصطلح ، فقد اشار اليه لغويون غربيون بعبارات متفاوتة بين التلميح والتصريح ، لعل من افضلها عبارة احدهم حين قال : « اللغة كجبل الجليد العائم ، وما هو مكشوف منه للملاحظة المباشرة اقل بكثير مما يخفى منه تحت الماء » .

(٣٠٢) نفسه : ١١٥ .

طبيعته :

يقوم هذا المنهج على فكرة ملخصها « أن هناك تركيبات أساسية تشترك فيها اللغات جميعا ، وان وظيفة القواعد التحويلية هي تحويل تلك التراكيب الأساسية الى تراكيب سطحية ، وهي التراكيب المنطوقة فعلا ويسمى السامع » (٣٠٣) . ومعنى ذلك ان القواعد التحويلية هي « التي تضفي على كل جملة تولدها تركيبين : احدهما باطني (اساسي) والاخر ظاهر (سطحي) وتربط بين التركيبين بنظام خاص » (٣٠٤) .

والتركيب الباطني او الاساسي او البنية العميقة عند چومسكي « هو المعنى الكامن في نفس المتكلم بلغته الام ، ومقياسه المقدرة او الكفاية التي تتكون في الفرد وتجعله يعبر عما في باطنه بجمل عديدة لم يسمعها من قبل . وهذه المقدرة تولد مع الطفل ، وتمكنه من تعلم اية لغة في العالم » (٣٠٥) .

ثم ان هذه المقدرة او الكفاية هي التي يتم بها اداء جمل عديدة عن المعنى الباطني ، « وهذه الجمل ما هي إلا مظهر سطحي او تركيب سطحي لذلك المعنى الباطني ، والكفاية او المقدرة ، اذن هي التي يقاس بها التركيب الباطني ، اما البنية السطحية فيمثلها الاداء الفعلي للكلام » (٣٠٦) .

ويذهب بعض الدارسين الى ان چومسكي في قوله بالمقدرة على اللغة الكامنة في الانسان التي تمكنه من استيعاب اللغة والنطق بعبارات لم يسمعها من قبل « ربما كان متأثرا في ذلك بالمفكر الفرنسي ديكرت الذي يرى ان اهم فرق بين الانسان والحيوان هو مقدرة الاول على اللغة وترتيب الكلمات في طرق مختلفة ، لكي يعبر بها تعبيرا لا ثقا عن اي شيء يقال في حضوره ، حتى إن كان — اي الانسان — في ادنى مراتبه ، في حين ان الحيوان لا يستطيع ان

(٣٠٣) في علم اللغة التقابلي (د. احمد سليمان ياقوت) : ٣٧ ، ط الاسكندرية ١٩٨٩ .

(٣٠٤) نفسه .

(٣٠٥) نفسه .

(٣٠٦) نفسه .

يفعل ذلك مهما بلغت درجته من الكمال ، ومهما ساعدته الظروف المحيطة به « (٣٠٧) .

ويقال ايضا ان چومسكي « ربما كان متأثرا بالعالم الالماني مولر Muller المتوفى عام ١٩٠٠ م ، فقد ذكر في الدرس التاسع من كتابه علم اللغة ان الفضل في نشأة اللغة يرجع الى غريزة زود بها الانسان في الاصل للتعبير عن مدركاته بأصوات مركبة ذات مقاطع ، كما زود باستعداد فطري للتعبير عن انفعالاته بحركات جسمية واصوات بسيطة » (٣٠٨) .

فالطفل مثلا « عندما يرى حدثا امامه يستقر في نفسه معنى هذا الحدث لغويا ومغلغا بالمفردات ، فهذا هو التركيب الباطني . والكفاية او القدرة على اللغة هي التي جعلت هذا التركيب يستقر في نفسه ، وهذه القدرة انما هي جزء من مكوناته البيولوجية ، ثم انه ليعبر عما استقر في نفسه ، اي يؤديه في جملة او جمل ، اي ينقله او يحوله الى بنية سطحية ، وهذه البنية السطحية يمثلها الاداء » (٣٠٩) .

ويلاحظ ان « الطفل في العملية الاولى (التركيب الباطني المتمثل في المقدرة) انما يكون اعتماده على الحدس او الإلهام - اي القوة الكامنة في خلق الطفل ، ولا علاقة لها بالمؤثرات الخارجية المحيطة به - لان چومسكي ينكر العوامل الخارجية التي قال بها انصار المدرسة السلوكية في التعبير اللغوي ، والتي كانت دراستها تقتصر على المظاهر الحسية للسلوك البشري ، وكانوا يرون ان اللغة التي لاتعدو ان تكون مجموعة من العادات السلوكية مثلها في ذلك مثل اية عادة سلوكية اخرى ، ولذلك اهملوا دراسة المعنى ، لانه لا يخضع للمنهج العلمي الذي يهتم بدراسة الاشياء الظاهرة فقط او الماديات » (٣١٠) .

(٣٠٧) في علم اللغة التقابلي : ٣٨ .

(٣٠٨) نفسه .

(٣٠٩) نفسه : ٣٩ .

(٣١٠) نفسه : ٣٩ ، ٤٠ .

لقد انكر اذن چومسكي كل ذلك « ورأى ان اللغة انما هي جهاز محكوم بقواعد معينة - وهي قواعد التحويل وعناصره التي سيأتي ذكرها - ينبغي اكتشافها ، وان العلاقات بين اجزاء الجملة الواحدة اعمق بكثير من تلك العلاقات الظاهرة على السطح » (٣١١) .

فشة شقان للغة عند التحويلين : « الاول هو المظهر الخارجي لها ، اي الكلام المنطوق به فعلا ، وهو محل دراسة الوصفين من اللغويين الذين تأثروا بالمدرسة السلوكية في علم النفس ، في حين ان التحويلين عدوه مظهرا خارجيا ذا اثر صوتي يعتمد على الاداء ، ويجب ان يرد الى التركيب الباطني ، وهو الشق الثاني عندهم ، ويتمثل في المقدرة ، او الكفاية الكامنة في الانسان التي تجعله يستوعب القواعد او الاسس التي يبني عليها الكلام . وبمعنى آخر فان النحو التحويلي نظرية ذهنية تهتم بالحقيقة الذهنية التي تكمن وراء الاداء اللغوي ، ومن ثم كانت مادة القواعد التحويلية هي اللغة الصرف لانها تتعامل مع المقدرة اللغوية ، في حين ان المادة اللغوية التي تتعامل معها القواعد الوصفية هي مزيج من مؤثرات لغوية و نفسية واجتماعية اذ انها تركز على الاداء اللغوي الذي يتأثر بهذه العوامل لا محالة » (٣١٢) .

ولابد من الاشارة هنا الى ان التحويلين يرون ان اللغة ، اي لغة ، تتكون من مجموعة محدودة من الاصوات ، ومع ذلك فهي تنتج عند التحويلين عددا غير محدود من الجمل ، وفي ذلك يقول چومسكي : « ان اية لغة طبيعية تتكون من عدد محدود من الفونيمات ومن حروف الهجاء - مكتوبة كانت او منطوقة - وكل جملة تمثل عددا محدودا من تلك الفونيمات والحروف ومع ذلك تنتج تلك الفونيمات والحروف عددا غير محدود من الجمل » (٣١٣) .

(٣١١) في علم اللغة التقابلي : ٣٩ ، ٤٠ .

(٣١٢) في علم اللغة التقابلي : ٤٠ ، ٤١ .

(٣١٣) نفسه : ٤١ .

سمات المنهج التحويلي في النحو العربي :

لقد تمثلت في تراثنا النحوي سمات اساسية من المنهج التحويلي ، فقد غلبت هذه السمات على تفكير النحاة العرب الذين سبقوا جومسكي بمئات السنين ، ومن الجوانب الاساسية في المنهج التحويلي ، التي نراها بارزة واضحة في تفكير النحاة العرب ما يأتي :

(١) البحث عما يسمى بـ (الاصل والفرع) للظاهرة اللغوية :

لقد شغل النحاة العرب نفوسهم بالبحث عن هذه الفكرة في ظواهر اللغة^(٣١٤) ، فالنكرة عندهم اصل والمعرفة فرع ، والمفرد اصل والمثنى والجمع فرعان عليه ، والمذكر اصل والمؤنث فرع ، والفعل (قال) اصله (قَوَلَ) و (اصطبر) اصله (اصتبر) ، و (شاكي السلاح) اصله (شائك) ثم حدث قلب مكاني في (شائك) تحولت فيه الهمزة الى آخر الكلمة فاصبحت (شاكي) ثم ابدلت ياء ا فاصبحت (شاكي) ، وهكذا يبحث النحاة العرب عن الاصل ويتابعون تحوله ، وتولد الفرع عنه •

(٢) ومن السمات التحويلية في منهج النحاة العرب ما اولعوا به من تعليل ، فقد كانوا لا يقنعون بالوقوف عند البنية السطحية للغة ، وانما يبحثون عما وراءها من علل واسباب ، فالمضاف اليه لم يكن مجرورا إلا لان الاضافة عندهم على نوعين : بمعنى (اللام) وبمعنى (من) ثم حذف حرف الجر وقام المضاف مقامه ، فعمل الجر في المضاف اليه كما يعمل حرف الجر • فتعبير (كتاب زيد) و (ثوب خز) يرى النحاة العرب ان الجر في الاول على تقوير حرف جر هو اللام اي اصل الكلام (كتاب لزيد) ثم حذف حرف الجر وقيم المضاف مقامه • واصل التعبير الثاني (ثوب من خز) ثم حذف حرف الجر وقيم المضاف مقامه • وواضح ان النحاة الوصفيين يقفون عند ظاهرة الجر

(٣١٤) نفسه : ٩١ وما بعدها .

في المضاف اليه ، ويكتفون بتسجيلها من غير ان يبحثوا عن السبب الذي يقف وراءها ، اذ لا دليل عندهم عليه ، بل هو مجرد افتراض وتخيل •

(٣) والتقدير والتأويل من ابرز ملامح المنهج التحويلي في تفكير النحاة العرب ، فلم يكن اولئك النحاة يقفون عند التركيب الملفوظ او المكتوب ، وانما كانوا يبحثون عما وراءهما من كلمات زعموها قائمة في ذهن المتكلم ، ولكنه لم يلفظها ، او لم تبرز على سطح اللغة • فالمستثنى في مثل قولنا : (قام الطلاب الا خالدا) ليس منصوبا عند بعضهم بـ (الا) بل هو منصوب بفعل كامن في ذهن المتكلم تقديره (استثنى) ، او منصوب بـ (إن) مضمرة ، فكأن اصل التعبير او بنيته العميقة : (قام الطلاب استثنى خالدا) او (قام الطلاب الا ان خالدا لم يقم) • يتضح مما سبق ان النحاة العرب كانوا آخذين باكثر ملامح المنهج التحويلي ، فهم يؤمنون بان لكل بنية لغوية ظاهرة بنية ثانية عميقة كامنة في ذهن المتكلم ، ويؤمنون بان وظيفة النحو هي التوفيق بين هاتين البنيتين ، والكشف عن كيفية تحول احدهما الى الاخرى • وعلى اي حال فمن النحاة الغربيين من اصبح مقتنعا بان الاتجاه العقلي في فهم اللغة هو الاتجاه الصحيح ، وان الوقوف عند سطح الظاهرة اللغوية لا يكشف عن جوهر الظاهرة ، وقد اطلقوا على هذا الاتجاه اسم (المنهج التحويلي) وهو منهج آمن به النحاة العرب قبل مئات السنين ، ودرسوا الظواهر النحوية على اساسه ، واذا كنا لا نريد القول بسبق العرب اليه فاننا لا نخشى القول ان جذور هذا المنهج واضحة في التراث النحوي العربي ، ومن يدري لعل هذه الجذور كانت احد الاسس التي اقام عليها التحويليون الامريكيون منهجهم العتيق •

ونحن نشير هنا الى الجوانب التحويلية في النحو العربي ، لا بد لنا من القول ان چومسكي الذي رفض المنهج الوصفي لقصوره عن ادراك الجانب الخفي في اللغة ، ذلك الجانب الذي يتحرك وراء مظهرها المادي ، او لقصور

المنهج الوصفي عن ربط اللغة بالجانب العقلي ، يشبه في عمله هذا عمل اللغوي العربي عبدالقاهر الجرجاني فجومسكي كان معنيا بدراسة القدرة اللغوية ، وهي ملكة عقلية ، لا دراسة الاداء اللغوي ، او كان مهتما بدراسة العلاقة الجدلية بين الكلام اللفظي والكلام النفسي ، على ما هو الحال عند عبدالقاهر الجرجاني في اعتماده على القول بالنظم المتمثل بالعلاقات المعنوية بين الاصناف النحوية ، بل ان جهد كل منهما قد تبلور « في اعطاء النحو امكانات تركيبية مستمدة من قواعده الفعلية بحيث اصبحت هذه الامكانات اشبه شيء بصندوق مغلق له مدخل ومخرج تدخل فيه المفردات وتتفاعل ثم تخرج على الصورة التأليفية الجديدة ونحن لا نلص سوى المظهر المادي للعملية ، اما الجانب العقلي فهو خفي داخل الصندوق » (٣١٥) .

المنهج التحويلي (عناصره وتطبيقه) :

يقوم هذا المنهج على عدة اعتبارات ، اهمها ان الجملة بمقتضاه هي « الحد الادنى من الكلمات التي تحمل معنى يحسن السكوت عليه » (٣١٦) . والجملة عند اصحاب هذا المنهج تقع في اطارين كبيرين : الاسمية والفعلية ، وهي بعد ذلك إما توليدية اسمية وإما توليدية فعلية . ويراد بالجملة التوليدية — وقد تسمى النواة او الجملة الاصل او الجملة الخام — التي تؤدي معنى إسناديا بسيطا ، وتخلو من اي عنصر يضيف اليها معنى زائدا على المعنى الاسنادي البسيط الاصيل . وتكون الجملة التوليدية الاسمية من مبتدأ وخبر واما التوليدية الفعلية فتكون من فعل وفاعل ومفعول .

وقد يطرأ على الجملة التوليدية عنصر من عناصر التحويل ، فتصبح عند ذلك تحويلية « ولكنها تبقى كما كانت اسمية او فعلية لان العبرة بالاصل .

(٣١٥) النظرية التحويلية في الدراسات النحوية العربية (كريم عبيد عليوي) ، رسالة ماجستير مخطوطة ، كلية التربية — المستنصرية ١٩٩٩ : ٧٧ وينظر مصدره .

(٣١٦) في التحليل اللغوي (د. خليل عمايرة) : ٨٧ ، ط ١ ، ١٩٨٧ .

وتكون الجملة التوليدية - كما تقدم - لغرض الاخبار ، اما التحويلية فانها تكون لمعنى جديد تحوّل عن المعنى الذي كان للجملة التوليدية ، اذ التحويل لا يكون إلا لغرض يتعلق بالمعنى « (٣١٧) » .

أما عناصر التحويل فهي (٣١٨) :

(١) الترتيب : واصحاب هذا المنهج يأخذون بالرأي القديم القائل : (ان العرب اذا ارادت العناية بشيء قدمته) ، ويأخذون كذلك برأي الكوفيين الذين يجيزون تقديم الفاعل على فعله .

(٢) الزيادة : ويقصد بها اضافة كلمات جديدة الى الجملة التوليدية ، لتصبح جملة تحويلية .

(٣) الحذف : ويكون في ركن رئيس من الجملة التوليدية ، فتتحول الى جملة تحويلية ، ولكنها تبقى على ما هي عليه من حيث الفعلية او الاسمية .

(٤) الحركة الإعرابية : وتكون بمقتضى هذا المنهج « ذات قيمة دلالية كبيرة ، وبها يتم تحويل الجملة التوليدية عن اصل افتراضي كانت عليه للاخبار » (٣١٩) ، وهي لذلك ليست اثرا لعامل ، ولا حاجة بنا لتقديره ، بل ان القول بالعامل يترتب عليه اهمال المعنى الذي جاءت الجملة اصلا له . واما قول النحاة القدماء بان الحركة الاعرابية اثر ظاهر او مقدر يجلبه العامل ، فقد ردّه بعض الآخذين بمنهج التحويل هذا فقال : « لهؤلاء نقول : ان الحركة الاعرابية شأنها شأن اي فونيم في الكلمة ، له قيمته واثره في الافصاح عما في النفس من معنى ، فيكون تغييرها محققا لما في نفس المتكلم من معنى يريد الإبانة والإفصاح عنه . فاذا قال المتكلم : الاسدُ (بالضمّة) فان السامع يدرك انه قد اراد نقل خبر ليس غير ، ولكنه ان قال : الاسدَ (بالفتحة) فان

(٣١٧) في التحليل اللغوي : ٨٧ .

(٣١٨) نفسه : ٨٨ وما بعدها .

(٣١٩) نفسه : ٩٤ .

المعنى يتغير الى معنى التحذير ، الذي هو في ذهن المتكلم ، ويريد ان يفصح عنه ، ولا يستطيع تغيير اي فونيم في الكلمة غير هذا الفونيم ، فانه ان غير فونيم آخر في الكلمة تغيرت الصورة الذهنية التي ترتبط بها الكلمة بسبب ، فلا سبيل اذن الى التغيير إلا في فونيم الحركة الذي يؤدي الى صورة ذهنية جديدة ولكنها تتصل بالاولى بسبب ، فما كان التغيير في الحركة الا نتيجة للتغيير في المعنى وليست الحركة نتيجة لاثـر عامل كما يرى النحاة » (٣٢٠) .

تلك « هي العناصر التي تنقل الجملة من توليدية فيها معنى سطحي الى تحويلية فيها معنى عميق » (٣٢١) ، اما وجود الحركة الاعرابية على اواخر الكلمات فان لم تكن عنصر تحويل فهي اقتضاء قياسي ليس غير » (٣٢٢) .

فالحركة الاعرابية تكون اذن « اقتضاء لقياس لغوي جاء عن العرب الأول ، وقد تتغير الحركة الاعرابية اقتضاء لعنصر من عناصر التحويل ، كالزيادة او الحركة التي تنقل معنى الجملة من الخبرية الى معنى التحذير او الاغراء او الاختصاص او المعية ، او الى معنى الاستفهام بعد (كم) تفريقا لها عن الخبرية » (٣٢٣) .

(٣٢٠) في التحليل اللغوي : ٩٤ .

(٣٢١) الذي يذهب اليه خليل عمايرة احد اللغويين العرب الاخيين بالمنهج التحويلي هو ان يسمي الجملة (الاصل) او (التوليدية) او (الخام) الكامنة في ذهن المتكلم (البنية السطحية) ويسمي الجملة الملفوظة (البنية العميقة) لان المتكلم اعـمل فيها التغيير ، واخضعها لعناصر التحويل التي ذكرناها ، لتكون وافية بفرضه ، ومعبرة عن المعنى الذي اراده ، والذي لا تصلح البنية الكامنة في ذهنه للتعبير عنه ، لبساطتها وسذاجتها . وهو بذلك يخالف التحويليين الامريكيين الذين يسمون الجملة الاصل (البنية العميقة) . ويسمون الجملة الملفوظة (البنية السطحية) وقد تقدمت الاشارة الى ذلك .

(٣٢٢) في التحليل اللغوي : ٩٥ .

(٣٢٣) نفسه .

فقولنا : (محمدٌ مجتهدٌ) اذا دخلت عليه (كان) اقتضى ان يكون الخبر منصوباً محوَّلاً الى الزمن الماضي ، فاذا دخلت عليه (إن) اقتضت ان يكون المبتدأ محوَّلاً الى حالة التوكيد (٣٢٤) . وأما الجمل :

- لم يحضر خالدٌ .
- لن يقرأ عليُّ الصحيفة .
- لا تلعب وقتَ الدرسِ .
- لا رجلٌ في البيتِ .

فقد تغيرت الحركة الاعرابية عما كانت عليه في بعض الكلمات اقتضاءً لعنصر التحويل بالزيادة . « ففي الاولى انتقلت الحركة من الضمة على الفعل المضارع الى السكون اقتضاءً للحرف (لم) وتحويل الجملة في معناها الى الزمن الماضي ، في حين ان عنصر الزيادة في الثانية (لن) اقتضى فتحة ، وتحويل معنى الكلمة الى المستقبل ، اما في الثالثة فاقضى عنصر الزيادة (لا) السكون وتحويل الجملة الى معنى النهي . وأما في الجملة الاخيرة فقد اقتضى عنصر الزيادة (لا) الفتحة على المبتدأ ونقله عن موضعه الاصلي (المؤخر) في الجملة الاصل : (في البيت رجل) واقتضى عنصر الزيادة ايضاً نفي الخبر « (٣٢٥) .
وقل مثل ذلك عن الجمل :

- المروءةُ .
- الضلالُ .
- نحن العربُ . . .
- لا تأكلُ سمكاً وتشربُ لبناً .
- سرتُ والنيلُ .
- كم كتاباً قرأتُ .

(٣٢٤) نفسه : ٩٦ .

(٣٢٥) في التحليل اللغوي : ٩٦ .

« فاننا نرى ان كلاً منها محولة عن اصل كانت فيه في حالة الرفع ، باستثناء الجملة الاخيرة التي جاءت محولة عن اصل كانت فيه في حالة الجر ، فكانت الفتحة عنصر تحويل نقل الجملة من معنى الجملة الخبرية الى معنى الاغراء والتحذير والاختصاص والجمع والاستفهام . وليست الكلمات المنصوبة فيها معمولات لعوامل محذوفة تارة جوازا واخرى وجوبا ، باظهارها تنتقل الجملة من باب الى باب آخر » (٣٢٦) .

فالحركة الاعرابية اذن هي حركة اقتضاء لكلمة او لحرف جاء زيادة على الجملة التوليدية ، كما في المبتدأ بعد (إن) او الخبر بعد (كان) او الفاعل بعد افعال الشروع والمقاربة والرجاء في مثل (أخذ عليّ يدرس) ، « إذ اقتضى تقديم الفاعل على الفعل للاهمية ، وليس لانه كان (مبتدأ) فتحول الى اسم آخر ، او هي حركة اقتضاء لمعنى جديد تنصرف اليه الجملة بكاملها كما في التحذير والاغراء والاختصاص والمعية ... وليست اثرا لعامل ظاهر او مقدر » (٣٢٧) .

ويحسن بنا ان نورد بعد ذلك نماذج من الجمل التي يمكن تحليلها على وفق هذا المنهج التحويلي ، وسنختارها من اسلوب الاستفهام والمدح والذم (٣٢٨) .

فمن الجمل التوليدية الاسمية قولهم : (الدرسُ نافعٌ) التي يمكن ان تتحول الى جملة تحويلية اسمية بزيادة عنصر جديد عليها هو (كان) الذي ينقل معناها من مجرد اتصاف الدرس بالنفع الى كون هذا النفع قد حصل في الماضي ، فتصبح (كان الدرسُ نافعاً) . واما الفتحة التي لحقت (نافع) فهي حركة اقتضتها (كان) . وجملة (أكان الدرسُ نافعاً) جملة تحويلية اسمية فيها عنصران من عناصر التحويل هما (همزة الاستفهام) و (كان) ، وقد نقل

(٣٢٦) نفسه : ٩٦ ، ٩٧ .

(٣٢٧) في التحليل اللغوي : ٩٧ .

(٣٢٨) نفسه : ١٠٥ وما بعدها و ٢٦٩ وما بعدها .

هذان العنصران التحويليان معناها من مجرد اتصاف الدرس بالنفع الى
السؤال عن حصول النفع في الزمن الماضي .

وجملة (نافع "الدرس") جملة تحويلية اسمية ، اما عنصر التحويل فيها
فهو تقديم الخبر على المبتدأ ، لان المتكلم مهتم به ، وراغب في تسليط الضوء
عليه ، وهذا ما جعله ينقله من مكانه الطبيعي الى مكان الصدارة في الجملة .
واما جملة (أنافع "الدرس") فهي جملة تحويلية اسمية ايضا ، فيها عنصران من
عناصر التحويل هما (التقديم) و (همزة الاستفهام) . وزيادة هذين العنصرين
ترجع الى ان المتكلم مهتم بـ (نافع) وسائل عن تحققه ، لعله ان السامع
او المخاطب على دراية بالموضوع ، وقادر على ان يعلمه بما جهل .

وجملة (الامتحان "سهل") جملة توليدية اسمية تنقل مجرد وصف
الامتحان بالسهولة ، ولكن جملة (كيف الامتحان) جملة تحويلية اسمية
فيها عنصران تحويليان هما (الحذف) واعني به حذف الخبر وزيادة (كيف)
وهي اداة استفهام استفهم بها عن الامتحان : اهو سهل ام صعب ؟

وجملة (هذا لك) جملة توليدية اسمية تتكون من اسم اشارة وشبه
جملة او جار ومجرور ، ولكن جملة (لك هذا) جملة تحويلية اسمية
فيها عنصر من عناصر التحويل هو تقديم الخبر لاهتمام المتكلم به ، ورغبته
في توكيده ، وجعله في مقدمة كلامه . اي ان جملة (لك هذا) هي اخبار
وتوكيد في وقت واحد . وأما جملة (أنى " لك هذا) فهي جملة تحويلية اسمية
كذلك ، ولكن فيها عنصرين من عناصر التحويل اقتضاهما المعنى الجديد الذي
يرغب المتكلم في التعبير عنه ، وهما (التقديم) وكلمة (أنى) التي هي اداة
استفهام تقوم مقام (كيف) ، ومعنى الجملة الجديدة (كيف لك هذا ؟)
و (كيف حصلت عليه ؟) .

وجملة (حضرَ محمد) توليدية فعلية تحمل مجرد الاخبار بحضور محمد
في الزمن الماضي ، اما جملة (كيف حضرَ محمد) فهي جملة تحويلية فعلية

زيد عليها عنصر تحويلي هو (كيف) لتضيف اليها معنى جديدا هو الاستفهام عن الحال التي حضر عليها محمد ، لعلم المتكلم ان المخاطب يعرف هذه الحال ، ويستطيع ان يخبره عنها •

وقد ذهب خليل احمد عمارة في كتابه (في التحليل اللغوي) الى ان جملة المدح والذم العربية من انماط التوكيد ، فقولنا (نعم القائد خالد) جملة اسمية تحويلية ، قد مرت بالمراحل الآتية :

خالد "قائد"

خالد "القائد"

ف (ال) التعريف افادت هنا التعظيم والتعظيم ، لا قصر القيادة على خالد ، وحصرها فيه • ثم جرى على الجملة التحويل الآتي :

القائد "خالد"

إذ قدم الخبر في سياق التعظيم والعناية ، ثم جرى عليها التحويل الآتي :

نعم "القائد خالد"

فهي جملة تحويلية اسمية مؤكدة بمؤكدتين : (نِعْمَ) و (ال) • وبهذا النمط من التحليل لجملة المدح نتخلص من الجدول الدائر بين النحاة حول اسمية (نعم) و (بئس) او فعليتهما ، فالقول بكونهما اسميين او فعلين لا سبيل الى إثباته ، لما بين هاتين الكلمتين والاسم او الفعل من تباين واضح في المستوى الصرفي والمستوى الدلالي •

ومن انماط جملة المدح قولهم : (نِعْمَ ابنُ اختِ القومِ علي) • فالاصل التوليدي لهذه الجملة هو (علي "ابنُ اختِ القومِ") ثم تحولت الى : ابنُ اختِ القومِ علي

وذلك للاهتمام بالصفة التي يريد المتكلم ابرازها تحقيقا للتوكيد باستخدام الترتيب ، وهذا عنصر من عناصر التحويل الذي يلحق الجملة ، ثم جرى عليها تحويل آخر بالزيادة فصارت :

نِعمَ ابنُ اختِ القومِ عليّ

واضح ان الكلمات الثلاث (ابن) و (أخت) و (القوم) بمثابة كلمة واحدة في التحليل التركيبي لان الاضافة تقع في باب التلازم .

والحق ان اتباع هذا المنهج في تحليل الجملة العربية يزيدنا فهما للمعنى الذي قصده المتكلم ، ويقفنا على عناصر الجملة ، ووظيفية كل كلمة فيها ، ولذا نراه البديل لما درجنا عليه من تحليل يسمونه (الإعراب) ، الذي تشتد فيه العناية بالحركة الاعرابية ، والعوامل التي احدثتها ، والنظر الى الكلمات على انها إما عاملة او معمولة . ففي ظل المنهج التحويلي المشار اليه تتبدل النظرة الى الكلمة ، فبدلاً من ان نبحث لها عن عامل او معمول ، او نتلمس لها حركة ظاهرة او مقدرة ، نحاول ان نفهم دورها في معنى الجملة ، واثرها في نقل ذلك المعنى من حال الى حال . ولمعرفة الفرق بين المنهجين التقليدي والتحويلي نذكر هنا بما نجري عليه من تلقين الطلاب اعراب جملة مثل (أنافع " الدرس ") فنحن نحللها على الوجه الاتي :

الهمزة للاستفهام .

نافع " : مبتدأ مرفوع .

الدرس " : فاعل سدّ مسدّ الخبر مرفوع .

اما في المنهج التحويلي فاننا نوضح - خلال تحليل الجملة المذكورة - امورا لا غنى عن معرفتها لفهم سبب مجيئها على الوجه الذي جاءت عليه ، وما يتمخض عنه مبناها من معنى دقيق قصده المتكلم ، وقد مر بنا ذلك .

إن التحليل القائم على التوليد والتحويل اجدى في فهم الجملة العربية وادراك عناصرها الاساسية والمزيدة ، والمعنى الذي ادته العناصر المزيدة ، وهو في ظني اقرب الى مدارك المتعلمين ، وادنى الى اذواقهم .

٢ - المنهج التقابلي

يعد المنهج التقابلي احد مناهج البحث اللغوي ، واما موضوعه فهو « المقابلة بين لغتين اثنتين او لهجتين اثنتين ، او لهجة ولغة ، اي بين مستويين لغويين متعاصرين » (٣٢٩) . واما هدفه فهو اثبات الفروق بين المستويين (٣٣٠) . ويشترط في اللغتين او اللهجتين اللتين يقابل بينهما هذا المنهج ان يكونا قد وُصفا وصفا دقيقا بمنهج لغوي واحد ، ليسهل على المقابل ان يهتدي السى الفروق بينهما في مختلف عناصر بنيتهما الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية (٣٣١) . فاذا قابل باحث لغوي بين الاصوات والمفردات والتراكيب والدلالة في لغتين بهدف ابراز الفروق بينهما فان المنهج الذي يتبعه يسمى المنهج التقابلي .

وثمة فرق بين المنهج التقابلي والمنهج المقارن ، « فعلم اللغة المقارن يقارن اللغات المنتمية الى اسرة لغوية واحدة ، ويهتم في المقام الاول باستخدام الاقدم في هذه اللغات للوصول الى اللغة التي خرجت عنها كل هذه اللغات » (٣٣٢) . فالمنهج المقارن اذن ذو هدف تاريخي يحاول به الكشف عن جوانب من الماضي البعيد ، اما المنهج التقابلي فلا شأن له بهذه الاهتمامات التاريخية ، ودراساته ذات هدف تطبيقي في مجال تعليم اللغات (٣٣٣) . ولذا من الممكن ان تقسم دراسة تقابلية بين لغتين من أسرة واحدة او من اسرتين مختلفتين ، لان الهدف من المقابلة ليس تعرف الاصل القديم للغتين ، بل تعرف الفروق الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية لنظامي اللغتين ، « فيمكن ان تتم الدراسة التقابلية بين العربية والتيجرينية - لغة اريتريا - وكلتاها من اللغات السامية،

(٣٢٩) علم اللغة العربية (د. محمود فهمي حجازي) : ٤١ ، الكويت ١٩٧٣ .

(٣٣٠) نفسه .

(٣٣١) نفسه .

(٣٣٢) مدخل الى علم اللغة (د. محمود فهمي حجازي) : ٢٧ ، ط ٢ ، ١٩٧٨ .

(٣٣٣) نفسه .

ومن الممكن ايضا عمل دراسة تقابلية بين العربية والاردية وهما من اسرتين لغويتين مختلفتين» (٣٣٤) .

لقد نشأ المنهج التقابلي بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان الباحث على نشأته زيادة الاقبال على تعلم اللغات الاجنبية ، وما وقر في نفوس كثيرين من متعلمي هذه اللغات ومعلميها من ان الصعوبات التي تواجههم ، سببها في المقام الاول الاختلافات بين اللغة الام واللغة الاجنبية المنشود تعلمها (٣٣٥) .

ويطلق مصطلح (اللغة الام) او (اللغة الاولى) « على اللغة التي نشأ عليها الفرد ، اي اللغة التي اكتسبها في طفولته في بيئته وفي علاقاته الاسرية والاجتماعية المحلية ، وعلى عكس هذا فان مصطلح (اللغة الثانية) يعبر عن اللغة التي يكتسبها الانسان بعد ذلك ، ويدخل في هذا بالضرورة كل اللغات الاجنبية التي يكتسبها الانسان في المراحل التعليمية المختلفة ، او في اثناء التعامل المباشر مع ابناء تلك اللغات» (٣٣٦) .

ومن هنا فان البحوث الخاصة بتعليم اللغات يتردد فيها مصطلح (اللغة الثانية) ويقصد به اللغة الاجنبية المراد تعلمها ، وقد يستعمل في هذه البحوث مصطلح (اللغة المنشودة) اي اللغة التي يراد تعلمها ، وهي عكس (اللغة الام) او (اللغة الاولى) وقد تسمى ايضا (اللغة المصدر) (٣٣٧) .

فالاختلاف بين اللغتين (الاولى) و (المنشودة) مصدر ما يلاقي متعلم اللغة الاجنبية من صعوبة ، بمعنى ان الاصوات التي توجد في اللغة المنشودة ، ولا توجد في اللغة الام ، تكون سببا في صعوبة التعلم ، ينبغي العمل على تذليله . وقل مثل ذلك عن الفروق الاخرى بين اللغتين على المستوى الصرفي

(٣٣٤) نفسه .

(٣٣٥) نفسه : ٢٦ .

(٣٣٦) مدخل الى علم اللغة : ٢٦ ، ٢٧ .

(٣٣٧) نفسه : ٢٧ .

او التركيبي او الدلالي ، اذ إن هذه الفروق تقف عائقا دون سهولة تعلم اللغة الثانية . وللتغلب على هذه الصعوبات نشأت فكرة (المنهج التقابلي) الذي يتوخى ابراز الفروق بين نظامين لغويين ، لغرض تذليل الصعوبات التي تواجه متعلمي احد هذين النظامين ، والتي تنجم عن الفروق بينهما . فاذا اراد احد ابناء اللغة الانكليزية مثلا تعلم اللغة العربية ، فالصعوبات التي تواجهه ترجع في المقام الاول الى اختلاف لغته الام وهي الانكليزية عن اللغة التي يريد تعلمها وهي العربية . ولذا يبحث المنهج التقابلي اوجه الاختلاف بين هاتين اللغتين لتعرف الصعوبات الناجمة عن هذا الاختلاف بقصد تذليلها للمتعلمين . والصعوبات التي تواجه ابناء اللغة اليابانية في تعلمهم العربية ليست هي الصعوبات التي يواجهها ابناء اللغة الاسبانية وهكذا (٣٣٨) .

وهذا يعني ان معلمي اللغة الاجنبية ينبغي ان يكون لديهم اطلاع على بعض اوجه الشبه والاختلاف بين لغة المتعلمين الام واللغة الاجنبية التي يعلمونها اياهم » ولديهم ادراك للتأثير الواسع الذي تباشره اللغة الاولى على اللغة الثانية ، ولديهم ايضا وسائل للاقتناع من هذا التأثير سلبا وايجابا ، فحيثما يختلف بناء اللغة الاجنبية عن بناء اللغة الام تنشأ صعوبة في التعلم واخطاء في الاستعمال ... وحيثما تتماثل الابنية في اللغتين لا تتوقع ان تنشأ صعوبة « (٣٣٩) .

ولا يقف المنهج التقابلي عند « دراسة الفروق بين لغتين اثنتين ، فيمكن ايضا ان يكون بين لهجة محلية واللغة الفصيحة المنشودة ، فالصعوبات الموضوعية التي تواجه ابناء تلك اللهجة في محاولاتهم اكتساب اللغة الفصيحة تنجم في المقام الاول عن الفروق بين هذه اللهجة وتلك اللغة . فالصعوبات التي يواجهها ابناء مصر في تعلم الاصوات بين الاسبانية (الثاء والذال والظاء) في الفصحى ، والصعوبات التي يواجهها عدد من الفلسطينيين في التمييز بين

(٣٣٨) علم اللغة العربية : ٤١ .

(٣٣٩) مدخل الى علم اللغة (د. محمد حسن عبدالعزيز) : ١١٣ ، ١١٤ .

القاف والكاف انما ترجع الى الفروق بين اللهجة المحلية واللغة المنشودة» (٣٤٠)
فاذا خلت اللغة الاولى من الاصوات التي توجد في اللغة الثانية « وجبت
العناية بالتدريب المنطقي على هذه الاصوات ، واذا كانت بعض الكلمات
تستخدم في اللهجة المحلية بدلالات تخالف اللغة المنشودة كان من الضروري
الاهتمام بالتدريبات التي توضح المعنى الفصيح المنشود » (٣٤١) .

فالمنهج التقابلي اذن يمكن ان يقدم الدراسات التي تصلح اساسا لغويا
موضوعيا لتذليل الصعوبات في تعلم اللغات .

غير ان بعض اللغويين افكروا ان ترجع الصعوبات التي يواجهها متعلم
الاجنبية ، والاطفاء التي يقع فيها الى تدخل لغته الام ، فقال احدهم : «إن
الزعم بان (كذا) كل اخطاء متعلم اللغة راجعة الى بنية لغته قول زائف » (٣٤٢) .
ولذا ينبغي لنا في رأي هؤلاء اللغويين « ان نقوم بفحص الاخطاء اللغوية التي
تقع فيها جماعات مختلفة من المتعلمين بشكل مطرد لنقرر بعده اترجع هذه
الاطفاء الى تدخل اللغة الام ام ترجع الى بنية اللغة الاجنبية المتعلّمة » (٣٤٣) .
بمعنى اننا لو جمعنا وصنفنا الاخطاء التي يقع فيها متعلمو اللغة الاجنبية كان
ذلك اولى من محاولة التنبؤ بالاطفاء التي تتوقع ان يقعوا فيها بناءا على
نتائج الدرس التقابلي بين اللغتين : الام والاجنبية (٣٤٤) . ولا حاجة بنا الى
القول ان اكثر اللغويين على ان الصعوبة في اكتساب لغة ثانية تنجم في المقام
الاول عن الفروق بينها وبين اللغة الام .

لقد اكد دارسو المنهج التقابلي ان نتائجهم يستفاد منها في حقلين : الاول
حقل تعليم اللغات والاخر حقل الترجمة ، وسنورد هنا بعض ما يستفاد من
نتائجهم في كلا الحقلين ، وسنختار اللغتين العربية والانكليزية .

(٣٤٠) مدخل الى علم اللغة (د . محمود حجازي) : ٢٨ .

(٣٤١) نفسه .

(٣٤٢) مدخل الى علم اللغة (د . محمد حسن عبدالعزيز) : ١١٥ .

(٣٤٣) نفسه : ١١٦ .

(٣٤٤) نفسه : ١١٧ .

ففي حقل تعليم اللغتين العربية والانكليزية اسفرت المقابلة بينهما عن فروق في الاصوات والمفردات والتراكيب .

« فأول ما يتبادر الى الذهن من فروق صوتية ان العربية لا يبدأ فيها ساكن وهذه القاعدة هي التي بنيت عليها فكرة همزة الوصل وهمزة القطع ، فما كان اوله متحركا من الكلمات المبدوءة بالهمزة كانت همزته همزة قطع ، كالفعل الماضي الرباعي : اعرب واكرم ... وكأسماء الاعلام : أحمد ، إسماعيل وكالافعال الثلاثية المبدوءة بهمزة نحو اخذ ، أكل ، اما ما كان اوله ساكنا فلا بد حينئذ من همزة وصل ، وهي التي يتوصل بها الى النطق بالحرف الاول الساكن مثل : استنتج ، انطلق ، ويتفق مع هذا الاسماء العشرة التي سمع من العرب ان همزتها همزة وصل ، فهي جميعها تبدأ بالساكن نحو : ابن واثنان وامرأة واسم ... اما في اللغة الانجليزية فنجد كلمات كثيرة تبدأ بالساكن مثل : Stay , bring , Station دون حاجة الى حرف قبل (S) او (b) لكي يتوصل به الى النطق بهما ، وهذا يسبب صعوبة بالغة لمن يتعلم اللغة الانجليزية من العرب ، إذ تراه مضطرا الى كسر حرف (b) في bring فيقول : برنج ، وربما قطع الهمزة في قوله : إستاشن وإستاي » (٣٤٥) .

ولا يفوتنا في هذا المجال ان نذكر ان « في العربية حروفا لا نظير لها في الانجليزية كالحاء التي ينطقها الانكليزي هاءا ، والحاء التي ينطقها كافا فيها اشمام بسيط من الحاء . وكذلك حرف الضاد الذي سميت به العربية - لا وجود له في الانجليزية ، وما الضاد إلا دال مفخمة فاذا نطقها الانكليزي ازال عنها التنخيم ونطقها دالا ، اما حرف الغين فيكتب في الانجليزية (gh) اذا اردنا ان نكتب مثلا (غانم) والعين ينطقها الانكليزي همزة » (٣٤٦) .

ومما يذكر في مجال الفروق الصوتية بين الانجليزية والعربية ان في الاولى « رمزا خطيا واحدا يرمز الى صوتين مختلفين وهو الرمز (X)

(٣٤٥) في علم اللغة التقابلي : ١٧ ، ١٨ .

(٣٤٦) نفسه : ١٨ ، ١٩ .

يرمز الى الحرفين الكاف والسين ، ونجد فيها العكس ايضا ، فالرمزان (TH) يدلان على صوت واحد وهو الذال ، وكذلك SH يرمزان الى الشين ، كما نجد رمزين خطيين CH يرمزان الى صوتين تش ، ولا نجد هذه الظاهرة في العربية ، فكل رمز فيها له صوت ، وكل صوت يدل عليه رمز ، لا يتعدد هذا ولا ذاك» (٣٤٧) .

ومما يخطيء فيه الانجليزي المتعلم للعربية التمييز بين التاء والطاء ، فنراه ينطق الطاء مخففة فتقلب الى تاء ذلك لان الانجليزية تخلو من (الطاء) فيقول (تويل) ويقصد (طويل) و (تائرة) بدل (طائرة) (٣٤٨) .

وثمة « فرق صوتي آخر بين اللغتين سبب صعوبة على الدارس والمدرس كليهما هو ان في الانجليزية كلمات بها عدد من الرموز الصوتية التي لا ينطق بها ، اي ان الحروف المكتوبة اكثر عددا من الحروف المنطوقة نحو كلمتي write ' daughter ونجد هذه الظاهرة معكوسة في العربية ، فاسما الاشارة : هؤلاء وهذا دون الف بعد الهاء ، ومع ذلك تنطق الهاء بعدها الف . واكثر من ذلك ان هناك رموزا صوتية في الانجليزية تنطق برموز اخرى غير المكتوبة ، فكلمة colonel مثلا تنطق (كارنيل) » (٣٤٩) . وهناك فروق اخرى بين اللغتين كالشدة والتنوين والشمسية والقمريّة ، لا نرى داعيا لذكرها خشية الاطالة .

وعلى صعيد المفردات نجد في الانجليزية كلمة uncle دالة على العم او الخال او زوج العمّة او زوج الخالة دون التفريق بين هذه الدلالات كلها . والكلمة الانكليزية aunt لها المعاني التي ذكرت ولكنها للمؤنث . وكلمة nephew الانجليزية لابن الاخ او الاخت وكلمة niece الانجليزية لابنة

(٣٤٧) في علم اللغة التقابلي : ١٩ .

(٣٤٨) نفسه .

(٣٤٩) نفسه : ١٩ ، ٢٠ .

الاخ وابنة الاخت . كل ذلك دون تفريق بين ما يعزى الى المؤنث وما يعزى الى الذكر بعكس العربية التي تضع الدلالات المختلفة للمدلولات المختلفة ، وتفرق بين ما كان راجعا في قرابته الى الذكر وما كان راجعا الى المؤنث ، وهذا دون شك يلفت انتباه الدارس للعربية من غير الناطقين بها ، وتكون المسألة عنده اصعب بكثير مما هي في لغته (٣٥٠) .

وقد يكون للمعنى الواحد في الانجليزية عدة كلمات تعبر عنه ، في حين ان العربية تعبر عنه بكلمة واحدة ، فكلمة (صهره) في العربية يعبر عنها بالانجليزية بقولهم *his son in Law* وكلمتا (حموه) في العربية يعبر عنهما بالانجليزية بقولهم *his father in Law* ، ونجد هذه الظاهرة في الافعال ايضا ، فالفعل (يودع) وهو لفظ مفرد يقابله في الانجليزية *to say good bye* وكذلك الفعل (يصافح) تعبر عنه الانكليزية بعدة كلمات *to shake hands with* (٣٥١) .

ومما يلفت النظر في مجال المقابلة بين المفردات ان في العربية افرادا وتشنية وجمعا اما في الانجليزية فيوجد الافراد والجمع ، ولا توجد التشنية التي يتوصل اليها باستعمال العدد *two* قبل المعدود (٣٥٢) .

واذا قابلنا بين التراكيب في اللغتين العربية والانجليزية وجدنا فيهما فروقا كبيرة ، « منها ما يتعلق بالتركيب الاضافي ، ولن نخوض في تعريف الاضافة المحضة وغير المحضة ، فهذا مالا نظير له في اللغة الانجليزية ، ولكننا نشير فقط الى ان التركيب الاضافي في العربية يتم بوضع المضاف ويليه المضاف اليه مثل (نجوم السماء) و (صفحة الكتاب) وهذا غريب على من يتعلم العربية من غير ابنائها ، اذ ان اللغة الانجليزية تستعمل الحرف (of) بين المتضامنين *the book of Ahmad* او يذكر المضاف اليه

(٣٥٠) نفسه : ٢٠ ، ٢١ .
(٣٥١) في علم اللغة التقابلي : ٢١ .
(٣٥٢) نفسه : ٢٢ .

اولا ثم يتبعه الحرف (S) واخيرا يأتي المضاف نحو Ahmd's book
والفرنسية كالانجليزية في استعمالها حرفا بين المتضايفين وهو (de)
او ما اشتق منه على حسب التذكير والتأنيث والافراد والتثنية والجمع في
المضاف ، ونلاحظ في هذا الصدد ان العوام المصريين يستبدلون كلمة (بتاع)
بين المتضايفين بالحرف (of) في الانجليزية و de في الفرنسية « (٣٥٣)

ومما يثير الانتباه عند المقابلة بين التراكيب في اللغتين الانجليزية والعربية
تركيب الجملة في كل من اللغتين ، فاللغة العربية لا تستعمل لفظا يربط بين
المبتدأ والخبر ، بل يأتي المبتدأ متلوا بالخبر ليس غير ، بعكس اللغة الانجليزية
التي يأتي فيها المبتدأ وبعده الرابطة وهو فعل الكينونة V. to be
فيقال مثلا في مقابل (الولد فقير) : the boy is poor .

ويذهب بعضهم الى ان الجملة الانجليزية جاءت على نسق المنطق
الارسطي الذي تتكون فيه الجملة من موضوع ومحمول وبينهما الرابطة « (٣٥٤)
ويرى عثمان امين ان لهذا الاختلاف في اللغتين تعليلا يقول فيه : « ان الاسناد
في اللغة العربية يكفي فيه انشاء علاقة ذهنية بين (موضوع) و (محمول) او
مسند اليه ومسند دون التصريح بهذه العلاقة نطقا او كتابة في حين ان هذا
الاسناد الذهني لا يكفي في اللغات الهندو اوروبية الا بوجود لفظ مسموع
او مقروء يشير الى هذه العلاقة في كل مرة (وهو فعل الكينونة) في اصطلاحهم
ويسمونه في تلك اللغات رابطة » « (٣٥٥) .

ويرى بعض الدارسين ان في هذا التعليل جنوحا عن الموضوعية ، وبعدا

(٣٥٣) نفسه : ٢٢ ، ٢٣ .

(٢٥٤) نفسه : ٢٣ .

(٣٥٤) نفسه : ٢٣ .

(٣٥٥) فلسفة اللغة العربية (د. عثمان امين) : ٢٥ ، الدار المصرية للتأليف
والترجمة : ١٩٦٥ .

عن المنهج الوصفي^(٣٥٦) ، والاولى ان يقال كما قال ابراهيم مصطفى : « فأما الضمة فأنها علم الاسناد ودليل ان الكلمة المرفوعة يراد ان يسند اليها ويتحدث عنها »^(٣٥٧) . ويبدو ان (الرابطة) اثارت كثيرا من المناقشات بين المناطقة والنحويين ، ولا نريد ان نخوض فيها ، لئلا نخرج عن موضوع البحث^(٣٥٨) .

هذا ما يتعلق بالجملة الاسمية فاذا جئنا الى الفعلية وجدناها في العربية تبدأ بالفعل ، اما اللغة الانجليزية فتبدأ بالفاعل او المسند اليه ، وهنا تبرز النظرة التعصبية عند بعض المستشرقين الذين يرجعون سبب تأخير الفاعل في العربية الى عاملين ، الاول « نوع من القدرية الشرقية التي تحيل كل شيء الى الغيب فالعرب يؤمنون بالغيب ، ولا يعرفون من الفاعل لذلك اخروه »^(٣٥٩) والآخر « ضعف الشعور بالثبوت للشخصية الانسانية عند الشرقيين ، وقوة ثبوتها عند الاوربيين وملازمتها لتفكيرهم ، ومن ثم ظهر غلبة الجملة الاسمية على السنة الاوربيين وغلبة الجملة الفعلية على السنة الناطقين بالضاد »^(٣٦٠) .

ويرى بعض الدارسين ان هذا بعد عن المنهج الوصفي^(٣٦١) ، وقد اصاب ابراهيم أنيس حين قال : « ليس من اليسير التعليل لمثل هذا المسلك اللغوي في ترتيب الكلمات وتنظيمها ، بل ليس من الهيّن ان يقال : لم اتخذت هذه اللغة ذلك النظام المعين الذي قد يخالف ما جرت عليه لغة اخرى ، وذلك لان ترتيب الكلمات في كل لغة ليس إلا احدى تلك العادات اللغوية التي تتميز بها هذه اللغة ، وهو بعد ان يستقر على صورة معينة ليس إلا وليد تطور طويل

(٣٥٦) في علم اللغة التقابلي : ٢٤ .

(٣٥٧) أحياء النحو : ٥٠ ط ، ١٩٥٩ .

(٣٥٨) في علم اللغة التقابلي : ٢٤ وتنظر مصادره .

(٣٥٩) اشتات مجتمعات (العقاد) ٥٦ دار المعارف ١٩٦٨ .

(٣٦٠) نفسه .

(٣٦١) في علم اللغة التقابلي : ٢٥ .

المدى ونتيجة مرور قرون كثيرة على هذه اللغة • ومن الصعب الوقوف على كل الظروف اللغوية او الاجتماعية التي ساهمت في مثل هذا التطور حتى صار نظام الجملة على ما نألفه ونعده في كل لغة» (٣٦٢) •

وعلى الرغم من تعدد الازمنة في اللغة الانجليزية نجد انها تفتقر الى ما يسمى بصيغة الاستمرار ، وهذه الصيغة موجودة في العربية في نحو (أخذ محمد يكي) و (مازال محمد يكي) ، وافعال الاستمرار هذه في العربية أفعال مساعدة وليست اصلية في الجملة ، وهي ايضا منفصلة في الكتابة عن الافعال الاصلية ، بعكس اللغات الهندو اوروبية ، ففي الانجليزية مثلا يضاف ing في نهاية الفعل المراد وضعه في زمن الاستمرار ويكون قبله فعل to be (٣٦٣) •

ولابد من الاشارة الى فرق مهم بين العربية والانجليزية والفرنسية « ذلك ان العربية لغة معربة ، بعكس اللغتين الاخرين ، ويترتب على ذلك ان ترتيب الكلمات في العربية لا اثر له ما دامت الكلمات معربة ، ولا نقصد بذلك الاثر البلاغي ، بل نقصد المعنى المجرد ، فليس هناك ابهام اذا اخرنا الفاعل وقدمنا المفعول كقوله سبحانه وتعالى : (انما يخشى الله من عباده العلماء) [فاطر ٢٨] وكمثال صاحب الالفية في باب الفاعل (خاف ربه عمر) اما في الانجليزية والفرنسية فان ترتيب الكلمات وموقع كل كلمة هما اللذان يحددان معنى الجملة» (٣٦٤) يقول فندريس : « اما القرينة الوحيدة التي تقدمها الفرنسية فهي ترتيب الكلمات ... لذلك يمكننا ان نغير في اللاتينية وضع كل كلمة من الكلمات الثلاث كما نشاء دون ان نمس وضوح الكلمة بأدنى ضرر ،

(٣٦٢) من اسرار اللغة : ٢٨١ ، ط ٣ ١٩٦٦ •

(٣٦٣) في علم اللغة التقابلي : ٣١ ، ٣٢ •

(٣٦٤) نفسه : ٣٢ •

لان اللاتينية معربة ، والكلمات الثلاث هي الفعل والفاعل والمفعول • اما في الفرنسية فيستحيل ان تمس نظام الكلمات دون ان تغير المعنى « (٣٦٥) •

ذلك هو نموذج من نتائج المنهج التقابلي ، بين اللغتين العربية والانجليزية اوضحنا فيه بعض نقاط الخلاف والتشابه بينهما ، مما يمكن ان يستفاد منه في مجال تعليم هاتين اللغتين لغير الناطقين بهما •

وفي حقل الترجمة من لغة الى اخرى تنبغي الافادة من نتائج المنهج التقابلي ، لان الترجمة في المقام الاول هي ايجاد المتعادلات في اللغتين « سواء أكانت هذه المتعادلات تختص بالاصوات ام بالتراكيب اللغوية ام بالمعنى ام بالمصطلح » (٣٦٦) • ولن يستطيع المترجم ان يأتي بهذه المتعادلات ما لم يقف على جهود الباحثين في حقل المنهج التقابلي بين هذه اللغة وتلك • وسأسوق هنا بعض الامثلة لاثار نتائج المنهج التقابلي بين العربية والانجليزية مثلاً في دقة الترجمة من العربية الى الانجليزية وبالعكس (٣٦٧) •

ففي مجال المقابلة بين المفردات تبرز للمترجم بعض الظواهر منها :

- (١) ظاهرة تعدد معاني مفردة ما في لغة وعدم ذلك في اللغة الثانية فكلمة (cut) تستعمل بعدة معان في الانجليزية هي (يجرح ويقطف ويقص ويقطع الحديد) ، اما مقابلتها العربية (يقطع) فلا تعبر عن هذه المعاني كلها •
- (٢) ظاهرة انسحاب مفردة ما من الاستعمال في احدى اللغتين او كليهما لانها تعبر تعبيراً صريحاً يحسن الايماء اليه ، اي عدم التصريح بذكره • من ذلك كلمة (حبل) في العربية و (pregenint) في الانجليزية ، وكلتاهما لا تكاد تسمع في اللغة المؤدبة ، ففي العربية استعيز من كلمة (حبل) بكلمة

(٣٦٥) اللغة (فندريس) ترجمة القصاص والدواخلي : ١١٢ ، ط الانجلو ١٩٥٠

(٣٦٦) دراسات في علم اللغة (د. فاطمة محجوب) : ١ •

(٣٦٧) نفسه : ١ وما بعدها •

(حامل) وهي اكثر احتشاما من الاولى ، وفي الانجليزية استعاضوا من كلمة (pregenint) بتعبير (mother to be) اي (الام المنتظرة) .
وعلى المترجم من العربية الى الانجليزية او العكس ان يدرك هذه الحقيقة اللغوية المتصلة بهاتين الكلمتين وألا يتورط في ايراد احدهما في ترجمته ، لان اهل هاتين اللغتين قد هجروهما .

(٣) ومن هذه الظواهر ارتباط كلمة معينة بطبقة من طبقات المجتمع ، وهو امر يجعل تلك الكلمة تعبر عن معنى غير المعنى المتبادر منها . مثل كلمة (الجماعة) التي تعني عند المصريين الريفيين (الزوجة) ولذا يحسن بمن يريد ترجمتها الى الانجليزية ألا يغيب عنه هذا المعنى ، وألا يتورط في ترجمتها حرفيا .

(٤) ومن الظواهر في مجال المقابلة بين مفردات اللغتين ظاهرة الاستعمال المجازي للمفردة . وهنا ينبغي للمترجم ان يدرك هذا الاستعمال المجازي ويبحث عن مقابل له في اللغة الاخرى ، ففي العربية مثلا نقول : (ركب رأسه) (التهم محمد ثلاثة كتب امس) و (فاتها قطار الزواج) و (شرب سيجارة) و (الكتب الصفراء) (٣٦٨) ويراد بها الكتب القديمة التي طبعت في اوائل هذا العصر على ورق اصفر رخيص . ولو ان المترجم نقل هذه التعبيرات الى الانجليزية نقلا حرفيا لكانت ترجمته مضحكة ، وغير معبرة عن المعنى الذي قصده الكاتب العربي .

وفي مجال المقابلة بين التراكيب يبدو ان مترجم كتاب (الايام) لطف حسين الى الانكليزية قد وجد المعادل الصحيح مثلا لعبارة وردت في هذا الكتاب ، وهي قول احد الممتحنين للصبى اول دخوله للزهر : (فتح الله عليك ، انصرف) ، اذ جاءت الترجمة بما يعادل هذا التعبير وهو (لقد قبلت) .

(٣٦٨) الصواب : الكتب الصفراء .

وهكذا لم يضع المترجم المقابل الحرفي لهذه العبارة ، وإنما فهم المراد منها
واتى بما يعادله من الانجليزية •

ومما يذكر في مجال المقابلة بين التعابير والتراكيب ايضا قول بطله قصة
لمحمود تيمور بعنوان (الترام رقم ٢) للراكب الفلاح الذي يركب معها في
الترام : (والنبي يا جناب العمدة كم الساعة) ، فقد فطن المترجم الانجليزي
للقصة الى ان (والنبي) هنا لا تعني القسم ، وإنما تعني (من فضلك) ،
وهكذا وضع المترجم المقابل الصحيح لتعبير (والنبي) فدل بذلك على فهم
دقيق لعادات المصريين اللغوية ، وكان امينا في ترجمته ولو انه لم يدرك
استعمال (والنبي) عند المصريين لتورط في ترجمة حرفية لهذا التعبير •

ومما يذكر في مجال المقابلة بين التراكيب في العربية والانجليزية ان من
المألوف أن يكتب الانجليزي خطابا لصديقه يقول في آخره موجه التحية
الى زوجة صديقه *with my kisses to* ، فماذا يكون موقف المترجم
لهذا الخطاب الى العربية او موقف العرب الذين يتعلمون الانجليزية ، فهل
ترجم لهم العبارة المذكورة ترجمة حرفية ؟ لاشك في ان الذوق العربي يرفض
رفضاً قاطعاً مثل هذا التعبير ، ويحسن بالمترجم او معلم الانجليزية للعرب ان
يختار مقابلاً مناسباً كأن يقول : تحياتي لحرملك او الى اهل بيتكم ، او شيئاً
كهذا (٣٦٩) ، « فليس من المألوف ان يوجه عربي التحية الى زوجة صديق فضلاً
عن القبلات ، ولو حدث - وهو يحدث احياناً - لتحفظ في كلامه ، وراعى
الدقة في اختيار ألفاظه ، والكناية في عبارته » (٣٧٠) ، فتكون العبارتان
المذكورتان آنفاً او نحوهما هو الشيء المناسب •

(٣٦٩) مدخل الى علم اللغة (د. محمد حسن فهد العزير) : ١١٦ •

(٣٧٠) نفسه ، ١١٦ ، ١١٧ •

٣ - المنهج الجغرافي

ذكرنا فيما سلف ان لعلم اللغة صلة وثيقة بعلوم اخرى ، كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم التشريح وعلم وظائف الاعضاء وعلم الطبيعة ، وهذه العلوم الثلاثة الاخيرة تعين عالم اللغة على دراسة الاصوات اللغوية ، وتتحدث هنا عن صلة علم اللغة بعلم آخر هو علم الجغرافية •

لقد اقتبس علم اللغة منذ اكثر من نصف قرن مضى طرق علم الجغرافية ، ليضع حدودا لغوية اللهجات المختلفة في خرائط تبين معالم كل لهجة ، وما تختلف به عن لهجة اخرى في منطقة اخرى (٣٧١) •

ولا تختلف هذه الخرائط عن خرائط الجغرافية إلا في ان ما يدون عليها هو ظواهر لغوية ، « وتطلعنا هذه الخرائط على الاختلافات الصوتية بين المناطق المختلفة ، فقوم يجهرون اصواتا وقوم يهمسونها ، وطائفة اخرى تنطق الفتحة صريحة واخرى تنطقها مماله ، ولهجة تنبر الكلمة في مقطعها الاول ، واخرى تنبر المقطع الاخير منها ، وهكذا ، كما يبرز في هذه الخرائط الدرس الواسع للمفردات من حيث البنية والمترادفات المختلفة للمعنى الواحد ، واختلاف الالفاظ باختلاف المناطق اللغوية ، ومقدار انتشار الكلمات في الاقطار والاقاليم ، وغير ذلك مما يتيح لنا معرفة الواقع اللغوي للغة من اللغات ، سواء أكانت لغات فصحي أم عاميات خاصة » (٣٧٢) •

إن « هذه الدراسة الجغرافية اللغوية تعد من احدث وسائل البحث في علم اللغة ، ولها وظيفة ذات اثر بالغ في الدراسات اللغوية الحديثة ، لانها

(٣٧١) المدخل الى علم اللغة (د. رمضان عبدالنواب) : ١٤٧ ، ط ٢ ، ١٩٨٥ .

(٣٧٢) نفسه .

تسجل الواقع اللغوي للغات او اللهجات على خرائط ، يجمعها آخر الامر اطلس لغوي عام . وتختص كل خريطة بكلمة او ظاهرة صوتية معينة ، يبدو فيها الاتفاق او الاختلاف بين المناطق اللغوية المتعددة . ومما لا شك فيه ان هناك تشابها بين لهجة اقليمية واخرى ، أو بين لهجتين اجتماعيتين ، أو بين عاميات خاصة ما دامت هذه ترجع الى اصل لغوي واحد» (٣٧٣) .

وقد اشارت بعض الدراسات الى أن عدد الاطالس اللغوية كان « أسبق في الوجود من معظم الانجازات الوصفية الحديثة ، وهو يعتمد الى حد كبير على مفردات اللغة التي تعد في نظر الوصفين في الدرجة الثانية من الاهمية ولكنه مع ذلك اتبع منهجا يمكن ان يوصف في الاقل بأنه وصفي ، وبأنه خير مثل للعمل اللغوي تحت ظروف البيئة المعينة . وعلى الرغم من ان هذا العمل قد بدأ اساسا على يد اللغويين التاريخيين لاغراض تاريخية في معظمها ، فانه قد وضع الاساس لنموذج الدراسة الوصفية العملية في مجال البحث اللغوي» (٣٧٤) .

طبيعته واهميته :

يطلق بعض الباحثين على المنهج الجغرافي في دراسة اللغة مصطلح (الجغرافية اللغوية) او (علم اللهجات) ، ويراها فرعا « من فروع علم اللغة ، يعنى بتحليل ووصف التنوعات (كذا) (٣٧٥) المحلية او الاجتماعية او الزمنية للغة معينة ، مبينا كيف تختلف هذه التنوعات في النطق او في القواعد (صرفية أو نحوية) او في المعجم ، وكيف تتوزع هذه التنوعات الجغرافية » (٣٧٦) .

(٣٧٣) نفسه : ١٤٨ .

(٣٧٤) اسس علم اللغة : ١٣١ .

(٣٧٥) الصواب : يعنى بتحليل التنوعات ووصفها .

(٣٧٦) مدخل الى علم اللغة (محمد حسن عبدالعزيز) : ١٥٥ .

إن المنهج الجغرافي اذن « يصف بطريقة علمية وموضوعية توزيع اللغات في مناطق العالم المختلفة ، ليوضح اهميتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاستراتيجية والثقافية ، ويدرس كذلك طرق تفاعل اللغات بعضها مع بعض ، وكيفية تأثير العامل اللغوي على (كذا) (٣٧٧) تطور الثقافة والفكر الوطنيين » (٣٧٨) .

فمظاهر تطبيق هذا المنهج « تبدو الى حد كبير وصفية جغرافية اجتماعية . ان أي لغة تملك عددا من المتكلمين قل أو كثر ، تتوزع في مناطق مختلفة من العالم ضاقت او اتسعت . وانها تستعمل في مجال الانتاج وتسويق البضائع وخلق القيم الثقافية ، وهي تحمل الى جانب ذلك نفوذا سياسيا وعسكريا في مناطق معينة . هذه العوامل تبرز القيمة العملية للغة ، وتجعل منها موضوعا واسعا للدراسة . وهناك مجالات اخرى ثانوية لهذا الفرع مثل دراسة استعمال اللغة في الطقوس او لأغراض دينية اخرى ، ودراسة حالات فرضها على البلاد المستعمرة او التي كانت مستعمرة ، وامكان تغلبها على اللغات الاصلية او إحلالها محلها في مناطق مختلفة » (٣٧٩) .

إن المعلومات التي يقدمها هذا المنهج « على جانب كبير من الاهمية للغويين المتخصصين وغيرهم ، انه من الاهمية بمكان للمتعليم الجامعي - في الاقل - ان يعرف ان البرتغالية تتكلم في البرازيل ، وان الالمانية والروسية اكثر من الانجليزية والفرنسية يمكن ان تستعملا الان كلغات بديلة في المجر وتشيكوسلوفاكيا . هذه المعلومات ذات طابع عملي ، بيد ان لهذا العلم ايضا طابعا علميا ، انه يتناول - في تفصيل - لغات المناطق المتنوعة على وجه الارض ، وكيف يمكن الاستفادة منها ، او إحلال غيرها محلها ، وماذا تمثل من وجهة النظر العملية للرجل العسكري أو الموظف الحكومي أو الباحث

(٣٧٧) الصواب : في .

(٣٧٨) أسس علم اللغة : ٣٧ .

(٣٧٩) نفسه .

العلمي والفني والمبشر وقوات الامن الدولية ، ولسرعة تحرك هذه الطبقات ونحوها ، فانه لا يكفي ان يعرف الفرد منهم معلومات سريعة عن لغات منطقة معينة ، انهم يجب ان يلقنوا معلومات عن لغات مناطق اخرى ربما تعرضوا للانتقال المفاجيء اليها . واهم من هذا ضرورة اعداد دراسات مفصلة وعمل احصاءات عن اللغات والامية والمركز التعليمي لمناطق العالم المختلفة ، وكذلك اعداد علماء لغة جغرافيين مدربين يمكنهم ان يسايروا التطورات السريعة المتوقعة في هذا الحقل ، وهذه المعلومات اكثر فنية مما قد يبدو للنظرة السطحية» (٣٨٠) .

مصطلحه وبعض حقائقه :

ولابد من الاشارة هنا الى ان المنهج الجغرافي ، أو علم اللغة الجغرافي قد أسفر عن مصطلحات كثيرة ، سنشير هنا الى اهمها . فمن هذه المصطلحات ما يعرف بـ (اللغة الاهلية) او (البلدية) ، ويراد به « اللسان المتكلم الشائع الاستعمال في منطقة معينة ... انها ربما تتطابق أو لا تتطابق مع اللغة الوطنية أو الرسمية » (٣٨١) . ومصطلحا (اللغة الاولى) و (اللغة الرسمية) ، فأما اللغة الاولى « فهي اللغة الشائعة الاستعمال بين جميع افراد الامة مثل اللغة الانجليزية في الولايات المتحدة الامريكية ، أو التي تحاول الحكومة الوطنية ان تجعلها كذلك مثل اللغة الهندية في الهند ، أو التالوغية في الفلبين اذ كل منهما في الحقيقة لغة لفريق من المواطنين ، ولكن الحكومة تحاول ان تفرضها على سائر افراد الشعب ... وأما (اللغة الرسمية) فهي التي تستعمل في الوثائق الرسمية وفي المقابلات على المستوى الحكومي (فالألمانية والفرنسية والإيطالية تعد لغات رسمية في سويسرا ، والفرنسية والفلمنكية في بلجيا والانجليزية

(٣٨٠) مدخل الى علم اللغة (د. محمد حسن عبدالزير) : ١٥٧ وينظر

اسس علم اللغة : ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٣٨١) اسس علم اللغة : ١٨٦ .

والافريكانية في جنوبي افريقيا ، والفرنسية والانجليزية في كندا) • واللغة الرسمية ليست بالضرورة اللغة الاهلية للمنطقة بأسرها ، بل ربما لم تكن لغة اهلية على الاطلاق ••• فالاردية في شرقي باكستان - على سبيل المثال - كانت اللغة الرسمية الثانية ولكن البنجالية هي اللغة الاهلية (اللغة الاردية هي اللغة الاهلية في غربي باكستان) ونتيجة لفتن اهلية اصبحت البنجالية لغة رسمية بالاشتراك مع الاردية « (٣٨٢) •

ومن مصطلحات هذا المنهج (اللغة الاستعمارية) التي خلقها استعمار القرون الماضية و « تطلق على اللغات الرسمية الاساسية في المناطق المختلفة لقوات استعمارية ، وبهذا المعنى اصبحت الانجليزية اللغة الاستعمارية والرسمية في الهند فارضة نفسها على اللغات الاهلية المتعددة ، وتظل اللغة الاستعمارية المفروضة حية حتى بعد اختفاء القوة الاستعمارية ، وكثيرا ما تظل لغة رسمية ، او واحدة من اللغات الرسمية للبلد الحديث الاستقلال • ومن امثلة ذلك اللغة الانجليزية في نيجيريا وغانا واللغة الفرنسية في الامم الجديدة التي خرجت عن الوصاية الفرنسية « (٣٨٣) •

ومن مصطلحات المنهج الجغرافي (الاحلال اللغوي) ويكون حين تصبح لغة المستعمر لغة رسمية وربما لغة وطنية او أهلية ، « وقد حدث هذا بالنسبة للغة الانجليزية في امريكا الشمالية واستراليا وفيوزيلندة ، وبالنسبة للغة الفرنسية في الاقاليم الكندية بمنطقة كويبك وبالنسبة للاسبانية والبرتغالية جنوبى ريوجراند ، وحينئذ فان اللغات الاهلية الاصلية ربما تميل الى الاختفاء ، وربما عاشت في حالة وجود سلمي او تكاملي مع اللغات الجديدة « (٣٨٤) • وقليل ما يحدث « ان تندمج اللغتان في لغة واحدة على

(٣٨٢) اسس علم اللغة : ١٨٧ •

(٣٨٣) نفسه : ١٨٨ •

(٣٨٤) نفسه •

أساس متعادل ... وربما ينتج عن ذلك لغة مشتركة مبسطة ولكن مع خضوع ملحوظ للعادات الكلامية للسكان الأصليين . وربما كانت عملية التوصل الى لغة مشتركة مبسطة تسير ببطء شديد كما حدث مع لغة الافريكانيين في جنوبي افريقية التي ماتزال اساسا » (٣٨٥) .

ومن مصطلحات هذا المنهج ما يعرف بـ (اللغة المقدسة) وتطلق عادة على اللغات التي تستعمل في الطقوس الدينية مثل اللغة اللاتينية في المناطق الكاثوليكية الرومانية ، « ومثل هذه اللغة تؤثر بعمق في اللغة المتكلمة بهذه المنطقة ، اذ يظهر مفعولها في شكل كلمات وصيغ وتعبيرات ، واللغة العربية بوصفها لغة القرآن المقدسة تتكلم وتفهم على شكل واسع في البلاد المسلمة التي لا تتكلم اللغة العربية مثل ايران وباكستان » (٣٨٦) .

وقد تبرز لغة ما وتتفوق نتيجة لقيمتها الثقافية ، ولذا نجدتها تدرس في بلاد لا تتخذها لغة بلدية ، ومن هذه اللغات الفرنسية التي اكتسبت مكانة في كثير من مناطق العالم بوصفها لغة ذات ثقافة عامة ، ولغة دبلوماسية ، وعلى الرغم من انها انتشرت بعض الوقت بفضل النفوذ السياسي ، ان مكائتها اليوم ثقافية محضة (٣٨٧) .

ومن مصطلحات هذا المنهج (التوزيع اللغوي) ، ويستعمل عند الحديث عن طريق انتشار لغة ما في مناطق مختلفة من العالم . فالانجليزية والفرنسية لغتان من اوسع اللغات انتشارا ، والاسبانية والبرتغالية والعربية والالمانية على درجة اقل من الانتشار . اما الروسية التي كانت يوما ما مقصورة على ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي فانها تحاول الان ان توسع انتشارها في

(٣٨٥) نفسه : ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٣٨٦) نفسه : ١٩٠ .

(٣٨٧) اسس علم اللغة : ١٩٠ .

اوربا الشرقية • واما الايطالية والصينية والهندستانية والبنغالية والاندونيسية واليابانية فانها لغات مقيدة الى حد كبير بمنطقة المحلية (٣٨٨) •

ومن الحقائق التي اسفر عنها علم اللغة الجغرافي ان اللغة التي « تغادر موطنها الاصلي تكون قابلة للتعرض لعوامل الانتشار والتوسع ، او لعوامل التبدد والانحلال ، وهذا ينطبق على اللغة الايطالية التي اكتسبت الانتشار والتوسع على ايدي المهاجرين الى مختلف انحاء العالم ، ولكنها في نفس الوقت خضعت لعامل التبدد والانحلال اذ تلاشت بعد الجيل الثاني او الثالث على ألسنة المتكلمين بها من المهاجرين » (٣٨٩) •

ومن مصطلحات المنهج الجغرافي في دراسة اللغة ما يعرف بـ (ثنائية اللغة) او (ثلاثية اللغة) او (تعدد اللغة) وهي مصطلحات تصف حالات معينة ، حينما يتكلم فرد أو مجموعة ما لغتين أو أكثر على درجة واحدة تقريبا • ولا بد من التنبيه هنا على حقيقة اكدها المنهج الجغرافي ، وهي أن « ثنائية اللغة من السهل تحقيقها حينما تكون اللغتان مستعملتين جنبا الى جنب منذ الطفولة المبكرة ، وبشرط أن تستمر الى فترة (كذا) متأخرة • وما يقال من أن ثنائية اللغة أو ثلاثيتها تلحق الضرر بالتطور النفسي للفرد فدعوى لا دليل عليها ، كذلك لا دليل على الدعوى الاخرى ان الثنائية تعوق التمكّن من احدى اللغتين أو كليهما • إن التمكّن من اي لغة يتوقف على الفرد وليس على عدد اللغات المراد تعلمها • فالشخص الذي يتكلم بطريقة ناقصة سوف يتكلم لغة واحدة بنفس الطريقة الناقصة » (٣٩٠) •

وهناك مصطلح (اللغات الصناعية) المؤلفة للاستعمال العالمي مثل (الاسبرانتو) وهذه اللغات كثيرا ما توصف بأنها مركبة او صناعية ، اشارة

(٣٨٨) نفسه : ١٩١ •

(٣٨٩) نفسه : ١٩١ ، ١٩٢ •

(٣٩٠) نفسه : ١٩٢ •

الى انها من صنع عقل انساني فردي ، وليست نتيجة نمو طبيعي عفوي •
 ومصطلح (لغة دولية) و (لغة عالمية) وفيه اشارة الى الوظيفة المرجوة للغة •
 و (لغة مساعدة) للاشارة الى انها لم يقصد بها ان تحل محل لغة موجودة بالفعل ، وانما تساعدها فقط و (لغة وسيطة) للاشارة الى وظيفتها كوسيط
 بين المتكلمين بلغات طبيعية مختلفة (٣٩١) •

ومما يتردد في مباحث المنهج الجغرافي من مصطلحات ما يسمى بـ
 (التعرف اللغوي) وهو ان يلم عالم اللغة الجغرافي بنظم الكتابة المعروفة في
 مختلف انحاء العالم ، بهدف القيام بعملية التعرف اللغوي ، فالبلاد الغريبة
 بوجه عام تستخدم الابجدية الرومانية ولكن بدرجة ملحوظة من التنوع من
 لغة الى لغة قوامها زيادة رموز اضافية ، واشكال كتابية خاصة ، تختلف من
 لغة الى لغة ، وكثيرا ما تكون وحدها كافية لتعرف اللغة حين ينظر الى صيغتها
 المكتوبة • مثلا رمز i الذي يكتب في البولندية مع خط صغير متقاطع
 + وال t التي تكتب في الرومانية برمز تحتها t
 وال i التي تكتب في التركية بدون نقطة وال m التي تكتب
 في الاسبانية هكذا m (٣٩٢) •

ان من وظيفة عالم اللغة الجغرافي « ان يعوّد نفسه إلقاء النظم الكتابية
 الرئيسة في العالم بقصد التعرف ، واذا استطاع ان يضيف الى هذه المهارة
 القدرة على القراءة والترجمة هدفا ابعد • وعلى أي حال فمهارة التعرف
 والتمييز للغات العالم الرئيسة في صيغها المكتوبة شيء لا يستطيع عالم اللغة
 الجغرافي ان يستغني عنه ••• وتوجد كذلك فرصة ممكنة للتدرب على تمييز
 اللات الرئيسة في صيغها المنطوقة ما دامت كل لغة لها نظمها الصوتية والفونيمية
 المتميزة » (٣٩٣) • ومما يتصل بالتعرف اللغوي معرفة عالم اللغة الجغرافي

(٣٩١) اسس علم اللغة : ١٩٣ •

(٣٩٢) نفسه : ٢٠٣ •

(٣٩٣) نفسه : ١٠٤ •

جنسية الشخص الذي يتحدث معه من نوع الاشارات التي يستعملها في
اثناء كلامه . (٣٩٤) .

المنهج الجغرافي والمناهج الاخرى :

إن المنهج الجغرافي « وإن كان يستخدم كثيرا من مصطلحات علم اللغة
الوصفي والتاريخي ، يختلف عنهما في الهدف لانه يغطي بشيء من التفصيل
الوضع الحالي للغات عاقدا المقارنة بينها في ضوء العوامل الموضوعية الحديثة
مثل عدد المتكلمين والتوزيع الجغرافي واحتمالات الاستفادة منها ، وأهميتها
التجارية والعلمية والسياسية في اطار عالمنا الذي نعيش فيه ، ولهذا يرى
ماريو باي ان هذا العلم ليس تابعا إلا من بعض الجوانب غير المباشرة لعلمي
اللغة الوصفي والتاريخي وانه يشكل حقلا خاصا بنفسه » (٣٩٥) .

ويذهب ماريو باي ايضا الى انه من الممكن ان يوصف هذا المنهج
« بأنه التطبيق العملي الحديث لعلم اللغة مبينا انه بينما يجد علمي اللغة التاريخي
والوصفي لا يظفر ان بغير اهتمام اللغوي المتخصص ، يظفر علم اللغة الجغرافي
باهتمام اي انسان تتاح له فرصة الذهاب الى خارج بلده ، او لاقامة اتصالات
أجنبية ، اذ تشغل الحالة الدولية بوجه عام » (٣٩٦) .

فعلم اللغة الجغرافي اذن ليس « فرعا من علم اللغة الذي يدرس اللغة في
ذاتها ولذاتها ، ومن ثم ينبغي ان نخرجه من مجالاته ، ونضعه في اطار علم
اللغة التطبيقي » (٣٩٧) .

ان الباحث اللغوي الجغرافي « يستخدم الاصول المقررة في علم اللغة
بفروعه الوصفي والتاريخي والمقارن ، فهو يبدأ عادة بدراسة وصفية على

(٣٩٤) نفسه .

(٣٩٥) اسس علم اللغة : ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٣٩٦) مدخل الى علم اللغة (د . محمد حسن عبدالعزيز) : ١٥٨ وينظر اسس

علم اللغة : ٣٨ .

(٣٩٧) نفسه .

محور المكان تقوم على جمع عينات من لغة الخطاب في المنطقة المراد دراستها ، ثم بعد ذلك يستخدم الطريقة المقارنة لدراسة الخلافات بين عينات متوازنة من حديث افراد مختلفين ، واخيرا يصل الى نتائج تاريخية تتعلق بتغيرات متوازنة ومتعارضة في نظام الحديث المستخدم في مناطق مختلفة ، وطبقات اجتماعية متباينة . ونظرا الى ان نتائج البحث في هذا الفرع من الدراسة اللغوية تقدم عادة في سلسلة زمنية ، فان هذه الدراسة كثيرا ما تعتبر (كذا) فرعاً من علم اللغة التاريخي ، ولكن ينبغي ألا تنسى انها تستخدم الدراسة الوصفية والمقارنة ايضا (٣٩٨) .

العرب والمنهج الجغرافي :

من الواضح ان دراسة اللغة جغرافيا ادت الى ان ينصب اهتمام الدارسين على اللغات الحية ، ولا سيما لغات التخاطب ، ولذا عُدَّ علم اللغة الجغرافي مرادفا لعلم اللهجات ، فقد اقر اللغويون الاوربيون الذين ابتدعوا هذا المنهج ان لغات التخاطب ، أو اللغات العامية ينبغي ألا تعد نقصا أو تشويها للغات الادبية الفصيحة — كما كان يعتقد من قبل — ذلك انها لغات تطورت عن اللغات الادبية ، وان لكل منها نظاما لا يقل عن نظام اللغات التي تطورت عنها ، وان لها بنيتها الخاصة ، ومعجمها الخاص ، وانها ليست اقل شأنًا من اللغات الادبية بوصفها وسائل للاتصال في المواقف التي تقتضيها ، وتستخدم فيها (٣٩٩) .

أما العرب المحدثون فلم يعنوا بهذا الوجه من الدرس اللغوي ، بل عزفوا عنه ، وزهدوا فيه ، « واكبر الظن ان سبب عزوف المعنيين باللغة عن هذا الدرس ، كرههم لما يياشره ابناء العربية من الاعراب بالالسن الدارجة ، وهي ما ندعوه باللهجات العامية » . وكأنه يخيل اليهم ان البحث في هذا الموضوع

(٣٩٨) نفسه .

(٣٩٩) مدخل الى علم اللغة (د . محمد حسن عبدالعزيز) : ١٥٥ .

يبيدهم عن العربية الفصيحة ، او قل يبيدهم عما يحرصون عليه من التراث الزاهر» (٤٠٠) .

ويذهب ابراهيم السامرائي الى غير هذا الذي يراه بعض اللغويين العرب، المحدثين ، فيقول : « ان العلم بالواقع اللغوي من العلوم الانسانية التي تهتم الباحث اللغوي كما تهتم الباحث في علوم الاجتماع . وليس الاهتمام بهذا يعني التنكر للعربية الفصيحة ، وما اظن الدارسين لمختلف وجوه الالسن الدارجة من الناطقين بالفرنسية مثلا متنكرين لفرنسية العصور الكلاسيكية » (٤٠١) .

ويذهب السامرائي الى ابعد من ذلك فيقول : « إن الاهتمام بهذا امر يقتضيه علم اللغة الحديث ، فان ما يعرب به الناطقون بالعربية من وجوه هذه الالسن لهو في علم اللغة شيء ذو اصالة ، وهو الصق بهم من اي لغة اخرى . ولكننا معاشر العرب مضطرون اضطرارا متأصلا الى الأخذ بالفصيحة الى جانب ما نباشره من هذه الالسن الدارجة » (٤٠٢) .

ويقول ايضا : « ولعل من الفائدة ان نعرف هذه الالسن معرفتنا للعربية المهدبة الاصيلية ، لان ذلك يعيننا على فهم كثير من مشكلات التاريخ اللغوي ، واذا كنا نجعل الكثير من تاريخ لغتنا الفصيحة ، فكيف لا تفيد من مواد هذه اللغات الدارجة في بناء هذا الهيكل التاريخي » (٤٠٣) .

ثم يقول : « وما لنا ألا نباشر هذا اللون من البحث اللغوي ، وقد سبقنا الى شيء منه علماء اللغة الاقدمون ، فسجلوا الكثير من عناصر اللغات الخاصة وهي ما ندعوه بـ (اللهجات) . إن كتب اللغة القديمة سجل لهذه

(٤٠٠) التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق (د . ابراهيم السامرائي) : ٥ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٦٨ .

(٤٠١) نفسه : ٦ ، ٥ .

(٤٠٢) نفسه : ٦ .

(٤٠٣) نفسه .

المواد اللغوية التي ابعدت عن العربية بعد ان توحدت هذه اللغة بأي الذكر الحكيم . ومع كل هذا فقد حفظت لنا القرون السابقة ما دعي بـ (القراءات الشاذة) ، وفي هذه القراءات الشيء الكثير من لوازم اللغات الخاصة « (٤٠٤) .

ويذهب عاطف مذكور الى ان اللغويين المحدثين « لا يميزون لغة من لغة ، وينظرون الى كل واحدة على انها شكل من اشكال التعبير اللغوي الذي له خصائصه ووظائفه » (٤٠٥) . ويرى ايضا ان علم اللغة لا ينظر الى اللهجات نظرة تختلف عن نظرته الى اللغة المشتركة ، فكل منهما نظام من الرموز يؤدي وظيفة في مجال محدد ، واللهجات موجودة فعلا ولا سبيل الى انكارها ، ولا ينبغي التقليل من اهميتها (٤٠٦) .

والى مثل هذا ذهب رمضان عبدالتواب ، اذ رأى ان المنهج الجغرافي قد طبق على نطاق واسع في اوربا وامريكا ، غير انه لا يزال غض الاهداب في بلادنا العربية ، وليس في لغتنا العربية إلا محاولة قام بها المستشرق الالماني برجستراسر لعمل اطلس لغوي لبلاد سوريا وفلسطين نشره في ليزج سنة ١٩١٥ . وقد دعا رمضان عبدالتواب الى مسح جغرافي للغات المحلية المختلفة في البلاد العربية ، والوقوف على خصائصها في الصوت والبنية والتركيب والدلالة ، ولمعرفة التغيرات التي تطرأ عليها من وقت لآخر ، وقد رأى ان هذا العمل يثري الدراسات في العربية الفصحى نفسها ، « اذ يتيح لنا ذلك المسح الجغرافي كتابة تاريخ هذه اللغة في عصورها المختلفة ، ويمدنا بوسائل علمية لمعرفة اقرب اللهجات العربية صلة باللغة الفصحى وابعدها عنها » (٤٠٧) . ورأى رمضان عبدالتواب ايضا ان المسح الجغرافي للغات المحلية في البلاد العربية يمدنا بالمعلومات اللازمة لمعرفة امتداد اللهجات العربية القديمة في الوطن

(٤٠٤) التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق : ٦ .

(٤٠٥) علم اللغة بين التراث والمعاصرة : ٧٢ .

(٤٠٦) نفسه : ٧٣ .

(٤٠٧) المدخل الى علم اللغة : ١٤٩ .

العربي ، ويفسر لنا النصوص المتتورة من هذه اللهجات في تراثنا العربي ،
« كما يتيح لنا هذا العمل فرص الدراسة المقارنة لابين اللهجات واللغة الفصحى
فحسب ، ولكن بين اللغات الجزرية المختلفة كذلك ، ويقفنا على مصادر
الكلمات الاجنبية هنا وهناك » (٤٠٨) . وقد أبان شتيجر اللغوي السويسري
قيمة الاطلس اللغوي واهميته للغة العربية بقوله : « وبالنسبة للغة العربية
نقول إن القيام بعمل أطلس لغوي لها ، سيحدث ثورة في كل الدراسات
الخاصة بفقه اللغات السامية ، لأنه سيكمل من غير شك ، الدراسات التي
تعتمد على النصوص القديمة ، بكشفه عن التطورات المتعلقة باللهجات ،
وباللغات الشعبية العصرية ، وسيكون لهذا الاطلس الفضل في اطلعنا على
تاريخ الاصوات ، والتغيرات التي اصابته اللغة العربية في الاماكن المختلفة
التي وصلت اليها ، وعلى مدى انتشارها وتأثيرها بالمراكز الثقافية وتنوع
مفرداتها ، الى غير ذلك من المكتشفات التي لا يمكن ان تتم إلا اذا جمعت
هذه المواد . انه سيكون عملاً ثقافياً من الطراز الاول ، وسيكون تحقيقه
عنوان مجد وفخار في تاريخ الثقافة العالمية » (٤٠٩) .

ويذهب بعض اللغويين كذلك الى ان دراسة اللغات المحلية لا تنطوي
« على فوائد لغوية فحسب بل انها تفيد المؤرخين وعلماء النفس والاجتماع
على حد سواء ، ويمكن لذلك ان يستعان بالاطلس اللغوية على هذه الدراسات
التاريخية والنفسية والاجتماعية على امس امتن واشمل . وفي هذا يقول
يود وهو استاذ سويسري متخصص باللغات الرومانية وهي الفرنسية
والاسبانية والاطالية : من المستحيل ان يكتب تاريخ صحيح للشعب الفرنسي
او الايطالي او الاسباني إلا اذا عرفت اللغات المحلية في تلك البلاد ، ودرست
دراسة عميقة ، تلك حقيقة خطيرة ، اصبحت مقررة معروفة » (٤١٠) .

(٤٠٨) نفسه .

(٤٠٩) المدخل الى علم اللغة : ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٤١٠) نفسه : ١٥٠ وينظر مصدره .

الاطلس اللغوي :

يقصد بالاطلس اللغوي « أنه مجموعة من الخرائط واللوحات توضح التوزيع الجغرافي للخصائص الصوتية او الصرفية او النحوية او المعجمية للغة او لهجة او لكتليهما ، ويجمع مادته باحثون مدربون تدريبا ميدانيا من رواة مختارين بعناية من بين المتحدثين باللغة او اللهجة المدروسة من خلال الاحاديث العادية او الاجابة عن اسئلة او الاستعانة باشرطة التسجيل ثم تسجل هذه البيانات على خرائط وتشر في كتاب » (٤١١) .

وقد يُعنى الاطلس اللغوي بعدة لغات فيتولى « توزيع اللغات والفصائل توزيعا جغرافيا على منطقة او اكثر من الكرة الارضية ، وقد يكون اطللس لهجات يعنى بتوزيع الظواهر اللهجية للغة معينة في منطقة معينة » (٤١٢) .

وواضح « ان الباحث اللغوي حين يجمع مادته من الرواة ويسجلها في الخرائط يقوم بعمل لغوي وصفي قائم على تسجيل الواقع اللغوي تسجيلا امينا ، كما ان موضوع الاطلس ليس مقصورا على الناحية اللغوية بل يستعان به على الدراسات الاجتماعية والتاريخية على اساس امتن واشمل » (٤١٣) .

وقد « بدأت فكرة عمل الاطلس اللغوي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ، وكان رائد هذا النوع من الدراسة التي اعترف علماء اللغات بما لها من نفع في حل المشكلات اللغوية هما (فنكر) **wenker** الالماني و (جليرون) **Gillieron** الفرنسي » (٤١٤) .

لقد عمل كل من هذين العالمين اطلسا لبلاده ظهر احدهما وهو الاطلس اللغوي لفرنسا بين عامي ١٩٠٢-١٩١٠ « ولم يتم حتى الان نشر الاطلس

(٤١١) مدخل الى علم اللغة (د. محمد حسن عبدالعزيز) : ١٦٣ .

(٤١٢) نفسه .

(٤١٣) مدخل الى علم اللغة (د. محمد حسن عبدالعزيز) : ١٦٣ .

(٤١٤) المدخل الى علم اللغة : ١٥٠ .

الالماني وان نشر جزء كبير منه فقد نشرت الدفعة الاولى منه وكانت مكونة من ست خرائط في عام ١٨٨١م ومنذ عام ١٩٢٦ اخذت طباعة الخرائط تتوالى على نطاق ضيق» (٤١٥).

ثم انتقلت فكرة عمل الاطالس اللغوية الى اقطار اوربية اخرى كإيطاليا وسويسرا والسويد والنرويج والبرتغال وانجلترا ، بمعنى انها شملت معظم بلاد اوربا ثم جاوزتها الى امريكا وبعض البلدان الشرقية (٤١٦).

والطريقة التي تتبع في عمل الاطالس اللغوي هو ان يحدد الاقليم الذي يراد تعرف خصائص لغته ، ثم تنتخب منه قرى وبلاد يلاحظ في كل منها ان تمثل الى حد ما البيئة اللغوية التي توجد البلدة او القرية فيها . وبعد ذلك يختار من كل قرية او بلدة راو يراعى فيه ان يكون من صميم ابناء البلدة التي يعيش فيها ، وألا يكون قد خرج منها ثم عاد اليها ، وألا يكون متأثرا بعوامل ثقافية تؤثر في لهجته ، وان يكون صريحا صادقا مخلصا في اجابته ، وألا يكون عنده عيب لفظي ، وان يكون قادرا على فهم السؤال والتعبير عن نفسه ، وعلى ادراك المراد (٤١٧).

وتكون ثمة اسئلة توجه الى الراوي ، تكون الاجابة عنها مشتملة على اهم ما يجري على ألسنة الناس في حياتهم اليومية في تلك البلدة من كلام ، ثم تدون عنه على آلة تسجيل ، او تكتب بطريقة الكتابة الصوتية ، او تستخدم الطريقتان معا في المركز الرئيس لعمل الاطالس (٤١٨).

وبعد ان تجمع الاجابات يبدأ الباحث بعمل خريطة لكل كلمة على حدة « وذلك بان تفرغ صور اللفظ وصيغه ومترادفاته على خرائط تفصيلية تشتمل على بلاد الاقاليم جميعها ثم تحدد عليها المناطق اللغوية المختلفة . وبعد هذا

(٤١٥) نفسه : ١٥١ .

(٤١٦) نفسه .

(٤١٧) مدخل الى علم اللغة (د . محمد حسن عبدالعزيز) : ١٦٥ .

(٤١٨) المدخل الى علم اللغة : ١٥٦ .

ترسم الخريطة العامة في ضوء الخرائط التفصيلية ، وتبين على هذه الخريطة العامة الحدود النهائية للمناطق اللغوية على وجه الاجمال » (٤١٩) .

فكل كلمة اذن او عبارة او اصطلاح يوضع على خريطة مستقلة كبيرة للمنطقة ، فالاطلس اللغوي الفرنسي مثالا يشتمل على خريطة منفصلة كبيرة لكلمة (حصان) كما تستعمل في لغة الكلام في نحو خمسمئة منطقة فرنسية مختلفة ، وهناك خريطة ثانية للكلب وثالثة للقط وهكذا (٤٢٠) .

وبعد ان ينجز الاطلس اللغوي يصبح « مرجعا للغوي اذ يزوده بالمعلومات التي يريد بها بدلا من الخروج بنفسه ومحاولة الذهاب الى الحقل اللغوي في المنطقة موضوع اهتمامه ، وان كان نزول اللغوي الى الحقل اللغوي قد يصبح ضروريا مع وجود الاطلس اللغوي حينما تواجهه مشكلات خاصة » (٤٢١) .

غير ان هناك عيبا مهما يقلل من قيمة الاطلس اللغوي « وهو انه لا يثبت على الزمن ما دامت اللهجات المحلية تتغير ، ربما بدرجة اسرع من اللغة الادبية ولهذا يعاد في بعض الاحيان اجراء عملية المسح اللغوي بعد مرور سنوات عدة ويصبح من الممكن حينئذ عمل مقارنة بين نتائج الاطلس وتكوين صورة شبه تاريخية عن التغيرات المتشابكة في كلام مجتمع معين » (٤٢٢) .

اطلس برجستراسر :

لقد عمل هذا المستشرق الالماني المتوفى عام ١٩٣٢ اطلسا لغويا لبلاد معوريا وفلسطين وقام هو نفسه بعمل تسجيلاته كلها عام ١٩١٤ . وكانت حصيلة هذه التسجيلات عبارة عن ٤٢ خريطة تفصيلية ، وواحدة اجمالية مع شرح لغوي في كتاب مستقل طبع في ليزج سنة ١٩١٥ (٤٢٣) .

(٤١٩) نفسه : ١٥٣ .

(٤٢٠) اسس علم اللغة : ١٣٣ .

(٤٢١) نفسه .

(٤٢٢) نفسه .

(٤٢٣) المدخل الى علم اللغة : ١٥٩ .

لم يعتمد برجستراسر على أسلوب قوائم المفردات التي يطلب من الراوي الذي يمثل البلدة في الاقليم النطق بها ، وانما اعتمد على أسلوب النص الكامل الذي يقسم على جمل صغيرة ينطق بها امام الراوي وهو يعيدها منطوقة بلهجته وقد علل اعتماده على النص بأنه كان يروم معرفة خصائص التراكيب (النحو) مع معرفة خصائص الاصوات والبنى الصرفية .

وقد اشتمل اطلس برجستراسر على معلومات لغوية عن لهجة البدو ولهجة الحضر في الاقاليم التي انصبت عليها دراسته ، ففي الناحية الصوتية مثلاً لاحظ ان (الكاف) يختلف نطقها بين البدو والحضر ، فالحضر ينطقونه (كاف) والبدو ينطقونه بصوت (تش °) . وفي ناحية المفردات مثلاً الضمير (نحن) ينطقه الحضر (نَحْنًا) وبعض البدو ينطقونه (إَحْنًا) وبعضهم ينطقونه (حِنَّا) وبعضهم ينطقونه (لِحْنًا) . وكذا كلمة (الان) يلفظها البدو وبعض الحضر (هَسَّاع) او (هَسَّع °) اما الحضر فينطقونها (هَلَّاء) وكذلك (إِسَّا) . وفي ناحية التعابير مثلاً تعبير (في عَرْضِكَ) او (بعَرَضِكَ) ينطقه الحضر هكذا ، واما البدو فيقولون (دَخِيلِكَ) (٤٢٤) .

هذه بعض الامثلة مما حواه اطلس برجستراسر ، سجلها الباحث متبعاً المنهج الوصفي الذي يعنى بتسجيل الواقع اللغوي ، ولا يهتم بالبحث عن الاسباب او الدواعي التي قادت اليه ، او بمعنى آخر لا يعنى بأصول الظواهر اللغوية (٤٢٥) .

(٤٢٤) المدخل الى علم اللغة : ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٤٢٥) نفسه : ١٦٣ .

الخاتمة

إن مناهج البحث اللغوي مما أسفر عنه الدرس اللغوي الحديث عند الاوربيين ، ولكن ذلك لا يمعنا من القول إن اللغويين العرب - بما عُرِفوا به من فِطْرٍ صافية ، وبصائر نافذة - اثرت عنهم اشارات ذكية ، تعد معالم رئيسة لاكثر هذه المناهج ، وقد حاول هذا الكتاب ان يقف في تناوله لكل منهج عند هذه المعالم ، ويسلط عليها مزيدا من الضوء ، ليكشف عن فضل العرب وسبقهم في هذه المضامير من البحث اللغوي .

ففي المنهج الوصفي وجدنا اللغويين العرب يأخذون بجوانب غير يسيرة منه ، ووجدناهم ايضا يخلّون بجوانب اخرى ، فلا يراعونها في بحوثهم اللغوية ، نظرا لما اخذوا بهم انفسهم من منهج لا يقتضي مراعاة تلك الجوانب . وأما المعيارية فقد وضّحت فكرتها في اعمال اللغويين العرب وضوحا قويا ، حتى لنستطيع القول انها كانت احد الاسباب المهمة التي حفظت للعربية صورتها المثلى التي استخلصت من كلام الفصحاء ، ثم ظلت تجوب العصور ، وتنتقل من جيل لآخر ، نقية صافية .

واما المنهج التاريخي فقد اثرت عن العرب فيه اشارات ذكية ، وظهرت منه في تراثنا اللغوي ملامح بارزة ، لا يخطئها الدارس المنقّب ، او الباحث الفاحص ولا تزال كثير من هذه الاشارات تنتظر من ينهد لاستقصائها ، والكشف عنها .

وقد كان المنهج التحويليّ ظاهراً كل الظهور في اعمال اللغويين العرب ،
حتى لنستطيع القول اننا لا نستبعد ان يكون القائلون به من الغربيين قد
أفادوه من التراث اللغويّ العربيّ ، إما بالاطلاع المباشر على هذا التراث ،
وإما بالاطلاع على ما ترجمه يهود الاندلس الى العبرانية •

ولم يخل التراث اللغويّ العربيّ من اشارات سريعة مبكرة الى المناهج
الآخري كالجغرافيّ والتقابليّ ، ولكنها لا تبلغ في قوتها ووضوحها ، ما
أثر عنهم في المناهج التي ذكرناها آنفا •

المصادر

- القرآن الكريم .
- أبحاث في اللغة العربية ، د. داود عبده ، بيروت ١٩٧٣ .
- أثر محاضرات دي سوسير في الدراسات العربية الحديثة ، حيدر سعيد ، رسالة ماجستير مخطوطة ، كلية الاداب - جامعة بغداد ١٩٩٦ .
- إحصاء العلوم ، الفارابي ، تح. د. عثمان امين ، ط ٣ ، ١٩٦٨ .
- الإحكام في اصول الاحكام ، ابن حزم .
- إحياء النحو ، ابراهيم مصطفى ، القاهرة ١٩٥٩ .
- أسس علم اللغة ، ماريو باي ، ترجمة د. احمد مختار عمر ، ط ٢ ، ١٩٨٣ .
- أشتات مجتمعات ، عباس محمود العقاد ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .
- اصلاح المنطق ، ابن السكيت ، تح. احمد محمد شاكر ورفيقه ، ط ٢ ، ١٩٥٦ دار المعارف بمصر .
- الاصوات اللغوية ، د. ابراهيم انيس ، ط ٥ ، ١٩٧٥ .
- اصول النحو العربي ، د. محمد عيد ، القاهرة ١٩٧٣ .
- اضاء على الدراسات اللغوية المعاصرة ، د. نايف خورما ، عالم المعرفة الكويت .
- الاقتراح في اصول النحو ، السيوطي ، تح. احمد محمد قاسم ، القاهرة ١٩٧٦ .
- الالسنية مبادئها واعلامها ، د. ميشال زكريا ، بيروت ١٩٨٠ .
- الانصاف في مسائل الخلاف ، ابو البركات الانباري ، تح. محيي الدين عبدالحميد ، ط ٤ ، ١٩٦١ .
- البحر المحيط ، ابو حيان الاندلسي ، القاهرة ١٣٢٨ هـ .
- تاريخ اللغات السامية ، ولفنسون ، ط ١ بيروت ١٩٨٠ .
- تاريخ النقد الادبي عند العرب ، نقد الشعر ، د. احسان عباس ، ط ١ ، ١٩٧١ بيروت .

- التطور النحوي للغة العربية ، برجستراسر ، اخرجته رمضان عبدالنواب . ١٩٨٢ .
- التفكير العلمي ، د. فؤاد زكريا .
- التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق ، د. ابراهيم السامرائي ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٨ .
- جمهرة اللغة ، ابن دريد ، ط ١ ، حيدر اباد الدكن ١٣٤٤ هـ .
- الجوانب الدلالية في نقد الشعر العربي في القرن الرابع الهجري ، د. فايز الداية ط ١ ، ١٩٧٨ .
- الخصائص ، ابن جني ، تح. محمد علي النجار ، ط ٢ ، بيروت .
- خصائص العربية ، محمد المبارك ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠ .
- دراسات في فقه اللغة ، د. صبحي الصالح ، ط ٦ ، ١٩٧٦ .
- دراسات في اللغة ، د. ابراهيم السامرائي ، بغداد ، ١٩٦٠ .
- الدراسات اللغوية عند العرب الى نهاية القرن الثالث ، د. محمد حسين آل ياسين ، بيروت د. ت .
- دراسة الصوت اللغوي ، د. احمد مختار عمر ، ط ١ ، ١٩٧٦ .
- دروس في الالسنية العامة (سوسير) ، ترجمة صالح القرماذي ورفيقه ، الدار العربية للكتاب ١٩٨٥ .
- دور الكلمة في اللغة ، ستيفان أولمان ، ترجمة د. كمال بشر ، القاهرة ١٩٧٥ .
- الزينة ، ابو حاتم الرازي ، تح. حسين الهمداني ، القاهرة ١٩٥٧-١٩٥٨ .
- شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك ، تح. محيي الدين عبدالحميد ، ط ١٤ ، ١٩٦٤ .
- شرح المفصل ، ابن يعيش ، عالم الكتب - الكويت .
- صاحبني في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، ابن فارس ، تح. مصطفى الشويمي ، بيروت ١٩٦٣ .
- علم الدلالة ، د. احمد مختار عمر ، ط ١ ، ١٩٨٢ .
- علم اللغة ، د. محمود السعران ، بيروت ١٩٦٢ .
- علم اللغة بين التراث والمعاصرة ، د. عاطف مدكور ، القاهرة ١٩٨٧ .
- علم اللغة العام (سوسير) ترجمة يوثيل عزيز ، الموصل ، ١٩٨٨ .

- علم اللغة العام الاصوات ، د. كما بشر ، ط ٤ ، ١٩٧٥ دار المعارف بمصر .
- علم اللغة العربية ، د. محمود فهمي حجازي ، الكويت ١٩٧٣ .
- فصول في فقه العربية ، د. رمضان عبدالتواب ، ط ٢ ، ١٩٨٣ .
- الفعل زمانه وابنيته ، د. ابراهيم السامرائي ، بغداد ١٩٦٦ .
- فقه اللغة في الكتب العربية ، د. عبده الراجحي ، بيروت ١٩٧٩ .
- فقه اللغة وخصائص العربية ، محمد المبارك ، ط ٥ ، ١٩٧٢ .
- فلسفة اللغة العربية ، د. عثمان امين ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥ .
- الفهرست ، ابن النديم ، القاهرة ١٩٧٩ .
- في التحليل اللغوي ، د. خليل عمايرة ، ط ١ ، ١٩٨٧ .
- في حركة تجديد النحو وتيسيره في العصر الحديث ، د. نعمة رحيم العزاوي ، بغداد ١٩٩٥ .
- في علم اللغة التقابلي ، د. احمد سليمان ياقوت ، الاسكندرية ١٩٨٩ .
- في علم اللغة العام ، د. عبدالصبور شاهين ، ط ٣ ، بيروت ١٩٨٠ .
- في اللهجات العربية ، د. ابراهيم انيس ، ط ٤ ، ١٩٧٣ .
- في النحو العربي نقد وتوجيه ، د. مهدي المخزومي ، ط ١ ، ١٩٦٤ .
- الكتاب ، سيبويه ، تح. عبدالسلام هارون ، ط ٢ ، ١٩٧٧ .
- الكتاب بين المعيارية والوصفية ، د. احمد سليمان ياقوت ، ط ١ ، ١٩٨٩ .
- لحن العامة والتطور اللغوي ، د. رمضان عبدالتواب ، ط ١ ، ١٩٦٧ .
- لحن العوام ، ابو بكر الزبيدي ، تح. رمضان عبدالتواب ، ط ١ ، ١٩٦٤ .
- اللغة ، فندريس ، ترجمة الدواخلي والقصاص ، القاهرة ١٩٥٠ .
- اللغة بين المعيارية والوصفية ، د. تمام حسان ، الدار البيضاء ١٩٨٠ .
- اللغة العربية معناها ومبناها ، د. تمام حسان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ .
- اللغة والحضارة ، د. مصطفى مندور ، الاسكندرية ١٩٧٤ .
- لغويات ، محمد علي النجار ، دار الكتاب العربي بمصر ، بلا تاريخ .
- المباحث اللغوية في العراق ، د. مصطفى جواد ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٥ .

- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها ، ابن جنسي ،
تد . علي الجندي ورفيقه ، القاهرة ١٣٨٦ هـ .
- المدخل الى دراسة النحو على ضوء اللغات السامية ، عبدالمجيد عابدين ،
ط ١ ، ١٩٥١ .
- المدخل الى علم اللغة ، د. رمضان عبدالنواب ، ط ٢ ، ١٩٨٥ .
- مدخل الى علم اللغة ، د. محمد حسن عبدالعزيز ، القاهرة بلا تاريخ .
- مدخل الى علم اللغة ، د. محمود فهمي حجازي ، ط ٢ ، ١٩٧٨ .
- المذكر والمؤنث ، الفراء .
- المزهري في علوم اللغة وانواعها ، السيوطي ، تد . محمد ابي الفضل
ابراهيم ورفيقه ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، بلا تاريخ .
- المسائل العسكرية ، ابو علي الفارسي ، تد . علي جابر المنصوري ،
ط ١ ، ١٩٨٢ .
- المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة ، د. اسماعيل عميرة ،
الزرقاء ١٩٩٢ .
- من اسرار اللغة ، د. ابراهيم انيس ، ط ٣ ، ١٩٦٦ .
- المنصف ، ابن جني ، تد . ابراهيم مصطفى وجماعة ، ط ١ ، القاهرة ١٩٥٤
- من قضايا اللغة والنحو ، د. احمد مختار عمر ، عالم الكتب ١٩٧٤ .
- منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث ، د. علي زوين ،
بغداد ١٩٨٦ .
- المنهج الوصفي في كتاب سيبويه ، نوزاد حسن احمد ، رسالة دكتوراه
مخطوطة ، كلية الاداب - جامعة بغداد ، ١٩٩١ .
- المنهج الوصفي في النحو العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، حقي
اسماعيل ابراهيم ، رسالة دكتوراه مخطوطة ، كلية الاداب ، الجامعة
المستنصرية عام ١٩٩٧ .
- الموازنة بين شعر ابي تمام والبحثري ، الحسن بن بشر الامي ، تد .
السيد احمد صقر ، دار المعارف بمصر ١٩٦١-١٩٦٥ .
- الموجز في النحو ، ابو بكر بن السراج ، تد . مصطفى الشويمي ورفيقه ،
بيروت د. ت .
- النشر الفني في القرن الرابع الهجري ، د. زكي مبارك ، ط . المكتبة
التجارية الكبرى سنة ١٩٥٧ .

- النحو العربي والدرس الحديث ، د. عبده الراجحي ، بيروت ١٩٧٩ .
- النحو الوافي ، عباس حسن ، ط ٢ ، ١٩٦٣ ، دار المعارف بمصر .
- نزهة الالباء في طبقات الادباء ، ابو البركات الانباري ، تح . د. ابراهيم السامرائي ط ٢ ، ١٩٧٠ .
- نظريات في اللغة ، د. أنيس فريجة ، ط ١ ، ١٩٧٣ .
- النظرية التحويلية في الدراسات النحوية العربية ، كريم عبيد عليوي ، رسالة ماجستير مخطوطة ، كلية التربية ، الجامعة المستنصرية ١٩٩٩ .
- النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري ، د. نعمة رحيم العزاوي ، بغداد ١٩٧٨ .

من المجلات

- مقال (المصطلح الالسنى العربى وضبط المنهجية) ل احمد مختار عمر ، منشور في مجلة (عالم الفكر) مج ٢٠ ، العدد ٣ ، ١٩٨٩ .

ثبت المواضيع

الموضوع	الصفحة
تقديم	٣
المقدمة	٧
القسم الاول	
مفاهيم ومصطلحات في اللغة ودراستها	١١
(١)	
علم اللغة	١١
(٢)	
اللغة والكلام واللسان	٤٠
(٣)	
علم اللغة الاجتماعي	٤٨
(٤)	
علم اللغة النفسي	٥٩
(٥)	
علم اللغة التطبيقي	٦٨
(٦)	
سمات الدراسة العلمية للغة	٧٣

	القسم الثاني
٨٣	مناهج البحث اللغوي
	تمهيد
٨٣	تاريخ الدراسات اللغوية القديمة
	(١)
٩٤	المنهج الوصفي
	(٢)
١٤٣	المعيّارية
	(٣)
١٤٨	المنهج التاريخي
	(٤)
١٦٧	المنهج المقارن
	(٥)
١٦٨	مناهج أخرى
١٦٨	١ - المنهج التحويلي
٢٠٤	٢ - المنهج التقابلي
٢١٧	٣ - المنهج الجغرافي
٢٣٤	الخاتمة
٢٣٦	المصادر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ٩٧ لسنة ٢٠٠١



مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة

تأليف

الدكتور نعمة رحيم العزاوي

استاذ العلوم اللغوية

كلية التربية (ابن رشد) - جامعة بغداد

منشورات المجمع العلمي

مطبعة المجمع العلمي

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م